# إِرَمِ

# العهد الحديث

عنوان الكتاب: إرم العهد الحديث
الموضوع: رواية
التأليف: يوسف حسين
مراجعة لغوية: محمد حمدي الشعار
الإخراج الفنيّ: عمرو سالم سواح
غلاف: فارس إيهاب
رقم الإيداع: ٢٦١٠٩ /٢٠١٩
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٣٥-١٧٠-٥

الناشر : زحمة كتاب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع
Facebook Page: اسكرايب للنشر والتوزيع
Email:scribe20199@gmail.com
Tel: 00201005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار
اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

رواية

# إبراهيم العهد الجديد

يوسف حسين

إلى مخلفاتَ أرحام بعضه النساء

أهدي إليكم روايةَ أحكمتَ تفاصيلها ب"سوتَيان"

أثداء أمهاتكم المسرطنة، ومع تجرع آخر سطر

منها؛ سيقذف بكم في مراحيضه الجحيم..

# مُقَدِّمَة

هي ليست رواية كما تظن؛ إنها الوجه الآخر للعالم عندما يكشر عن أنيابه، فلا تكن أنت الفريسة..

# الفصل الأول

مدينةٌ لا تشبهُ سواها، كأنها لؤلؤةٌ سقطت من عقدِ الزمانِ واستقرت في أقصى شماليِّ البلادِ.. بهيةٌ، جميلةٌ، رائعة، وساحرةٌ بكل معالمِها، تزيد من سحرها وروعتها بحيرةٌ استعارت لونَها من السماء، ما أجمله من لون عندما تنثرُ الشمسُ أشعتها الذهبيةَ عليها، فيحسبُها الرائي بحيرةً من ذهب، شاطئها الرمليُّ الأسودُ شبيه بكحلاءَ عربيةٍ في عينٍ زرقاءَ أعجميةٍ.. جبالُها مكسُوَّةٌ بحُلَّةٍ بيضاءَ تُحيطُ بها من كلِّ جانبٍ، كأنها سربُ حمامِ السلام تَطوَّقَ بِغصنٍ من الزيتون لحمايته من شرِّ الطُّغاة، طيورُها النادرةُ جمعت البياضَ والسواد في آنٍ واحدٍ وكأنها تقول للكون: ها أنا قد كسرتُ قواعدَك وجمعتُ الليلَ والنهار في جناحيّ؛ حين تحطُّ على حقلٍ من أزهارِ الزنبق الأرجوانيِّ ترسم لوحةً ربانيةً - سبحان من أبدع وصور-..

تلك المدينة يتمتَّعُ أهلُها بالجمال، لا تكاد تفرق بين رجلٍ وامرأةٍ إلا بردائهم فقط-على الرغم من ذلك- يتَّصفونَ بالكرم فلا يطأُ أرضَهم غريبٌ إلا أكرموه، بل وتصارعوا معاً على مَنْ منهم يستقبلُه ضيفاً...؟! وحبذا لو حل الضيف في فصل الشتاء وشاهد معظمهم يصطادون الأسماك في وضح النهار، خصوصاً لو توافق مجيئُه في هذا اليوم (دُر الفساد) وهو ما يُطلَقُ على اليوم الثالثِ من كلِّ شهرٍ شتويٍّ حيثُ يندفعُ المدُّ بكلِّ قوةٍ فيصبحُ الصيدُ وفيرًا .

تخلَّى النهارُ عن موضعِه ولملمتِ الشمسُ أوراقَها الصفراءَ وذهبتْ لتستريحَ بعدَ يومٍ لم تبذلْ فيه الكثيرَ من طاقتِها؛ بينما الناسُ توجَّهوا إلى منازِلهم وهم يُدندنون بأغانٍ فيروزيةٍ، وجوهُهم مُسفِرةٌ مرآةٌ لِمَا في قلوبِهم من سعادةٍ، صدورُهم مرتخيةٌ تتبختر من فرطِ الرضا، أَهّلَّ الليلُ بمصابيحِه

البيضاءِ برفقةِ الهدوءِ وظلًّا يتجولانِ في الشوارعِ حتى الهزيعِ الأخيرِ من الأول، حضرتهُما ثالثتُهما (الريح)، فاستبشرا بقدومِها وظنَّا أنها لن تهتك عِرضَهما لأنها أُختُهما من الرضاعةِ، اصطبرا عليها حتَّى استحضرت كلَّ قواها وخرجت عليهما قوانِصَ وبدأ زفيّها يجتاحُ السكونَ، جشأتْ فغزتِ المدينةَ من الناحيةِ الشرقيةِ، وما إن وصلت إلى رمالِ الشاطئِ حتى هوّدتّهُ وهجّت به فأصبح نئيجُها أشدَّ من هِجَفِ الرعد حين يكونُ في أوجِ هَزَقه، فَزِعَ منها النيامُ وتهشمت النوافذ وتصدعت الجدران حتى أنهم ظنوا أنَّ القيامةَ قد باغتتهم فهرعوا مسرعين للخارج لكنَّها حاصرتْهم بصوتٍ سهوجٍ قاصفٍ، أصبحتِ الأزقَّةُ حلبةً مليئةً بالخلق، لا تحملُ خصمين سوى هم والجافلة، والغبار يلفهم برداءٍ من شوك، أيقنوا ألَّا قِبَلَ لهم بها ولا يدرون على أيٍّ سترسُو هذه الحرب بحُطامهم فاستسلموا لهمّزِها حتى أنها حملت على ظهرها من حملت ورمتهم خارجَ البلادِ ثم هاجمت البقية فمنهم من افتدت روحه نفسَها وقدَّمت الجسدَ قُرباناً، ومنهم من دَعِبَتِ الداعِبة به وقذفته في مياه البحيرة، أمَّا الأطفالُ فقد خَجّخَجت أرواحُهم، كانت تغزو البيوت من كل اتجاه تأخذ من سُكَّانِها الواحدَ تلوَ الآخر ثم تخرجُ باحثةً عن غيرِه، اقتحمت منزلاً كانت فيه امرأةٌ تقبض على عنق رجلٍ وتصرخ :

-لن أسامحَك أبدًا..

شيءٌ ما في صدرِها ماجَ كالبحر الهادر ثم سكن، عيناها ما انفكَّتا كجمرتَي شتاء، يبدو أنَّ روحها قد هجرت جسدها، فقليلٌ من الزفرات عجزتْ أنْ تُترجمَ الموتَ، تخلَّصَ الرجلُ من قبضةِ يدها المستميتة على عنقه بصعوبةٍ بالغة، وكأنها أصفادٌ طُوِّقَ بها، ركض نحو الخارج فاصطدم بجسدٍ قويٍّ البنيان، وقع أرضًا ثم نهض وتابع الركض حتى أصبح في الشارع، وقف لبرهةٍ مُستنكرًا ما حدثَ فالتقطتْه الريحُ كحبةِ خردلٍ لقطها طائرٌ وألقى بها في أرضٍ بعيدة..

*****

عندما تكونُ الحياةُ مقلوبةً رأساً على عقبٍ تضرَب الأنفسَ بسوط القسوةِ فيندثرُ منها الوفاء تحْتَضن بخبثٍ ودهاءٍ فنحصد منها أزهار الخذلان حتى أنه ذات ضياع مفضوحٍ قرَّر أن يسيرَ مقلوباً عبر أنامل يديه بجنونٍ علَّ الحياةَ ترتكز وتعود بمساراتِها، ولكن لا حياة لمن تنادي، وجد نفسه مزروعاً في أرض الأفاعي، حاول التملُّصَ فكان نصيبُه زنزانةً لا أحد يأبهُ بِها ولا يرى ملامحَها النتنةَ على خارطةِ العالم ويحفظُ حدودها سواه، ولا أحد يُغرِقُ حمامَها دموعاً وقهراً سوى عينيه، صباحُها يتلوَّن بِلونٍ واحدٍ يأخذُ من لونِ الشمس على جبينِ الفناء يأمرُ الغيمَ بظلٍّ لا يزول على جسدٍ أنهكه تطاوُلُ الفصولِ ليصبغَ أجزاءه بِسمارٍ قاتمٍ يُشبه غيمةً سوداءَ خاويةً من كلِّ شيءٍ سوى بعضٍ من صرخات الرثاء، زنزانة شبيهة بحياته لا فرق بينهما، بحث عن متعة الأرستقراطيين حتى تعرقل بأحدِهم، ظنَّ أنه سينتشله من وحل معيشته ليضعَهُ على قممِ الثراء، اكتشف أخيرًا أنَّه سرابٌ اجتاحَ صحاري الكادحين، وَهَمٌ أسقط الظمآن في شِباكِ الموت؛ ابتلع ريقه بصعوبةٍ وهو يفتحُ عينيه ببطءٍ ليتسللَ إليها ضوءٌ خافتٌ ينبعثُ من مصباحٍ يتوسَّطُ غرفةً ضيقةً، حاول أن يرفعَ يديه حتى يحجب عنهما ذلك الضوءَ الذي افتقده منذ أيام لا يعلم عددَها، لكنه تفاجأ بيديه مكبلتين خلفه وهو ملقىً على أرضِ الغرفة كثيابٍ رثةٍ في مخلفاتِ إحدى الفيلاتِ الفارهة.. رويدا رويداً بدأت عيناه تألفُه من جديد.. لكنَّه لازال مُنَكَّسَ الرأسِ يحاول تحديدَ ماهيةِ ذلك الشيءِ الذي وقعت عيناه عليه...!

ها هو يعودُ لرؤيةِ الأحذيةِ الفخمةِ من جديدٍ؛ لكن تلك المرةَ كانت تختلف عن سابقاتها فقد كان صاحبُ الحذاءِ رجلاً مديدَ القامة، مفتولَ العضلات ذا عينينِ ضيقتينِ تُشعَّانِ مكراً ودهاءً، وأنفٍ حادٍّ ينمُّ عن شخصيةٍ جادةٍ.. يقفُ مُستنداً بيديه على طاولة.. ينظر لصيدِه الثمين وهو يتكوَّرُ على نفسِه في أرضيةِ الغرفة؛ وجسدُه يرتجف كخرافٍ مبتلةٍ في ليلةِ شتاءٍ عاصفةٍ!

طال الصمتُ بينهما إلى أن قطعه الأوَّلُ وهو يقول بصوتٍ أجش:

- جمال.. أظنُّ أنك تعلم جيداً ما أنت فيه الآن...! الموتُ آتٍ لا محالةَ...! فإمَّا أنْ تُنقذَ نفسك وتخبرَني بموضعِ الملفِّ وإمَّا أن أُرسلَكَ إلى الجحيم هديةً لا تُردُّ...!

صمت الأخيرُ لوهلةٍ، ثم تنهَّدَ بعمقٍ وتحدثَ بكبرياءٍ مُتصنَّعٍ بعدما سيطر على دقَّاتِ قلبِه التي أخذت تتسارع نحوَ الهلاك :

-ومن أخبركَ بأنني حيٌّ...؟! ربما تكونُ بذرةُ الحياةِ الوحيدةُ في أرض روحي هي ملفُّكم، اضمن لي خروجاً آمناً من هنا، أضمن لكم بقاء كرسيكم..

اشتعلت عينا الضابطِ بالغضبِ، وأخذ يرمقُه بحنقٍ، ثم مالَ نحوه حتى لفحت أنفاسُه وجهَه وأمسك بقميصِه وجذبه إليه بعنفٍ وهو يغرزُ السُّمَ في عينيه، ثم قال والكلامُ يخرج من بين أنيابِه كخنجرٍ مُستلٍّ:

-حسنا سنرى وستعلمُ أنني لا أشتهي الجيفةَ.. سأصلُ إلى لحمِ الناقة حتماً، وحينها فقط ستدرك أنَّ صنمَ عنادِك الذي تتوارى خلفه لم يكن سوى عجوةٍ قابلةٍ للأكلِ...!

نفضَ يده عنه ليهوِي على ظهره مرةً أخرى ثم رفع قامتَه ووقف ينظر إليه وقد ارتسمتْ ابتسامةٌ غامضةٌ على جانبِ شفتيه وهو ينادي على السجانِ الذي كان يقفُ خارجَ الغرفة:

-خذه وافعل ما أمرتُك به ولا تجعل أحداً يقتربُ من زنزانتِه وسأنتظرُ منك مكالمةً سارةً..

لكلِّ شيءٍ في الحياة سرٌّ، وسرُّه خيباتٌ متتاليةٌ ونجاحٌ يتيمٌ، نصفُ نهارٍ على ظهرِه وليلٌ غريبٌ يتكئُ عليه، وبضع وخزاتٍ في صدره، ثم ماذا...؟ ثم جحيمٌ على سطح الأرض زبانيتُه بشرٌ مثلُه، ثوانٍ وتبدد النور وحلَّ الظلام ثانياً، جلس يتكئُ على الجدار مُقرفصاً ويداه مكبلةٌ خلف ظهره ثم زفر بنفورٍ، كان يظن أنه سيتملَّصُ من ساحةِ الفقراء ويمزقُ ثياب ضنكِهم، ويغتسلُ بنبيذِ الأغنياء ليثملَ من رائحتِهم العطرةِ، ويضاجعَ أحلامَهم الثمينةَ فينجبَ واقعاً

مخملياً يُضمِّدُ ندوبَ الماضي في رُوحِه ويُرطِّبُ ملامح مستقبلِه، لكنَّ الخيبةَ أعادته مُكبلاً لساحة الحرب، رفع بصره إلى السماء، شهقت عيناه رجاءً إلى الملكوت الأعظم، شكا عجزَه وقلَّةَ حيلتِه بصمتٍ علّ شكواه لا تحجبُها الذنوب :

- من وحيِ الرمادِ من غضبِ المكفوفين من نحيب المنكسرين من أنين المتعبين أطلبُ العونَ للأرواحِ المنهكةِ ولنفسي..

أطلقَ روحَه للسماءِ وتمنى أن تخطفه بناتُ الجنِّ الأبيضِ وتعيدَه إلى حيِّ الكادحين الذي تمرَّدَ عليه..

*****

ضوءٌ خافتٌ يتسلَّلُ من مصباحٍ يتوسطُ غرفةَ النوم، شقةٌ فسيحةٌ ذاتُ أثاثٍ راقٍ ينمُّ عن عيشةٍ رغدةٍ هنيئةٍ، لكنَّها تبدو كئيبةً وشاعريةً في الوقتِ نفسِه، غرفتانِ مغلقتانِ كما لو كانا مجرد ديكورٍ لا حاجةَ فيه وغرفةٌ أخرى ينبعثُ منها الضوء على استحياء أو ربما يفعل وظيفته رغماً عنه، صمتٌ ثقيلٌ لا يقطعُه سوى صوتِ عقارب الساعة المعلقة على جدارِ الصالة، وقطراتُ المياه تعزف لحناً يبعثُ الحياةَ في المكان وتدبُّ به الرغبةُ في الأجساد، دلفت ليلى إلى غرفة سعد بعدما رقصت رقصتَها الفريدةَ مع المياه الدافئةِ، وعطَّرتْ جسدَها بالعطر الذي يعشقُه وتركت شعرها يسير خلفها كحارسٍ أمين، جلست بجواره على فراشِه وهو لا يزال في سُباتِه العميق، رفعت رأسَه عن الوسادةِ وضمَّتها إلى صدرِها، وداعبت بأناملِها خُصلاتِ شعرِه التي كساها البياضُ بفعل الزمان ثم مالت برأسِها تشتَمُّ أنفاسَه وتداعبُ أنفَه بأنفِها حتى فتح نصفَ عينِه وابتسمَ في وجهِها ابتسامتَه الصافية.. علمَ أنها تشتهيه...! فهذه عادتُها دائماً كلَّما أرادته أن يدغدغ أنوثتَها المتوحشةَ، رفعَ نصف جسدِه إلى أعلى حتى بدا كطفلٍ صغيرٍ بين أحضانِ أُمِّه، استنشقَ عطرها الذي يُثمِلُه

فزفرَ بشدةٍ وضمَّها إليه، داعبَ بشفتيه شفتيها الرقيقتين وتسللت أناملُه عبر قميصِها الأسودِ الشفاف لتلامس زواياها البارزةَ، اشتعلت أنوثتها فأصدرت صوتاً كصرخةٍ تُعلن عن ثورةٍ قادمةٍ ثم انزلقت بجسدِها حتى استلقت على الفراش، وجذبته إليها بعنفٍ فالتصقَ جسداهما مثل شفتين في فمٍ واحدٍ.

*****

الأرضُ مليئةٌ بالحجارة الصماء التي رغم صممها تسمعُ لها أنيناً كأنين يتامى الطُغيان، ترابُها جفَّ وتبدلت أزهارُها بأشواكٍ حمراءَ.. لعنةً من الدماء التي سقتها، كلُّ شيءٍ فيها حلَّت عليه اللعنة، حتى جبالُها الشامخةُ، أكبرها تغطي قمتَه أشجارُ السرو الحزينة، أوراقُها ملأها الشيبُ من المصائب التي رأتها، أوسطُها ماتت كلُّ أشجارِه حتى أصبح أجردا شاحباً، أصغرُها يرتجفُ خوفاً ويختبئُ في حضن أخويه، أمامَهم سهلٌ مليء بأشجارِ التفاحِ.

والذي تحوَّلَ إلى حقل ألغام عتيق، لا يستطيع أحدٌ الاقتراب منه، حتى الطيورُ تخاف أن تُحلِّقَ فوقه، في الطرف المقابل على جانب الطريق شجرٌ مصطفٌّ واحدةً تلوَ الأخرى كأنها تتسابقُ للهجرة إلى خارج وطنِها بعد أن سرقَ أوراقَها لهيبُ الطغيان، كما سرقَ أرواحَ الناس؛ خلف هذه الأشجارِ دموعُ السماء تجمعت في نبعةٍ صغيرةٍ تفجرت من تلَّةٍ لتروي ظمأ المُنهكين من الهجرة، رائحةُ الموتِ والرعبِ تملأُ المكان.. وجهٌ شاحبٌ هاربٌ من الموتِ ظهرَ من العدم، عيناه لا يوجد فيهما نبض حياة، قلبُه يعتصرُ ينزفُ ألمَاً، أقدامُه عاريةٌ على طريقٍ مليء بالأشواك، دماؤها تسقي التراب، وِجهتُها حدودُ البلاد..

لا يعلم أين سيذهبُ أو ما الذي ينتظره هناك وراءَ تلك الأسلاك الشائكةِ - جنةً أم ناراً- يتراجعُ بظهره فيشعرُ أنَّ شيئاً ما يدفعه للأمام كعاصٍ قضى عليه الموتُ مُسجَّيً في تابوته يُحمَلُ على أربعِ أكتاف، مرعوبٌ مما هو قادمٌ عليه، يتشبثُ بخشبته، يصرخ بنبرة الواثق من هلاكه

- أخروني.. أخروني

فيدفعه حاملوه إلى الأمام، لا وقت للرجوع، خُض معركتك الحقيقية، امض في الطريق الذي اخترته لنفسك، لقد غَرَبتْ شمسُك ولا مشرِقَ لها بعد اليوم.. لا يعرف لماذا يحنُّ لِمَا هو خلفه...؟، هل هو موطنه الذي سيغادره رغماً عنه وسيترك فيه أحلامَ الطفولةِ، طيشَ الشبابِ، لحظاتِه الحزينةَ والسعيدةَ، آمالَه التي كان يرسمها على جدران القدر في كلِّ ليلةٍ قبلَ أنْ ينامَ.. كل شيء، روحه، قلبه، عقله...!

مع كلِّ خطوةٍ يخطوها رغماً عنه تُقرِّبُه من الحدودِ يزدادُ حجمُ الألم والوجع والقهر، شيءٌ ما خفيٌّ يُمسِكُ بعنقِه يشدُّه إلى الوراء يزيدُ من تثاقل خطواته، لكن لابد من متابعةِ السيرِ فلا خيارَ ثالثٌ له، المجهولُ من أمامِه والموتُ من ورائه، ومع حلولِ الظلامِ وصلَ إلى سهلٍ جافٍّ يفصلُ بين جبلين شاهقين، كانت الحدودُ تلوح له من بعيد بأسلاك شائكة وكأنها انعكاسٌ لِمَا يدورُ في رأسه، وبينما هو شاردُ الذهنِ شعر بجسدٍ ضخمٍ يستقرُّ خلفَه مباشرةً، كان ينتظر أن يجدَ فوهةَ بندقيةٍ تصفعُ رأسَه، لكنه حينما استدار فوجئَ برجلٍ غليظٍ كئيبٍ وكأنه نافخُ الكير، سقط قلبُه أسفلَ قدميه من شدةِ الهلع، حاول الركض لكنَّ قدميه أبتا الرجوع، فلم يتقدم سوى بضع خطواتٍ للأمام ثم توقف وهو ينظر للرجل خلفه، تقدَّم الرجلُ نحوه حتى وقفَ بالقربِ منه وأشار له بالاقترابِ أكثر، جرَّ قدميه جرًا كمن يحملُ ذنوبَه على ظهرِه ويسيرُ بها، وقف أمامه وأعضاؤه ترتعد، سأله الرجلُ بلهجةٍ أعجميةٍ وهو يشيرُ إلى الأسلاك الشائكة :

- هل تودُّ العبور...؟

صمت ولم يجبْه وكأنه لم يسمعْه...! فصرخ فيه بنبرةٍ غليظةٍ تحملُ التوبيخ:

- انطق أيها الأحمقُ.. هل تود العبور...؟

ارتجف بشدةٍ إثرَ توبيخِه وأومأ برأسِه إيماءةً تنمُّ عن موافقتِه، فأضافَ الرجلُ بنبرةٍ أقلَّ خشونة:

-أين النقود...؟

هزَّ الأولُ كتفيه دون أن ينبسَ ببنتِ شفةٍ.. فاعتقد الثاني أنه لم يفهم سؤاله، لكن ليس لديه وقتٌ لحشرِ الحديثِ داخلَ رأسِه مما دفعه أن يفتشه بطريقةٍ مهينةٍ أشبهَ بما يقوم به رجالُ الشرطة، أخرج ما في جيبه دونَ النظرِ في محتواه ثم وضعَهم في حقيبتِه التي يحملُها على كتفه، أشار له برأسِه أن يتبعه.

سار خلفه وركبتاه تتصارعانِ تخبطًاً، لا يعرف أين يذهبُ وماذا سيكون مصيرُه، وضع إصبعُه في فمِه كما تفعلُ الأطفالُ الصغارُ حين يشعرون بالتوتر كأنه وُلِدَ من جديدٍ، أكَّدَ إحساسَه ذلك دمعتان سالتا على خديه دونَ إرادةٍ، فاستغرب لحالِه كثيرًا، ودَّ أن يصرخ ببكاءٍ وخرجت بعضُ نبراتِ صوتِه مُعلنةً عن هذا، فانتبه لها الرجلُ وتوقفَ على الفور والتفتَ خلفه ثم ربتَ على كتفيه بحنوٍّ وابتسمَ في وجهِه وكأنَّ ما فعله الرجلُ كان دافعاً لانهيارِ الشابِّ في البكاءِ بصوتٍ مرتفعٍ، شعرَ الرجلُ بالدهشةِ وتذكر مولودَه الصغيرَ الذي لم يتخطَ عامَه الأوّلَ، تذكر حين خرج من رحمِ أُمِّه يبكي ويصرخ، وكأنَّ المشهدَ يُعاد أمامه من جديد، مما جعله يحتضن الشابَّ بقوةٍ وبنبرةٍ حنونةٍ قال:

-لا عليك بني.. يبدو أنَّ الحياةَ لم ترضعك حليبها المُرَّ إلى الآن.. فكن على قدرٍ من التحمُّلِ فالقادمُ أمَرّ وأدهى من هذه اللحظات، حين تصلُ لغرضك إياك أن تنسى موقفك هذا وتغرَّك الدنيا بِسكَّرِها المزيفِ حتى تسقيَكَ من سُمِّها القاتلِ على حين غِرَّةٍ منك..

لم يُعلِّق الفتى على حديثه وكأنه أبكمُ أصمُّ لا يفقه ما يقال ولا يسمعه، بل بطريقةٍ تثير الدهشةَ حكَّ جانبَ أُذنِه اليمنى مما دفع الرجلَ للضحك بهستيريةٍ، واصطحب الفتى خلفه ثم توقف فجأةً وجسا على ركبتيه وأخذ يُزيل طبقاتٍ من الرمال، لم يستغرق الأمرُ سوى خمسِ دقائقَ حتى ظهر بابٌ خشبيٌّ عتيقٌ تنحدرُ منه للأسفلِ درجاتٌ متهالكةٌ من بعدها لا ترى سوى

الظلام الدامس، أشار له الرجلُ بالهبوط، وقف لبرهةٍ والتفت للخلف وتدفقت الدموعُ من عينيه كشلالٍ هادرٍ، وكأنه يُودِّعُ روحَه، حنينٌ غريبٌ يشدُّه للخلف، لا يعرف ما الدافع وراءَه، ذاكرتُه خاويةٌ على عروشِها، عقلُه قد تركه وحيدًا وذهب إلى العدم..! طالت نظراتُه للظلامِ حتى أخرجه الرجلُ من شرودِه حين هتف فيه:

-هيا.. لا وقت لدينا كي نضيِّعَه في بلدٍ لو كانت خيرًا لنا ما تركناها.

لم ينتظر الرجلُ حديثَه، فأمسك بيديه وجرَّه للأسفلِ واستأنف:

-هيا أيها الأحمق.. أتريدُ أن تموت...؟

هبطا السُّلَّمَ بمشقةٍ بالغةٍ، وقد جفَّ حلقُه من أثرِ الرمالِ.. هتف الرجلُ بحماسٍ: خمس عشرةَ دقيقة ونصلُ للجهةِ الأخرى من الحدود، سأتركُك بعدها، لكن عليك الفرارَ سريعاً وإلا مزقتك مخالبُ حرسِ الحدود..

خرجَ من الجهةِ الأخرى.. قرر أن يلتفتَ إلى الوراء ليُلقيَ آخرَ نظرةٍ على مجهولٍ لا يعرفُ ماهيتَه، ودَّعه والحُرقةُ تملأُ مُقلتيه، أكمَلَ الطريقَ لا يعلم في أيِّ اتِّجاهٍ سيسير، فقط ما يدركه أنه مُعلَّقٌ بين السماءِ والأرض، صفيرُ رياحٍ ونجومٌ حزينةٌ وظلامٌ دامسٌ وكأنَّ كلَّ شيءٍ حولَه يعاتبُه أو يؤنِّبُه، أنهكه التعبُ وغلبَه النعاسُ.. أسندَ رأسَه على صخرةٍ وغَرِقَ في النوم.

راح في سُباتِه كأنه لم ينم منذ دهرٍ مضى، فجأةً شعرَ بلكماتٍ على كاملِ جسده المنهك، فزَّ مفزوعا:

ما هذا...؟! يبدو أنه كابوس.. لا ليس كابوسا.. هؤلاءِ حرسُ الحدود...

ضربوه ضرباً مبرحًا حتى شجُّوا رأسَه، أحدُ الجنودِ أمسكه بغيظٍ من ثيابه ورفعه عاليا كمن يرفع ريشةً، ووجَّهَ له ضربةً على فيه أفقدته رَباعيتَه، بعد أن فرغوا من ضربِه أُغمي عليه فحمله أربعةٌ منهم وألقوا به داخل سيارتهم.

*****

# الفصل الثاني

في صباحٍ باهتٍ كهذا جُلُ ما تحتاجهُ هو صوتٍ حنون تُجري معهُ حديثاً لطيفاً أو ربما عِناقاً ساخناً يُبلل الروح فقط لتتأكد أنها غير مُسنِّةٍ؛ قبضَتْ على هاتفها.. مررت أصابعَها على شاشتِه، كانت أسماءُ أصدقائِها تجري أمام عينيها ببطءٍ مجرى السحاب المُحمَّلِ بالأمطار حتى توقفت أناملُها عند اسمه...! أرادت أن تُمطر نبراتِه على روحها لترطبها، قبل أن تستدعيَه لحديثِها لمحت أرقام ساعتِها تتراقصُ في عينيها كشيطانٍ منتصرٍ، الوقت لازال باكرًا على استيقاظِه، تأففتْ بغيظٍ، وضعت الهاتف بجانبِها ثم دارت عيناها في الغرفة، خُيِّلَ لها أنَّ امرأةً برداءٍ أبيضَ لها أجنحةٌ كما الملائكة ترفرف بها، وجهُها مألوفٌ لها تحفظُه عن ظهر قلب، لها ذراعان كما البشرِ تفتحُهما على مصراعيهما تريد احتضناها كما احتضنتها بعينيها، وتلك الابتسامة البريئة تناديها.

نهضت دون إرادةٍ وكأنها تراها حقاً، هرولت نحوها وسرعانَ ما تسمَّرتْ مكانَها وانتصبت عروقُ جبينها حتى ظهر لونُها الأزرقُ كما أنَّ كُتلاً من كراتِ الدمِ الحمراء تجمعت في عينيها، وجنتاها مالتا للاصفرار كليمونةٍ طازجةٍ، جمَّعت في ملامحِها ألوانَ الطيف السبعَةَ ثم تهكَّمت على الخيالِ بعد أن قبضت على وسادتِها وقذفته بها:

-لا أريد أن أراكِ.. اغربي عن وجهي.. لماذا تُصرِّينَ على ملاحقتي هكذا.. كفاكِ فأنا لا أريد رؤيتكِ مرةً أخرى...! ولو كان باستطاعتي محو اسمِكِ الملتصقِ باسمي في سجلّات الهُوَيَّةِ لفعلتُ كما فعلتُ بمحوكِ من ذاكرتي...!

خيالٌ يقطنُ في خلاياها العقليةِ يراودها كلَّ يومٍ.. تحيا به، يؤلمها، يخطف منها سعادتها، يُرسل صراعاً يقاتل عقلها وقلبها ونفسها، يُثْبِتُ كذبَها حين تقولُ: محوتُ ذاكرةَ الماضي وهي متخمةٌ بها.

تحركت نحو مرآتِها التي تُكدَّسَ عليها التُرابُ من شدةِ ما تلقت منها من همٍّ وحزنٍ، وقفت تحدِّثُها:

لو كنتِ بشراً مثلنا لواسيتني ولَرَبتِّي على كتفي ولربما عانقتني.. أجل: لا تستغربيني.. فأنا هكذا لم أحظَ ولو بالقليل من السعادة؛ فهي ناقصةٌ بل منعدمةٌ من وجودِها في واقعي، أبحث عنها بين شوارع مدينتِنا وبين جدرانِ غرفتي بل وبين عيون من أُحبُّهم لربما أجدُ شيئاً منها ولكن نفسي تأبى ذلك؛ فإنني تعيسةٌ إلى الحدِّ الذي لا يوصف.. كلحنٍ حزين أترنَّمُ.. أتطايرُ وأسقطُ.. لا مرسى لي....

سرعان ما صمتت، غاب عنها الكلامُ حين تذكرته، تخيلت أنه يقف خلفها يحتضنها، يهمس في أذنها بثقةٍ وحب:

-أنا مرساك.. أنا برُّ أمانك.. أنا قاربُ نجاتِك.. لا تجزعي ولا تخافي...

ابتسمت في نفسِها وهرولت نحو فراشِها، أخذت الهاتفَ وعانقت بعينيها اسمَه وهو يُزيِّن شاشةَ هاتفها، تشعر أن الاشتياق إليه قد بلغ ذِروتَه، لحنَ حُبِّهِ يُطرب قلبها، يُقلِّبُها بين يدي العشق كطفلٍ رضيع.. ودون أن تنظر في ساعتِها اتصلت به وأنصتت حتى سمعته يداعبها كعادته:

-صباحُ الخيرِ يا طبيبةَ رُوحي، دكتورة حياتي، حكيمة عقلي وريم قلبي...

ضحكت بصوتٍ عالٍ متناسيةً تلك الغُصةَ التي كادت أن تفقدَها حياتها:

-صباحُ السعادةِ يا ضابطَ أنفاسي على ترددِ اسمِك، يا مُقدِّمَ وتيني وخالدَ قلبي ومُخلِّدَه...

كاد قلبُه أن يقفزَ من بين ضلوعِه فرحاً وابتسامتُه تظهر على كلِّ خلجة من خلجات وجهه فقد لان قلبُ وكيلِ النيابةِ أخيراً وسقط في مصيدةِ العشق على غير هدْيٍ...!

هدأت نبراتُ صوتِه وقال بهيام:

-اشتقت إليكِ

ابتسمت برقةٍ وهي تقول:

-وأنا اشتقتُك.. اشتقتُ لسماع صوتِك رغم أنه لا يغادرُ أُذني.. ولرؤيةِ وجهِك المحفور بداخل قلبي..

صمتت لبرهةٍ ثم تابعت وقد رقَّت نبرتُها أكثر:

قد صرتُ متيمةً بك.. لا أستطيع الاستغناءَ عنك.. أريد أن أنعمَ برؤيتِك في كلِّ لحظةٍ.. لا أريد أن تمرَّ ثانيةٌ وأنت بعيدٌ عني...! قُل لي بربِّك ماذا أفعل...؟!

أجابها بلهفةٍ وترقُّبٍ:

-الأمرُ بيدِكِ يا مولاتي

ثمَّ صمتَ قليلاً ثمَّ تابع:

-ريم.. ألَا زلتِ تُفكِّرين في أمرِ الارتباطِ بي...؟

كانت تخشى سؤالَه، وربما الإجابةُ لم تحضر بعدُ في ذهنِها، صمتت دون تعقيبٍ فاستأنفَ هو حديثه قائلاً باستياءٍ:

-لا عليكِ.. انسَي الأمرَ تماماً.. أعرفُ أن شعورَك تجاهي لم يتخطَ بعدُ مجردَ الإعجابِ بي...!

قاطعته بصوتٍ مبحوحٍ أقربُ إلى البكاء:

- خالد.. لا تقل هذا.. أنت تعلمُ جيدا كم أُحبك وكم أنا مرتبطةٌ بك، ولكنني خائفةٌ ولا تسألني من ماذا؛ الخوف دائما يلاحقني يخطف سعادتي، يدفعُني نحو الحزنِ بكلِّ قوتِه، أسقط في بئره، يُرغمني على شرابِ ماءِ عيني كلَّ ليلةٍ لأرويَ ظمأه، يراودُني عن نفسي فأستسلمُ له..

نصفُ كلمةٍ خرجت من فمِه اعتراضاً، فلم تسمحْ له أنْ يُكملَها وتدافعت بالكلام قائلة:

-خالد.. أنا موافقةٌ.. لكن لي مطلبانِ...! وأرجوك لا تقاطعني وأتمنى أن يحظيا لديك بالقبول..

امتنعت عن الكلام فلم تسمع سوى أنفاسَه ثمَّ عادت لِتُتابعَ:
أولهما: أن نتزوَّجَ في شقتي هذه..
تنهَّدَ بعمقٍ ثم قال:
-والأخر...؟
ابتسمت ابتسامةً خفيفةً وأردفت:
-وثانيهما: أن تقبلَني دونَ وليٍّ.. طلبتني من نفسي ووافقت ولا أريد أن يحضرَ عُرسي أحدٌ من أهلي..
احتشدت التساؤلات في ساحةِ رأسِه وبدأ شيطانُ عقلِه يحثُّهن على القتال، لكنه عقدَ هدنةً بدهائه معهن قبل إراقةِ قطراتِ الغضبِ واستنزافِ هدوئه:
-موافق...
كلمةٌ واحدةٌ خرجت منه هدمت جدارَ الاضطراب داخلها وزحزحت الحزنَ من مكانِه الثابت في قلبِها، واستدعت الابتسامَ لحضور زفافِ ثغرِها، غيرَ أن هناك الافَ الكلماتِ حدَّثته فكان جوابه:
-حسناً سأعرف السبب ...
وكعادةِ ضباطِ الشرطة يُوهمون المتهم بتصديقِ حديثِه حتى يُثبتوا العكس أوهمها بالموافقةِ واستأذن منها في إنهاء المكالمة بحجةِ أنه تأخرَ عن العملِ فودعته بقبلةٍ أرسلتها عبر الهاتف...
كان في أمسِّ الحاجة للقضاءِ على كلِّ شيءٍ يقوده إلى الشك في حب "ريم" له، لم تهدأ ثورةُ قلبه إلا وهو يكبحُ محرك سيارتِه أمام منزلِ والدِها، أخذ نفساً عميقاً وهو يحاولُ أن يتقمص الآن دورَ الحبيبَ الذي ألقاه الشوقُ على غصنِ محبوبته، كان يحاولُ أن يكونَ وسطاً بين وكيلِ نيابةٍ يحاول حلَّ لُغزٍ سقط بين يديه، وبين عاشقٍ يتعلقُ اللُّغزُ بمعشوقته...
لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أُثلجَ صدره وانتظمت دقاتُ قلبِه من جديدٍ على الرغم من أن رحى الحربِ لازالتْ دائرةً بعقله.

*****

يجلسُ خلفَ مكتبِه يدورُ بالكرسيِّ كما تدور عقاربُ الساعة، يأخذ نفساً عميقا من "سيجارته" ولا يزفره إلا حين يصبح قُبالةَ (حازمٍ) الذي يجلس أمامه، يتعمد أن يجعل سحابة دخانه تلتصق بوجهِه، ربما هي الطريقة المثلى لإهانته، فقد امتلأ غيظاً عندما علمَ أنه فشلَ في العثور على الملف الذي بحوزةِ سجينِه، يفكر في طريقةٍ أخرى يحصل عليه بها فقد أصبح على يقينٍ بأنَّ التعذيبَ لن يجدي معه نفعاً وأن عليه سرعةَ التفكيرِ في إنقاذ الموقف، فلطالما ظلَّ الملفُّ خارج حضن مكتبه، ظلَّتْ حياتُه مهددةً بالخطر وكِيانُه الذي قضى عمرا في تكوينه أصبح منتفخاً بالوهم كبالون قد تفجِّرُه أيُّ شوكةٍ عابرةٍ .

الأخيرُ يجلس أمامه لا يعرف ماذا يقول سوى أنَّ الرجلَ الآن في قبضة زبانيته وأنه لن يصمدَ طويلاً وحتماً سيعترف، ويرشدهم لمكانِ الملفِّ، فرجالُه يبتكرون طُرقاً عِدّةً في سحب الاعترافات من أجساد البهائمِ ومهما بدت الجبالُ صامدةً أمامهم يشقونها بجبروتهم ويخرجون المعادن من بطونها؛ موجةٌ عارمةٌ من الغضبِ اجتاحت ملامحَ الأولِ وصدمةٌ احتلت تجاويفَ دماغِه جعلته يلتزم الصمت لدقائق كان فيها "حازمٌ" يُبرِّرُ موقفه ويَعِدُه بحلِّ المشكلة في أقرب وقت ممكنٍ، لكنه لم يسمع حديثَه وكأنه أبكمُ أصمُّ...! وحين استطاع الكلامَ وجَّه له سؤالا:

-ما العملُ يا حازم...؟

- سيدي.. قلتُ لك قريبا سينتهي الأمرُ تماماً وتقرُّ عينُك بالفقيد..

كان هذا جوابه الذي استفزَّ الأولَ وجعله يدكُّ المكتب بقبضة يده ويصيح غاضباً:

-كفاك هراءً.. قلتَ لي هذا من قبلُ وبدأ زمامُ الأمورِ يتفلَّتُ من قبضتِنا والسلطةُ تنسلُّ من أيدينا كما الماءِ فأنت لا تفعل شيئا سوى الهراء فقط، استقر خلف "حازم" وقال وهو يضغط بيده على كتفه والكلام يخرج من بين أسنانه: أمامك أربعٌ وعشرون ساعة.. بعدها لا تلم إلا نفسك...

قالها بحنقٍ ثم عاد خلف مكتبه واستدارَ بكرسيِّهِ نحو الحائطِ وأشار "لحازم" بيده ففهم الأخيرُ أنَّ عليه الانصراف.

استدار نحو البابِ وهو مُطأطئَ الرأسِ في خزي دون أن ينبس ببنتِ شفةٍ، ثم خرج من المكتب مهزوماً يجرُّ أذيالَ الخيبة، اقتلع خطواته اقتلاعا وصولاً إلى سيارته، جلس خلف عجلةِ القيادة وأسلم رأسه للمقعدِ وكأنه يبحث معه عن حيلةٍ تضمنُ بقاءه داخل اللعبةِ، هربت الأفكارُ من رأسه وسيطر عليه الغضبُ، فكوَّرَ قبضةَ يدِه وضربَ بها الجسد القابعَ أمامه وهو يسبُّ حظَّه العاثرَ ويتوعدُ قائده:

-أوغادٌ.. كلما ضحكتْ لي الدنيا فرَّ الحظُّ مني هارباً، لم أرهُ ولو لمرةٍ واحدةٍ متأهباً على قدمٍ وساقٍ لنصرتي، لكن لا بأس سأُجبره على الخضوعِ وسأجرُّه من شعرِه وأُلقيه على فراشِ مستقبلي وأُضاجعه مثل عاهرة..

أما أنت أيها الحقيرُ؛ فلك حسابٌ معي حين أحصلُ على الملفِّ، ولن أتراجعَ عن شقِّ صلعتك إلى نصفين كبطيخةٍ تالفةٍ وأُلقي بها في أقرب سلةٍ للمهملات...

أفاق من شرودِه على صوتِ هاتفِه فأجابَ بغضبٍ:

-ماذا هناك...؟

بدأت عضلاتُ وجهِه تتقلَّصُ أكثرَ وهو يستمع لمحدِّثِه عبرَ الهاتف الخلويِّ، أخرُ ما كان ينقصُه الآن هو أن تأتيَه مصيبةٌ كتلك، ماذا سيفعل الآن إن كان هناك من علمَ بأمرِ السجين...؟! وهل كانت زيارةُ ذلك اللواءِ للسجن وسؤالُه عن السجين الذي يحتجزه بدونِ تهمةٍ واضحةٍ أو أوراقٍ هو مجردُ سؤالٍ عابرٍ...؟!

انتظر حتى انتهى مُحدِّثُه من كلامِه ثم قال له بحذرٍ:

حرِّرْ محضراً لاحتجازِه على الفورِ واجعلْه يُوقِّعُ عليه ولا تنسَ أن تجعلَ تاريخَ المحضرِ سابقاً على زيارةِ ذلك اللواء، كما يحب أن تفعلَ أيَّ شيءٍ حتى يعترفَ ذلك الحقيرُ في أسرعِ وقت ممكنٍ مهما كان الثمن.

أنهى المكالمةَ وهو شاردُ الذهنِ، مبعثراً بين طموحِه والواقعِ..

*****

استيقظت "ليلى" كعادتها مبكراً قبل استيقاظ "سعدٍ"

فتحت عينيها.. تأملت تجاعيدَ وجهِه الخمسينيِّ.. مسحت بيدها شعرَه المشتعلَ شيبا، طبعت قبلة على جبينه ونهضت من سريرِها بهدوءٍ كي لا تزعجه.. اتجهت نحو الردهةِ، فتحت نوافذَها المغلقةَ لتتسللَ أشِعَّةُ الشمسِ وتنيرَ عتمتِها؛ انتصبت بجسدِها في الشرفةِ ووجهت بصرَها نحو قرصِ الشمس، تأمَّلتْ دوامَها على الشروقِ ثم تذكرت غروبَها فسقطتْ دمعةٌ من عينيها تبعتْها غُصَّةٌ وقفت في حلقِها كادت أن تُزهِقَ روحَها، وتساءلت:

-ماذا إن غَرَبت روحُه...؟ كيف سيكونُ مصيري...؟

هل أتزوَّجُ من بعده...؟!

كيفَ وماذا عن "ريم" هل ستسامحُني...؟

أسئلةٌ دارت في خَلَدِها أطفأت نورَ وجهِها وجعلت شياطين القلق تسيطرُ على ملامحِها، تنصبُ أَخْبِيَتُها وتقيمُ داخلها، خطاطيفُ الرعب علقت نفسها في قلبها، جعلت دماءَ الأمان تسيلُ أمام عينيها، مخالبُ الظلمِ قطعت شرايين ضميرِها النائمِ منذُ أنْ ظلمتْ "ريم" فيضاناتٌ من دموعٍ أغرقت وجنتيها، لم تستطع قدماها أنْ تستمرَّا في حملِ جسدِها أكثرَ من ذلك فسقطت على ركبتيها واحتضنت رأسَها بين كفَّتيها وأطلقت لدموعِها العنانَ، نحيبها أسمع المارَّةَ في الطرقاتِ إلّا الساكنَ معها لم يشعر بها، طال مكوثُها في الشرفةِ حتى نفدَ مخزونُ مياهِ عينيها، اصطبرت على قلبِها حتى هدأت نبضاتُه بينما عقلُها لازالَ يُعاني الخوفَ من مستقبلٍ مجهولٍ، يُصارعُ مخاوفَها فيرفعُ رايةَ الاستسلامِ لها، فيعطي إشارةً لنبضاتِ القلبِ لتأكلَ نفسَها من جديدٍ، لم يكن في استطاعتِها فعلَ شيءٍ سوى استدعاءِ لحظاتِها الرومانسيةِ معه كي تخنقَ مخاوفَها، شردتْ في قبلةٍ طويلةٍ منه خطفتْ أنفاسَها، فتنهَّدتْ وتابعت

الشرودَ، سارت بذاكرتِها مع شفتيه حين كانت تتفحص مفاتن جسدها، تعالت تنهداتُها وتسارعت أنفاسُها فابتسمت واستحضرت إبليس عشقها وحدثته بدلالٍ:

-ولِمَ الذكرياتُ وفراشٌ حاضري لازال دافئا...؟

نهضت ومسحت براحتِها دموعها ثم ابتسمت لنفسِها، ودلفت داخل الردهةِ، مشت على أطرافِ قدميها وصولاً إلى غرفةِ النوم.. تطلَّعتْ إليه فرأته غارقاً في نومِه، تحركت نحو المرآةِ.. حدَّقتْ فيها بتمعنٍ، ثم ابتسمت لنفسِها مرةً أخرى واحتضنت قلبها بذراعيها، وجَّهت وجهها تجاهه، جلست على طرف السريرِ وهمَّتْ بمداعبتِه، مدت يديها نحو جسدِه الممددِ أمامها، وقبلَ أن تلمسَه تذكرت كاملَ رجولتِه حين يرتشفُ فنجانَ قهوتِه الصباحيةِ فأرجعتْ يديها واستقامت بجسدِها وتحركت نحو المطبخ، أعدت قهوته، رائحتُها ملأت أرجاءَ المنزل.

تسللتْ بلطفٍ إلى غرفة النوم لتدغدغَ مشاعرَه وتوقظَه من نومِه العميق، فوجدته مستيقظاً، علمت أنَّ رائحةَ القهوةِ سبقتها وأيقظت روحَه، وضعتِ القهوةَ على الطاولةِ بهدوءٍ

خشيةَ أنْ تُزعجَه، فهو يكره الضجيجَ والصخبَ .

اقتربت منه وهمست له بكلِّ رقةٍ:

- صباحُ الخير يا وجهَ الخير.. انهض.. قهوتُك جاهزةٌ

ابتسم في وجهها وهتف:

-صباحُ النور يا مصباح عمري وضياء دنياي؛ تناول الفنجان بيده المرتعشةِ فارتعشَ قلبها خوفاً عليه وتحدثت بقلقٍ بالغ:

- عزيزي.. اليومَ يجبُ أن نذهبَ إلى طبيبِ القلب للكشف على ألمِ قلبك.. أنا قلقةٌ على صحتك جداً

زفرَ في ضيقٍ وردَّ ساخطاً:

- كلَّ يومٍ تسوقينَ الحديث نفسَه.. لا أريد أن أذهبَ إلى أي مكانٍ ولا أريد أن أغادرَ المنزل.. لقد سئمت من الأطباءِ والمستشفيات والدواء.

أخذتْ رأسَه وضمَّتْها إلى صدرِها وهتفت بألمٍ:

-لِمَ كلُّ هذا اليأس...؟! ارحم خوف قلبي وقلق روحي على صحتِك التي تتدهورُ يوماً بعد يوم، لا أتخيلُ أن أحيا بدونك.

أسقت دموعَها خديها المتوردين بحزنٍ

نظر إليها بعينيه المثقلتين بآهاتِ السنين:

-جميلتي لِمَ البكاء...؟

أرجوكِ كفكِفي دموعَكِ؛ فهي أغلى ما أملك.. إن كنتِ تريدين أن أتحسن فدوائي هو رؤية ابتسامتك

فهي بلسمُ جراحي وطبيبٌ لروحي.. ابتسمي هيا.

طبعت قبلةً على جبينه وتحدَّثتْ بحزنٍ:

-سأبتسم ولكن أعطِني وعداً بأنك ستذهبُ إلى الطبيب.

-حاضر.. سأذهب يا عزيزتي.. فقط ابتسمي

ابتسمت ولكنَّ قلبها يعتصرُ ألماً على حالِه.. ابتسمت وخوفُها عليه كبَّلَ الفرحَ في حياتِها وسيطرَ على مخيِّلتِها، وعادت راقصاتُ القلقِ تستفزُّ صمودَها برقصهن أمام ناظريها على روحه، ففكرة أن تستيقظ يوماً ولا تجدُه بجانبها تُرعبُ روحَها، مواجهةٌ للعالم وحيدةً تقتلها، تمزقُ أمانها فلم يكن هو موطنُ حُبِّها فقط؛ بل تجمعهما علاقةٌ فطريةٌ ربما يكونانِ قد ابتعدا عنها منذ أمدٍ بعيدٍ لكنها تجري في عروقهما ما دام أحدُهما على قيدِ الحياة

*****

غرفةٌ مظلمةٌ خاليةٌ من كلِّ شيءٍ ما عدا كرسياً خشبياً يجلس عليه رجلٌ معصوبَ العينين، مكبلَ اليدين، صوتٌ لوقعِ أقدامٍ تقترب منه، وصوتُ نباحِ كلبٍ متوحشٍ يخترقُ مسامعَ المعصوب، بين لحظة وأخرى يقع من فوق كرسيه كلما علا نباحُ الكلبِ، ظن أنه سينهشُ لحمَه، هناك أناسٌ يدورون حوله كلما سقط أرضًا وضعوه على مقعدِه من جديد، ضوءٌ ساطعٌ مُصَوَّبٌ على وجهه يخترقُ بصيصُ نورِه عصابةَ عينيه، ينبعث من مصباحٍ وحيدٍ في الغرفة يربكُه فيختلُّ توازنُه، ظلامٌ دامسٌ يسيطرُ على المكان ما عدا دائرةَ وجهِه، ترتعد أوصالُه كلما شعر بأحدِهم يدورُ حوله، وقْعُ الأقدامِ يقرعُ طبلةَ أذنِه، تكاد تخترقُها كأنها أجراسُ كنائس، حركاتٌ غريبةٌ في الغرفة، رعشةٌ تملكت جسدَه ممزوجةً بالخوف والبرد، درجةُ الحرارة لا تتعدى العشر درجات مئوية، على بعد ثلاثةِ أمتارٍ منه يقبعُ مكتبٌ ضخمٌ يجلسُ خلفه رجلٌ لا يقلُّ ضخامةً عن مكتبِه، مفتولُ العضلاتِ يرتدي معطفًا شتويًا وقُفازين، تغطِّي رأسَه بطانةٌ جلديةٌ تشمل أُذنيه، يضعُ أمامه ملفاً فارغاً، وفي يده قلمٌ وبين شفتيه سيجارةٌ، يأخذُ نفساً منها ويزفُرُه في ضيقٍ، و ريثما انتهى من سيجارتِه ودهسها تحت قدميه نهض عن مقعده وسار خلفه وانحنى بقامته ليرتكز على كتفيه بذارعيه؛ ففزع الجالسُ بجسده خوفاً ورعباً مما جعل الضابطَ يضغطُ على كتفيه بجسدِه ويهمسُ في أذنه بصوتٍ خافتٍ :

-نبدأ بالاسم...!

صمتَ وكأنه لم يسمعه، فتابع الأوَّلُ:

- اسمَك.. ومن أيِّ دولةٍ أنتَ.. ولحسابِ من تعمل...؟

- لا أدري.. لا أدري..

كلمتان خرجتا من بين شفتيه بصعوبةٍ بالغةٍ، ثم التزم الصمتَ مرةً أخرى فارتفع نباحُ الكلب في هذه الأثناء فاهتزَّ جسدُه بشدةٍ، وكادَ يسقطُ من فوقِ كرسيِّهِ لولا أن الواقفَ خلفه أمسكه من تلابيبِ قميصِه وهتف بنبرةٍ أشدَّ خشونةٍ:

-هل تعلمُ أنَّ هذا الكلبَ لم يأكل منذُ أسبوعين، وكم يهوى لحم البشر، أتودُّ أن تسُدَّ رمقَه...؟ أم نبحث له عن طعامٍ آخر...؟

الكلماتُ كانت تخرجُ من فمِ المتحدث كالرصاصاتِ تخترق أعضاءَ المتلقي، تجعل فواصلَه تتخبطُ رُعبًا، وتُصدرُ صوتاً يسمعه الحاضرون، لكنَّ عقلَه خالٍ تمامًا من كلِّ إجابةٍ تنقذُه من بين مخالبِ البشرِ والوحوش.

لا يعرفُ بماذا يجيبُه سوى بالتوسلاتِ فقط، وهاتانِ الكلمتان الصامدتان معه منذ اعتقاله:

-لا أدري.. لا أدري...

انتصب الضابطُ بقامتِه وبدأ يدورُ حولَه، فتقدم نحو أحد معاونيه وأشار بيده في علامةٍ منه باتخاذِ العنفِ وسيلةَ ضغطٍ عليه للاعترافِ فرفع الضابطُ يده اعتراضاً...! وأشار له بالابتعاد فتراجع المعاونُ إلى الخلف حتى أسندَ ظهرَه على الحائط، بينما المحققُ يقتربُ من المتهم حتى أصبح قُبالَتَه وقال بحيلةٍ:

-أنت الآن تضرُّ نفسَك أكثرَ ممَّا تنفعُها.. فالصمت لن ينفعَك، وليس هو بالوسيلةِ الذكيةِ للفكاك من الأزمة، بل يجب عليك الاعترافُ لتنقذَ نفسَك وأسرتَك، لقد علمنا عنك كلَّ شيءٍ، وأسرتُك الآن في قبضة رجالنا !..

لم يهتزَّ لكلماتِه، بل لم تُؤثِّرْ فيه وكأنه تَعَوّد على مثل هذا النوعِ من الضغوطاتِ وتابع صمته؛ أشار المحققُ إلى أحد رجاله فاقترب منه فأومأَ له برأسِه إيماءةً تُفهِمُه أن يستكملَ الاستجوابَ معه بطريقةٍ غير التي أَتَبَعها هو، تحرك الثاني على الفورِ حتى وقف أمام الكرسيِّ وثّنَى ركبتَه اليمنى ثم قبض على رأسِ المتهم ودفعها بقوةٍ فاصطدمت بركبتِه، فصرخ الأخيرُ ورددَ:

-لا أدري..

بادره المحققُ بالسؤالِ قبل أن يرفعَ المتهمُ رأسَه:

-ما الذي كنتَ تودُّ فعلَه هناك عند الحدود...؟

قبل أن يُجيبَه اندفعَ رئيسُه بالجواب:

-كان يزرعُ قنبلةً ما..

صرخَ الرجلُ ببكاء:
-لا.. لا.. لم أفعل...؟
فأضاف الأوَّلُ سؤالاً آخرَ:
-إذاً: ما الذي كنت تفعلُه...؟
تدخَّلَ رئيسُه وقال:
-كان يتلصصُ على كتيبةِ الحرسِ هناك، ليعرف كم عددُهم ومُعدَّاتُهم وأسلحتُهم..
خرجت كلمتُه النافيةُ بقوةٍ من بين شفتيه كقنبلةٍ شَدَّ فتيلَها فانفجرت في رأسِه، مما جعل المحققَ الثانيَ يستشيطُ غضبًا ويدفعُ المقعدَ الجالسَ عليه بقدمِه، فيسقطُ أرضًا لتقتربَ الأقدام منه وتُسددُ له الركلاتُ في جميعِ أنحاءِ جسدِه، ثم فُتحَ البابُ فانطلقَ الكلبُ نحوه..
الذي أدَّى دورَه سريعاً ليترك ضحيته صريعةً، كلٌّ جزءٍ بجسدِه يقطرُ دماً، يئن ألماً، يشتاقُ لرصاصةِ رحمةٍ.. مرَّت سويعاتٌ قليلةٌ.. دخل بعدها المحققُ وأمرَهم بإفاقته، ثم اقترب منه وهو يقول بهدوءٍ مستفزٍّ:
-أتريدُ أن أستعرض عليك أنواع الضيافةِ التي توجدُ لدينا.. نحن تحت خدمتِك..
آها تذكرت...؟! البارحة وصلَتْنا أداةٌ جديدةٌ مستوردةٌ من الجحيم، وسيكونُ لك الشرفُ لأنك أولُ من سيتذوق طعمها.. كانت عبارةً عن أداةٍ من الحديدِ لها مخالبُ كمخالبِ الشيطان، وفعلاً يظن من يراها كأنها من الجحيم.. لها مكانٌ لوضعِ الأظافرِ وآخرُ فيها للأصابع، وبضغطةٍ واحدةٍ كفيلةٌ بأن تُحطِّمَ عظامَ اليدِ كلَّها وليس فقط الأظافر.
قاموا باقتلاعِ أولِ ظفرٍ له وأجبروه على ابتلاعِه، أُغمى عليه من شدّةِ الألم...!
بعد أن أغميَ عليه أمرَ بإعادتِه إلى الزنزانةِ لأنَّ الضابطَ كان قد أعدَّ لِليلةٍ حمراءَ مع عاهرةٍ يهوديةٍ يخونُ زوجتَه من أجلِ ظُفرِ رجلِها الخبيثِ.

*****

# الفصل الثالث

من الواضح أنني أنزلقُ، أتزحلقُ أو أتدحرجُ باتجاهِك، لا يهمُّ ما دمتَ أنتَ مَنْ يشعرُ بأني أتحرَّكُ، أتزحزح من مكاني وأركلُ بأقدامٍ مِن حديدٍ في هاويتِك، أريد ألا أُثْبُتَ بعد الآن، أن أواصلَ فكرةَ الركضِ التي ابتكرتُها، وأن أدورَ حولَكَ لا لأنك دبوراً ولا لكوني زهرةً، لا لأنك إلكترونيًا مطيعًا ولا لأنني نواةٌ كثيفةٌ وصغيرةٌ وموجبةُ الشحنة، وإنما سأدور فحسب لأني بحاجةٍ للدوران، للضربِ على قلبي بالمراوحِ ولاتخاذِ خطوةٍ مهمةٍ وخطيرةٍ في حياتي القادمة، سأحبُّك لأنك كوني الصغيرِ بكِيانِك العظيمِ، سأحبك كي أُغرِقَ الماضي القبيحَ في بركةٍ من الحنان..

هكذا قررت "ريم" وحدَّثت نفسَها قبل أن تستفيقَ على رسالةٍ صباحيةٍ منه:

-صباحُ الخيرِ يا شمسَ قلبي.. يا نورَ الصباح وبلسمَ الجراحِ

اليوم سألقاك في مقهى العُشاقِ وستجدينني عند طاولتِنا المعتادةِ أنتظرُكِ يا FT حبيبتي.

لمعت عيناها وابتسمت شفتاها وقفزت من سريرِها فرحاً كفراشةٍ مفعمةٍ بالحياةِ:

-اليومَ سألقى الحبيبَ كعادةِ كلِّ الفتيات..

اتجهت مسرعةً نحوَ المرآةِ.. تحسست وجهَها بيديها.. حدقت في جميع تفاصيله تخشى وجودَ تجعيدةٍ لم تلاحظْها عليه، كانت تدور بعينها كدوريةِ مباحثٍ تفتِّشُ عن مطلوبٍ بتهمةِ إهانة الدولة:

-يا إلهي.. ما هذا...؟

فزِعتْ حين لاحظت حبَّةً من العُد الشائع على خدِّها الأيمن:

-واااا مصيبتاه...! كيف سألقاه في هذه الهيئة...؟

وكأنها تحولت من ملاك إلى شيطان، تجهم وجهها وأخذت الغرفةَ جيئةً وإياباً، تبحثُ في تفكيرٍ مُضنٍ عن مخرجٍ لِمَا تظنُّها مصيبةً حتى لمعت في ذهنِها فكرةٌ جهنميةٌ، اتجهت من جديدٍ نحوَ المرآةِ واستلت قلم كحلِها وقررت أن تصنع من هذه الحبة شامةً تُزين وجنتَها الورديةَ، حين انتهت زادتها جمالًا، فهاتانِ العينان ماستَانِ ممزوجتانِ بخضرةِ الجنة، والوجنتانِ وردتان جوريتان مهاجرتان من بلاد الشامِ لتستوطنا وجهَها، والشفتان كأنهما حبتان من الكرز تتعانقانِ لتزينَ وجهاً كالبدر بينهما عقدين من اللؤلؤ، وغمازةٌ على خدِّها الأيسرِ تمنحُها ابتسامةً بريئةً تخطفُ القلوبَ وتجعلها أسيرتها، كأنها الشمسُ تشرقُ من بعد الظلام وبياضُها الناصعُ يدهشُ من يراها وكأن لونَها أخذته من جناح الملائكة، وشعرُها البنيُّ الناعمُ منح تلك التفاصيل هيئة ساحرة..

يا لها من حمقاءَ...! أيعقلُ.. كل هذا الجمال يشوهه حبةٌ بحجم رأس دبوسٍ!

اطمأنَّتْ لِمَا فعلت ثم نظرت في ساعتِها فوجدت الموعدَ قد اقتربَ، هرولت نحو دولابِ ملابسِها تفحصته جيدًا حتى اهتدت لأن ترتديَ فستاناً أسودَ اللونِ طويلاً، بقدر بساطتِه بقدر روعتِه مُطرَّزٌ بحباتٍ من الكريستالِ الأبيضِ على جانبيه وبعضِ النجومِ على الأكمامِ وكأنها البدرُ بين النجوم في ليلة حالكةِ السواد

*****

بينما هي منهمكةٌ بتجهيزِ نفسها، هو في غرفتِه مستلقٍ على ظهره يتخيلُ تفاصيلَها، نسيّ أنه يجبُ أن يُجهزَ نفسَه، مضى الوقت وهو يتخيلُها، ولم يتذكر ذلك سوى أخرَ نصفِ ساعةٍ

اتَّجهَ نحوَ الحمام مسرعاً.. حلق ذِقنَه وهذَّبَ شاربه ليُظهِرَ فاهَهُ المرسومَ بدقةٍ فاتنةٍ، وحاجباه كأنهما خنجران يمانيَّان يحرسان عينين من عسلٍ مصفًّى تجعلان من يلمحُهما يعشقُ الغرقَ فيهما، وشامتان كنجمتين سقطتا من السماء ووقعتا على خدِّه، لونه الجذاب شبيهٌ بسنابلِ القمح في فصلِ الصيفِ يلمعُ مثلَ الذهب.

خرج من الحمام ومن ثَمَّ اتَّجهَ إلى خزانةِ الملابس، ثمَّ ارتدى قميصًا زهريَّ اللون وبنطالاً أزرقَ، ثم نظر إلى المرآة النظرةَ الأخيرةَ، لاحظ أنه لم يصففْ شعرَه الذهبيَّ.. مشطَه في عجالةٍ وخرجَ من منزله.

وصل إلى وجهتِه وظلَّ ينتظرُها ويُحضِّرُ في عقلِه ماذا سيقولُ لها من غزلٍ يستحقُّه جمالُها، ارتفع نبضُ قلبِه.. ولو أن صوتَه يُسمع لملأ ضجيجُه أرجاءَ الكون، وبلحظةٍ ساد الصمتُ المكانَ.. انفُتح الباب:

-هي نعم هي.. اهدأ يا قلبي.. اهدأ.. محبوبتُك ها قد أتت...!

دخلت وكأنها ملكةٌ جليلةٌ واثقةُ الخطى، جميلةٌ، فاتنةٌ، رائعةٌ، فاقت كلَّ تخيلاتِه، حطَّمتْ كلَّ التصورات..

أقبلت نحوَه، ابتسمت، ونطقت بكلماتِها الساحرةِ كأنَّها تُلقي عليه تعويذةً:

- مساؤك خيرٌ يا وجهَ الخير..

- مسائي كان ظلاماً ولكنْ برؤيةِ وجهِك.. أصبح النهارَ يا خيرَ ربِّي المرسلُ لقلبي..

أمسك يدها وتشابكت الأناملُ وتعانقَت الروحانِ وتاه بعينيها، وغرقت هي في عينيه حتى نطق مُغازلاً:

- كم أتمنى أن أتذوَّقَ خمرَ عينيك وأقضمَ قضمةً من تلك الكرزيات الساحرات وأُذيقَكِ عسلَ شفتيَّ.. ذابت خجلا حتى تورَّدتِ الوجنتانِ وتفتحتِ الجوريتانِ، ثم ابتسمت مُشاكسةً:

- ومَنْ قال لك أنني أحب العسل...؟!

طغت على ملامِحه الصدمةُ حتى تخشَّبَ وجهُه وحدَّث نفسَه بذهولٍ:

- أيعقلُ أن يكونَ جوابُها هكذا...؟!

ضحكت بصوتٍ عالٍ وتابعتْ بحبٍّ:

-يا وتينَ الفؤادِ، أنا لا أُحبُّه؛ بل أعشقُه حدَّ الإدمان...!

ثم طبعت قبلةً في بطنِ يده.. تلك القبلةُ كانت بمثابةِ صاعقةٍ كهربائيةٍ وصلت إلى القلب لتجعلَ نبضاتِه أسرعَ بآلافِ المراتِ، ثم أتى النادلُ ليقطعَ عليهما سجالهما المعسولَ:

-ماذا تشربانِ يا سادةُ...؟

وكأنَّهما ارتطما بحافلةٍ...!

تأفَّفَ خالدٌ ونظر إليه، كانت عيناه تلمعان من شدةِ الغضبِ ثم هتف بحدة:

-ومن قال لك أننا نريدُ شرابًا...؟

أخفضَ النادلُ بصرَه خجلاً ثم قال معتذرًا:

-عذراً سيدي لكن....

قاطعه خالدٌ قائلا:

-هل أجدُ لديكم شراباً من كرزٍ ممزوجٍ بشهدِ العسلِ مع ماءِ زمزمَ...؟!

أجابَ النادلُ متعجبًا:

- وهل هذا شرابٌ موجودٌ في الدنيا...؟!

عقِبَ حديثِه ابتسمت "ريم" بخجل، فلا أحدَ يُمكنُه تحضيرُ هذا الشرابِ سواها.

ردَّ خالدٌ على النادل:

إذاَ: نريد كأسين من الليمونِ المثلَّجِ شريطةَ أن تضعَهما تحت ضوءِ القمرِ نصفَ ساعةٍ..

شعرَ النادلُ أنه يستهزئُ به، نفخَ في ضيقٍ وقبل أن يتحدثَ لمحَ بطرف عينِه المسدسَ الساكن في حزام "خالدٍ" فأومأ برأسِه وذهب.

وجَّهَ خالدٌ حديثَه لِـ"ريم":

-يا مهجةَ القلبِ وهديةَ اللهِ لماذا تضحكين...؟

نظرت في عينيه بهيامٍ وأجابت:

-لا يعرِفُ أحدٌ كيفَ يصنعُ مشروبكَ هذا سواي يا أميرَ القلب..

احتضن يدها بين كفتيه وقربها من فمِه وبدأ يقبِّلُها ويقول:

ولا أحدَ يعرفُ طريقاً لقلبي سواكِ أنتِ كذلك، ولا أحد يعرف كيف يُسعدني سواكِ

ولا أحد يعشقُ جنوني سواك، ولا أحد يسكن الفؤاد سواك.. أحبك، أعشقك، أُدمنك..

انسابت أعصابُها لذةً وهتفت:

-يا وطني وموطني وأماني ومأمني.. كلامُك ساحرٌ.. أيعقلُ أنني أستحقُّ كلَّ هذا...؟

-بل تستحقين أكثرَ من هذا، أغمضي عينيك.. لدي مفاجأتان لكِ..

هكذا تحدَّثَ وهو لازال يحتضن يدها فطاوعته دون ترددٍ وأغمضت عينيها، فمد يده داخلَ جيبه وأخرج علبةً صغيرةً ذاتَ لونٍ أحمرَ، ثم فتحها وأخرج منها خاتمًا ذهبيًا تعلوه قطعةٌ من الزمردِ تُحاط بحباتٍ من اللؤلؤِ البراقةِ، ثم طوَّقَ بِنْصَرَ يدِها اليسرى به وهتف بسعادة:

-ها ما رأيك يا حبيبتي...؟

فتحت عينيها ونظرت في يدِها بذهولٍ، ثم قبضت على يدها وقبلتها وقالت:

-أُحبك..

خفقَ قلبُه لكلمتِها وصمت لوهلةٍ يتأملُ السعادةَ التي ترقص في عينيها ثم قال:

-هذه هي المفاجأةُ الأولى، أما الثانية فهي قد تُسعدكِ أكثرَ من ذلك بكثير..

ابتسمت ابتسامةً ممزوجةً بدموعِ الفرح وتساءلت:

-وهل هناك سعادةٌ أكبر من تلك التي أشعرُ بها الآنَ وأنا بين يديك...؟!

اعتدل في جلسته وأخذ قبلة من يدها وأردف:

-عندما عرضتُ عليكِ الزواجَ وفوجئتُ بشروطِكِ، لم يرُقْنِي أمرُ عدمِ حضورِ أهلِك وانتابَني الخوفُ والقلقُ فذهبت إلى منزل والدك السيد "سعد"..

نزعت يدها من يدِه وتخشَّبتْ في مقعدِها كتمثالٍ حجريٍّ قديمٍ، فتابعَ مستحضرًا ذاكرته:

-أهلا وسهلًا.. تفضل..

دلف داخل الردهةِ ثم جلسَ وتحدثَ مُعرفًا نفسَه:

-أنا خالد الشناوي وكيل النائب العام..

انقبضَ قلبُ سعدٍ آنذاك وقال متلعثماً:

- ما الأمرُ سيادتَك...؟ هل صدر منَّا شيءٌ...؟

- اطمئنَّ يا سيد سعد، لم يصدر منكم شيءٌ ولستُ هنا بصفةٍ رسميةٍ؛ بل جئتُ بصفةٍ وديَّةٍ ولكيلا أزيدَ من توترك جئتُ أسألك عن أمرٍ يخصُّ ابنتك الكريمةَ الدكتورة ريم..

ابتلع الرجلُ ريقه بصعوبةٍ وتحدث بدهشةٍ متعجبًا:

-ريم...؟! ما الأمرُ...؟

ربتَ خالدٌ على يدِ سعدٍ وأردف:

لا تقلق هكذا، عرضتُ عليها الزواجَ فوافقت، لكن اشترطت عليّ ألَّا يحضرَ أحدٌ منكم، وهذا الأمرُ لم أستسغْه.. ولهذا جئتك كي أفهم..

ابتسم سعدٌ وقتل خوفَه وأردف:

-لدَي أحدِ أصدقاءِ عمري ابنًا كان يريدُ الزواجُ بها، فعرضت عليها الأمرَ فرفضت بشدةٍ دونَ مبررٍ، ولمَّا زاد إلحاحي عليها، تركتِ المنزلَ وذهبت لتعيش في منزلِ أُمِّها

-رحمةُ اللهِ عليها- لم أرغب أن أشقَّ عليها وتركتُها تفعلُ ما تشاء..

صمت لوهلةٍ ونظر لخالدٍ الذي كان يستمعُ إليه بكل جوارحِه والسعادة تُشاكس ملامحَه ثم تابع ممازحًا:

لم أكن أعلمُ أنها اختارت الأنسبَ، هنيئًا لكما ولا تنسَ دعوتي عند زفافكما...!

-لم أكن أعرف أنك تعشقينني لهذا الحدِّ الذي جعلَك تُفضِّلين الابتعاد عن أهلك..

قاطعته قائلةً بنبرةٍ باكيةٍ:

ولم تكن تعرفُ أنني أودُّ الابتعادَ عنك لنفسِ السببِ، لماذا لم تحترم رغبتي...؟

لماذا خُنت عهدَكَ معي وفعلت ما يُريحُ عقلَك من الشكوكِ...؟ أكنت تظن أنني...

غاب الكلام وسط بكائها فاستكفت أن تنزع خاتمَه من يدِها وتلقيه بوجهه وتركضَ نحوَ الخارجِ لِتُشيعَها عيونُ الزبائنِ في دهشةٍ...! فلقد كانت تلك العيونُ تحسدهما منذ جلوسِهما معًا..

*****

ليلةٌ شتويةٌ حالكةُ الظلامِ، لا يُرَى فيها إلا بعضُ النجومِ المتراقصةِ في السماء، صفيرُ الرياحِ يدوي بين الجبال يُرعبُ القلوبَ من شدته كصريخ أرملةٍ مفجوعةٍ، الجبالُ الواقفةُ تحرسُ المكانُ من الغرباءِ، وأشجارٌ اصطفَّتْ بجانب بعضِها عرَّتْ أغصانها الرياحُ من شدة العصفِ بها كأشباحٍ مرتعُها الليلُ والظلامُ، ليلةٌ من شدةِ البرودةِ فيها القوارضُ تجمَّدتْ في جحورِها، بينَ تلك الأهوالِ وفي وسط الجبالِ، خلفَ الأشجارِ ينبعثُ بصيصُ ضوءٍ خافتٍ مصدرُه مغارةٌ في حضنِ جبلٍ صخريٍّ أسودَ يحرس بوابتَها ساترٌ من أكياسِ الرمالِ، تستند عليه بندقيةٌ منهكةٌ كصاحبِها المستلقي على الحجارةِ الصلبةِ كقلبه، يغفو قليلاً ليريحَ عينيه المتعبتينِ من المراقبة، رجلٌ منهكٌ، أشعثُ، مُتَّسِخُ الثياب، ثيابُه الباكيةُ اللون مازال عليها قطراتُ دماءِ رفيقِ المعركة الذي قُتلَ وهو يحمي ظهره.. لم يقم باستبدالَها حالفًا ألَّا يخلعَها قبل الثأر لدمائه، في الداخل خمسةُ رجالٍ تحلَّقُوا حولَ موقدةٍ من الحطبِ المُشتعلِ، عليها قِدْرٌ نُحاسيةٌ كبيرةٌ يغطيها الشحار من كل جانب، فيها بعضُ الحساءِ ولحمُ أرنبٍ مُقطَّعٍ اصطاده أحدُ الأفراد، ثيابُهم مُتَّسخةٌ كأجسادِهم، شَعْرُ رؤوسِهم لم تلامسْه أسنانُ مشطٍ منذُ زمنٍ بعيدٍ، لحاهم تُغطِّي صدورَهم طُولاً، يبدو أنها تمرَّدت على شفرات الحلاقة، وجوهُهم طغت على ملامحِها الصلابة والقسوةُ، والكآبةُ، بدأوا يتجاذبون أطرافَ الحديثِ ريثما ينضجُ الطعامُ لِيُخرِسوا به أفواه بطونِهم التي تُوَلْوِلُ من شدة الجوع ..

في هذه الأثناءِ ووسط الهدوء السائد في المكانِ سمعوا صوتَ طائراتٍ هليكوبتر تحومُ فوق المكان، وضوءٌ سطعَ بقوةٍ من بعيدٍ في عينيّ الحارسِ قاطعاً عليه أحلامَه، استيقظ كالمجنون في نوبةِ هلعٍ ..هرع مسرعاً إلى الداخل ليبثَّ لهم الخبرَ، فوجدهم يحملون أسلحتَهم ويدورون في المكانِ غيرَ عارفين ما الذي يتوجَّبُ عليهم فعلُه، الدماءُ تجمدت في عروقِهم والحيرةُ سيطرت عليهم والمعركةُ التي دارت منذُ قليلٍ بينهم وبين الشرطةِ وراح ضحيتَها عشرون رجلاً منهم لازالت مناجلُها تحرثُ قلوبهم، الضوءُ يقتربُ منهم و أعيرةٌ

ناريةٌ تُطلق عليهم بعشوائيةٍ، ركض أحدُهم نحوَ مدخلِ النفقِ وقبضَ على عمودٍ حديديٍّ صلبٍ كان بجواره ثم بكل قوتِه ضربَ عموداً آخر كان مزروعًا في الأرض، فوقه صخرةٌ ضخمةٌ، سقطت الصخرةُ وانهار سقف المغارةِ، غطت الرمال المدخل وقطعت الطريقَ أمام القادم، ثم هرولَ الرجالُ الستةُ في الجهةِ الأخرى وصولاً إلى الخارج، ركضوا نحو سيارةِ دفعٍ رباعيٍّ كانت ضيفة بطنِ أحد الجبال، استقلُّوها وانطلقوا بها حتى تجاوزا الصحراءَ وصولاً إلى المدينة، حين سلطت أعمدة النور إضاءتها عليهم لاحظوا أنهم ازدادوا واحدًا لا يعرفون من أين أتى، وجهوا أسلحتهم نحوه ونطقوا بصوتِ رجلٍ واحد :

-من أنت...؟

تلعثم في الحديثِ، ووقفتِ الكلماتُ على شِفاهِه.. أبتْ أن تخرجَ لتجيبَهم، ثم نطق بكذبٍ:

-أحمد..

أحدُ الرجالِ شدَّ أجزاءَ بندقيتِه وقرر أن يقتلَه، فمنعه آخرُ قائلًا بحزم:

-نحن في منطقةٍ سكنيةٍ، وأحد مراكز الأعداء على مقربةٍ منَّا، لو خرجت منك رصاصةٌ، ربما لا تُحمدُ عاقبتُها، اتركه ليفصلَ في شأنه الأمير..

عقب جملته، خلع عمامتَه وجعلَها عصابةً وضعها على عينِ أحمدَ، ثم جذب أُخرى من على عنقِ زميلِه وقيدَّه بها

*****

فيصباح قاسٍ كبردِ الشتاء، كئيبٍ كالخريفِ، خالٍ من كلِّ أمل، لا وجودَ لرائحة القهوة فيه ولا حتى الياسمين ليس كعادة صباحاتها المفعمةِ بالحياة والإشراقِ والضحكات، استيقظت "أسماء" على ألمٍ يمزقُ أحشاءَها، حاولت أن تصرخَ فلم تتخط صرخاتُها حنجرتَها، لا تعلم هل هي لعنة حلت بها...؟! أم غضبٌ تملك قلبَها الرقيقَ لِيُرديه طريحَ الفراش، نبضاتُ قلبِها تضرب جدرانه بقوة، تكاد تُجبره على الخروج من قفصها الصدريِّ، حربٌ طاحنةٌ تعصف به،

كاد أن يرتقي شهيدا لولا غياب حبيبها الذي جعلها تتمسك بالحياة حتى رؤيتِه، تنازع الامَها، المرضُ سيطر على جسدها، مآتمُ أحزانٍ تُقام في عقلِها؛ أصواتُ نحيبٍ تملأ دهاليزه ضجيجا.

حاولت أن تفتح عينيها لتتخلصَ من هذا الكابوسِ المؤلِم، الصورةُ ضبابيةٌ، كلُّ شيءٍ باللون الأسودِ والرمادي، الستائرُ والجدرانُ والسقفُ شعرت أنها في عزاءِ فتاةٍ مخمليةٍ أو أنها أصيبت بعمى الألوان وكأن عاصفةٌ كونيةٌ لطخت كلَّ الأشياءِ بالسوادِ والرماد، حاولت النهوضَ من فراشها فلم تستطع جبالُ الكون كلُّها مُلقاةٌ على جسدها، حاولت تحريك قدميها فلم تتحركا.. كانتا متجمدتين كقطعتين من الصقيع والدماءِ متيبِّسة في عروقهما بدت كأغصانٍ ماتت عطشاً، لا شيءَ يُنبئُ بوجود حياةٍ داخلها سوى تأوُّهاتِها وأنينِها، استحوذ الألمُ عليها وبدا متوحشًا كأسدٍ جائعٍ ينهشُ لحمَ فريستِه، حاولت أن تصرخَ مرةً أخرى لعلَّ الأسدَ يهرب ويتركُ جسدها أو يهبطُ عليها مَلَكاً من السماء يقتله أو يأتيها فارسُها على حصانه الأبيض يحملها بين ذراعيه ويركضُ بها إلى أقرب مشفى لعلاجها، لكنَّ صوتَها لم يتعدَّ غرفةَ نومِها، صرخاتها تحولت إلى قطراتِ دموعٍ تساقطتْ على خديها فأحرقت تورُّدَهُ، فصار شبيهاً بالرماد بينما جسدُها أصبحَ نيراناً ملتهبةً كحِممٍ بركانيةٍ من شدة حرارتها .

لم تكن قادرةً حتى على فتحِ فمِها لتتفوه باسمه، تسارعت نبضاتُ قلبها، أصواتُ النحيب فجرت كلَّ شيءٍ في عقلها الألم يتزايد أكثر فأكثر، خوفٌ شديدٌ قيَّد جسدَها المنهك، رعشةٌ تملكت منه بالكامل، تحدَّث قلبُها بأنين:

-يا إلهي.. هل هي النهاية ...؟ هل حان موعدي مع الموت...؟

أغمضت عينيها المرهقتين وأعلنت الاستسلامَ كآخرِ جنديٍّ بقي على قيدِ الحياة في حربٍ أبيدَ فيها جميعُ الجنود، فجأة تراقص في ذاكرتها وجه حبيبها وكأنه أعطاها أملاً لتحيا من جديدٍ وفك لجام لسانِها فنطقت متلهفةً لحديثه:

-أيعقل أن أموت قبل أن تُلملمَ فُتاتَ اشتياقي بين ذراعيك، قبل أن أتحسس ملامحَ وجهك بأناملي وقبل أن أتنفسك، أيعقل قبل أن أعيش تلك

اللحظات التي طالما حلُمنا بها معاً، كيف يُعقل وعيناك التي أسَرَتْ القلبَ والروحَ لم أحظَ بشرف تقبيلهما...؟!

ارتفعت عيناها إلى السقف فاخترقته وتضرعت إلى الله طالبةً منه طلباً واحداً:

-رباه ألَا يحق لي رؤيته قبل الموت، إن كان قدري الموت مبكراً.. فلا تأخذ روحي قبل لقياه..

سقطت آخرُ دمعةٍ من عينيها، ثم صمت أنينُها، استسلم كلُّ شيءٍ فيها إلا أذناها؛ فقد سمعت طرقاتٍ على باب الغرفة والمقبضُ يدور، دخلت صديقتُها منالٌ وهي تناديها:

-أسماء.. أسماء..

اقتربت منها، جذبت الغطاءَ من فوقها فارتعبت من رعشةِ جسدِها القويةِ، تحسَّستْ جبينها فلسعتها حرارتُه المرتفعة، هرولت نحو الخارجِ وهي تصرخ:

-دكتور..

*****

# الفصل الرابع

أوراقُ العمرِ تتساقطُ من شجرة خريفيةٍ، جِذْعُها نَخره سوسُ الزمن فمنع عن أغصانها وصولَ الماء، سقطت الأوراقُ واحدةً تلوَ أُخرى، وبقيت إحداهنَّ تُصارِع الموتَ، تتشبث بفرعٍ يُسقَى بماءٍ صناعيٍّ، ترويها شجرةٌ أخرى لم يسقط من فروعها سوى ثلاثةٍ، كلُّ واحدٍ منهم كان أباً لعشرِ وريقات، وهكذا يفعلُ الزمن بنا دون أن ندري، يأخذُ كلَّ عامٍ منَّا ورقةً يُقدمها قربانا للدهر، ومن اعترضَ حَشّ جذعَه بمنجلِ الموت، ولا يزالُ يُمارسُ عمله دون النظر إلينا بعينِ النظرة، حتى يأتي يومٌ يغضب علينا فيه فيطيحُ بجذورِنا فلا يُبْقِ منَّا أحدًا، حتى الموكَّلُ به يرقدُ بجوارنا ينتظر قرار من بيده الأمر، نشاهدُ الحدثَ في جَزَعٍ؛ فَمِنَّا مَنْ تُنبِتُ شجرتُه من جديدٍ في جنةِ الخلد، ومِنَّا من يكونُ حطبَ جهنم.

الأمرُ يستدعي التفكُّرَ كثيرًا فيما نحن قادمون عليه، ولكن هل يروقُ الأمر لِـ"ليلى" التي انفطر قلبُها على "سعد" حين رأته يلتقط أنفاسَه بصعوبةٍ بالغةٍ، وشيطانُ الخوف تملَّك منها وراح يرقصُ أمام ناظريها وهو يحملُ في يده مِنجلاً حادًا يريد أن يقطعَ به جذرَ شجرةٍ عمره، فما كان عليها إلا أنْ ارتدَتْ ملابسَها مسرعةً ولم تنظر إلى المرآةِ ساعاتٍ قبل أن تخرجَ على غير عادتِها، خرجت حاملةً معها وصفةَ الدواء لتُحضرَها من أقربِ "أجزَ خانةٍ" إلى منزِلِها، فتحتْ بابَ المنزلِ وبدأتْ خطواتِها على عجلٍ..

خصلاتُ شعرِها تتطايرُ مع الرياحِ وتتراقصُ مع نسماتِ الهواءِ كأنهنَّ فتياتٌ جميلاتٌ يرقصن الباليه بكلِّ إبداعٍ مشكلينَ أجملَ لوحةٍ فنيةٍ، لهثت

فتعثرت خطواتُها بشيءٍ ما لم تنظر إليه، المهم أن تحضرَ الدواءَ بأسرعِ وقتٍ، أخيرًا وصلت إلى وجهتِها، لم تلتقط أنفاسَها بعد حتى ضربت الأرضَ بقدميها تذمرًا حين وجدت الصيدلية مغلقةً، فلعنات حظَّها العاثرَ تتبعها؛ حيث تُوفِّيَ والدُ صاحبِ "الأجزخانة" منذ قليلٍ، شبحُ الموتِ يحومُ حولَ رأسِها يرسمُ في مخيلتها صورةً لِـ"سعد" وهو محمولٌ على الأعناق، دموعُ عينيها تتدفق بغزارةٍ، تبللُ ملابسُها الشفافة، تزيدُها جمالًا على جمالها، لم تنتبه لعيون المارةِ التي تأكلُ مفاتنها، بل هي غارقةٌ في كابوسِها المزعج، وجهُها المشرقُ دائما تَقطَّبَ حاجباه كأنَّ الغيومَ حجبتْ ضياءَ الشمس، تأففت بقهرٍ وتابعت الركضَ حتى اصطدمت بعينيها في عجوزٍ يجلس أمام دكانه الصغيرِ؛ اقتربت منه وسألته بلهاث:

-هل توجدُ أجز خانة قريبةٌ من هنا غير هذه...؟

ارتسمت على ملامحِه شبهُ ابتسامةٍ وأجابها بعد أن دار بعينيه حولَ المكان:

-يا ابنتي: إن لَّم تَخُنِّي الذاكرةُ التي تآكلت من سنينَ الدهرِ؛ فَ نَعم: يوجد.. ولكن بعيدةٌ بعضَ الشيءِ، إنها على الطرفِ الآخرِ من الشارع، في زاوية الحيِّ المجاور ...

انطلقت راكضةً تتلفت تارةً إلى اليمين وأخرى إلى الشمال بلهفةٍ كلهفة أمٍّ فقدت طفلَها بالزحام، تبحث عنه بحرقةٍ، وحزنٍ أعمى بصرَها وأخيراً وجدَتْ ضالتَها، اقتربت من مقبض الباب، أخذت برهةً قبل أن تفتَحَه، لا تعلمُ ما الذي يمنعُها...! وكأن صوتاً في قلبِها يقولُ لها - تراجعي لا تفتحيه- تجاهلته ودلفت، جالت ببصرها في المكان فلم ترَ أحداً.

صرخت:

-هل من أحدٍ هنا...؟!

جاءتها الإجابةُ من بين الأرفُفِ المرصوصةِ على الجدار:

-ثوانٍ سيدتي..

ظهر شابٌّ من بين رفوفِ الأدوية يُناظرها في العمر، طويلُ القامة عريضُ المنكبين، وسيمٌ قسيمٌ ظاهرُ الوضاءة، لونُ بشرته شبيهٌ بقمحٍ تنثرُ الشمسُ عليه أشعَّتَها بسخاءٍ لتمنحَه لوناً يجذب القلوبَ، صلبُ البدن كأنَّ بدنَه نُحِتَ من صخرٍ؛ عيناه الزرقاوانِ سماءٌ صافية لا غيومَ فيها ولا رعودَ، يقومُ بحراستها طائرانِ فينيقيانِ جميلان يُلقيان بتعويذةٍ على كلِّ ناظرٍ إلى تلك العينين، غمازتان على الخدين كأنهما الشمسُ والقمر، شفتان خطَّتهُما أناملُ فنانٍ بكلِّ تأنٍّ وحنانٍ، لحيةٌ كستنائيةٌ أضافت على هذه الملامحِ هيبةً ورجولةً، إن تبسَّمَ علاه البهاءُ وإن تكلمَ تجلَّى له الوقارُ وكأنَّ منطقه خرزات نُظِمَتْ بإتقان:

-تفضلي سيدتي ماذا تريدين...؟

نَسِيتْ ما جاءت من أجلِه، حتى أنها نسيت "سعداً" ذاتَه وغاصت في تفاصيلِ ذاك الشاب، أخذته معها في خيالها، ودَّتْ لو تلمس بيديها تُحفةَ جسدِه الفنية، تُزيح عنها غبارَ الملابس وتُتوِّجُه ببروازِ جسدِها، تاهت بشرودٍ حتى أيقظها صوتُه الدافئ حين أعادَ عليها سؤاله:

-سيدتي ماذا تريدين...؟

امتدت يدُها الناعمةُ وأعطته الوصفةَ الطبية، ثم قالت بنبرة ناعمةٍ وحزينة:

-من فضلِك أريد هذا الدواء..

أخذ الورقةَ منها ثم حدَّقَ فيها لبرهةٍ وعاد لينظرَ إلى عينيها البُنِّيتين كقهوةٍ عربية، اختلطت الألوان في تلك اللحظات وخفقَ القلبان حتى أخرجهما من شرودهما صوتٌ أنثويٌّ يطغى عليه صراخُ طفلٍ رضيع:

-النجدةُ يا دكتور أمجد..

كان الصوتُ لامرأةٍ تحمل طفلاً صغيراً يصرخ من شدة المغص الذي أصابه، تناول "أمجد" منها الطفلَ وفتح فمَه ونظر داخله ثم ابتسم قائلا:

-لا تخافي أم أحمد..

سرعانَ ما توجَّه نحوَ أحد الأدراج وأخرج زجاجةً، ثم أحضر - حقنة - وفرَّغ العقار داخلها وأعطاها للرضيع وأضاف:

-لا تقلقي.. سيغطُّ في نومه لساعاتٍ وبعدها سيكون على ما يرام..

شكرته المرأةُ وذهبت وتحرك هو ليحضر ما تحتاجه "ليلى" وأثناء سيرِه في المكان كانت ليلى تتفحص خطواتِه وتبتسم في نفسِها وكأنه جبلٌ يمشي على الأرض رغم كلِّ صلابته لم يستغرقِ الكثيرَ من الوقتِ حتى عاد إليها، وقع نظرُها على نظرِه مرةً أخرى فلمعت عيناها وتفتحت وجنتاها كأزهار الربيع...! بينما قلبُها الذي تيبَّسَ به النبضُ وجفت فيه الروح عاد لينبضَ من جديد، ولسانها هتف بطلاقة:

-كم الثمن...؟

ابتسم قائلا:

-اعتبريه هديةً لأنك أول مرةٍ تقومين فيها بزيارتِنا...!

ابتسمت ابتسامةً خطفت قلبه، كلصٍّ محترفٍ بارعٍ في خطف القلوب ثم تحدثت شاكرةً:

-أشكرُك على لطفِك وذوقك الرفيع..

أخذت الوصفةَ ونظرت في الثمن ثم أخرجت حقيبةَ نقودِها ووضعت المالَ على الطاولةِ وغادرت، لكن يبدو أنها لم تأخذ الدواء فحسب، بل أخذت شيئا آخرَ معها ومضت..

*****

بعد فشلٍ ذريعٍ من جهة المخابرات العامةِ في كشف هويةِ جاسوسِ الحدود، وكذلك بعدَ الفشل في استخراج أيِّ معلومةٍ منه، قرر العميدُ "مصطفى طاهر" أن يُخضِعَ المتهمَ للتنويمِ المغناطيسي كطريقةٍ فعالةٍ للاهتداءِ إلى معلومات يُخزِّنُها المذنبُ داخل عقلِه ويرفضُ الإدلاءَ بها، وعلى الفور رفع سماعةَ هاتفه واتصل بالطبيبة المختصة دكتور "نهال محجوب"

وطلب منها الحضورَ السريعَ إلى مكتبِه، وفي غضونِ نصفِ ساعةٍ حضرت الطبيبةُ المذكورة وسرد لها العميدُ ملابساتِ القضية وعدم حصولِهم على معلومةٍ واحدةٍ من المتهم تفيدُهم، وأفصح لها عن أملِه في نجاح ما فشِلِ فيه الضباطُ من استجوابٍ للمتهم، طمأنته الطبيبةُ وطلبت منه أن ينقل المتهم لغرفةٍ تُشبهُ غرفَ المستشفيات وأن يضعوا بها سريراً واحداً وكرسياً وكذلك مروحةَ سقفٍ وألَّا يدخلَ عليها أحدٌ أثناء تواجدِها مع المتهم، فوافقَ العميدُ على الفور وأمر أحدَ رجالِه بتجهيز الغرفة كما أرادت .

بعد مرور ساعةٍ كانت الغرفةُ على ما يرام، أُضيف على ما طلبته الطبيبةُ ميكروفونٌ صغيرٌ وكاميرا كي يتسنى لرجالِ الأمن سماعُ ورؤيةُ ما يدور داخلَ الغرفة المغلقة، تحركت الطبيبةُ على الفور نحو الغرفةِ بخطواتٍ ثابتة، كانت كلُّ خطوةٍ تخطوها تدلُّ على ثقتها بنفسِها حتى دلفت إلى الغرفة، رأته يتجوَّلُ في الغرفة يرطمُ رأسَه بالحائط مرارًا وتكرارًا، وحين لمحها شعر بالخجلِ الشديد وتحرك على الفور نحوَ السرير.. ألقى بجسدِه عليه، السريرُ الذي كان بنظره أشبه بالقبر الذي سيخلدُ فيه، صُوَرُ الجحيمِ لا تفارقه، عقلُه مرهقٌ خاوٍ وكأنه البحر الذي تَصبُّ فيه جميعُ أنهارِ الوجعِ والخيبات، اقتربت منه "نهال" ثم ابتسمت في وجهِه وأخذت تُمرِّرُ يدها على شَعرِه الأسودِ الكثيفِ وكأنها أُمٌّ تداعبُ ولدها المريضَ...! ثم بابتسامةٍ ماكرةٍ قالت له:

-انظر إلى السقف وقلْ لي ماذا ترى أو ماذا يُشبهُك فيه...؟

راح بصرُه يفعلُ ما أمرَتْه به، ثم غاص فيه.. وقبل أنْ يتحدث تابعت هي بإيحاء:

-لا شيءَ في السقف يشبِهُك سوى المروحةِ، فهي التي تُؤنس وحدتك.

أخذت عيناه تدور مع دورانِها حتى شعر بالدوار؛ أكملت الطبيبة حديثها بثقة:

-لا تخفضْ بصرك أبدًا.. اجعله يدور معها وقل لي كم عددُ دورتِها في الدقيقة الواحدةِ حين أطلب منك ذلك، عليك العد وعليّ مراقبةُ الساعة..

ظلَّ يُحدِّقُ في المروحة يأخذ نفسًا ويزفره مع كلِّ دورانٍ لها، بينما الطبيبةُ كانت تمسح على ذراعيه برفق، حتى أصبح شبيهًا بالنائم، ابتسمت الطبيبة بثقةٍ وتساءلت:

-قل لي ما اسمك...؟

هزَّ رأسَه عِدَّةَ مراتٍ وأجاب بنبرةٍ هادئةٍ:

-اسمي لا يهمُّك في شيء...!

أحسَّت حينها أنه لايزال يحتفظُ بوعيه، فمسحت على قلبه وتحدثت بِحُنوٍّ:

-يهمني أمرُك كثيرًا، ربما أستطيعُ مساعدتك، فأنت تحتَ قبضةِ من لا يرحمُ الخائنين وأظنُّك قد تورطتَ في هذا الأمرِ رغمًا عنك فأنقذْ نفسَك، وأنا أَعِدُك أن تُصبحَ شاهداً لا متهماً..

صمت الرجلَ ولا زال يُحدِّقُ في السقف، فتابعت الطبيبةُ حديثها بنبرةٍ ناعمةٍ:

-أغمضْ عينيك، واسترخِ ولا تفكِّرْ في شيءٍ غيرِ الذي طرحتُه عليك..

ثلاثُ دقائقَ مضت كان فيها الشخصُ قد غاب عن الواقعِ لكنه لازال يسمعُ ويعي ما يدور حولَه، حين شعرت نهالٌ أنه على أُهبةِ الاستعدادِ للاستجوابِ استطردت قائلةً:

-هل تُحبُّ أبناءك...؟

أجابها دونَ ترددٍ:

-لا أُحب أحدًا حتى نفسي..

أكملت استجوابَها بنبرةٍ حانيةٍ:

-هل تتمنى شيئاً الآن...؟

هزَّ رأسه نافيًا، فتابعت:

-من أنت...؟

أجاب سريعًا:

-لا شيء..

أمسكت يده وهتفت مَتصنِّعةً القلق عليه:

-هل أمسك أحدهم يدك هكذا من قبلُ كما أفعلُ وترجَّاك ألَّا تذهبَ؛ فقبلت رجاءه لأنه ما زال يعني لك شيئًا...؟

ابتسامةٌ خفيفةٌ زيَّنتْ وجهَه الكئيبَ أجاب على إثرِها بجمودٍ:

-وهل جسدٌ بلا قلبٍ سيشعرُ بما تقولين...؟!

صمتت قليلًا تبحثُ في عقلها عن سؤالٍ يفتحُ خزانةَ أسراره فتتدفق الأجوبةُ من خلالِه، لكن في هذه اللحظة فاجأها ونهض عن سريره راكضًا نحوَ البابِ، دفعه بقوةٍ محاولًا الهرب من هذا السجن، فدخل رجالُ الأمنِ وأبرحوه ضربًا حتى وقعَ مغشياً عليه، خرجت الطبيبة مطأطأ الرأس تجرُّ فشلها خلفها كأُمٍّ لأربعةِ توائمَ يتشبثون في ذيل عباءتها ويعيقون مسيرتها ...

*****

مرَّ يومٌ آخرُ مبعثراً بداخل "ريم" وهي تُعيد ضلوعَها المحطمة، تفشلُ للمرةِ الألف في ترتيب لحظاتِ حياتها، خزانةُ قلقِها مصابةٌ بالتخمة ولا مكانَ يتَّسعُ لكلِّ هذه الهواجس...! مرَّ ثالثٌ كان الأشدَّ حُزنًا على نفسِها، عرجت الشمس فيه للمغيبِ جرَّت خلفها تفاصيلَ نهارٍ شاقٍّ، لا شيءَ تغير سوى أن الشوارع باتت خاويةً من الضحكات، لا شيءَ يحفُّها سوى العويلِ، أتى الليلُ غريباً وسيعود غريباً، ليلُ مدينةِ روحِها لا يمكن أن يصبحَ صديقاً لأحدٍ، الليلُ بدونه وحيدٌ باردٌ، ولا يجيد التواصل مطلقاً، تُحدثُه لساعاتٍ، تستعطفه، تتسولُ بعضَ هدوئه، فيرجمُها بالصمت، صمتِ الأمواتِ الرهيب...! يتملَّكها الغضبُ من تصرفِه، خصوصًا حين تركها تذهب وحدَها وجلسَ يُكملُ مشروبه الباردَ مثلَه، الحزنُ يعتصر قلبها كلَّما ظنَّتْ أنه لا يبالي، بدأت في التهكُّمِ عليه بينها وبين نفسِها:

-تبا لك يا قاسيَ القلبِ كالصخرِ، لا بل أشدُّ قسوةً منه؛ فإنَّ من الصخر لَمَا يتشققُ فيتفجَّرُ منه الأنهارُ؛ آهٍ كم أتمنى التهامَ كبدَك بأنيابي كالذئاب، الرجالُ كلُّهم هكذا.. لا يشعرون ولا يهتمون لحزنِنا او غضبِنا -سبحانك ربي- كأنَّ قلوبهم صُنعتْ من فولاذٍ لاذعٍ لإشعالِ قلوبنا ناراً، تبَّاً لهم...! جميعُهم عقولهم ليست في رؤوسِهم.

غضبٌ جمٌّ تملكها عمَّ كلَّ الرجال؛ هكذا هي العاشقةُ، ترى في نصفها الآخرِ كلَّ نوعِه فويلٌ لجنسٍ خانَ واحدٌ منهم حبيبته، وابلٌ من الشتائم اغتابته به لو وُزِّعَ على العالم لكفاه، لكن يبدو أنها لم تكتفِ بعدُ، واستلقت على سريرها وأخرجت صورتَه، تأملته بكل تفاصيله، ابتسمت ثم قبَّلت الصورةَ وبدأت تُحدِّثها:

لماذا كلُّ هذه القسوة.. تُرَى: تُحبُّني أم تكرهُني، أم أنَّ قسوتَك وكبرياءك يمنعانِكَ من الاعتذار لي، أم أنك لا تكترث لحزني...؟! أعلم أنَّ داخلك حنانٌ يكفي العالم بأسرِه..

ألم تكن تخبرُني دائما أنك لا تريد رؤيةَ عينَيَّ وهي تدمع؛ كما أنَّ ابتسامتي تُسعد قلبك ولا يليق بوجهي الحزن...!

أتدري لِمَ أتحملُ عنادك وغضبك...؟ لأنني على يقينٍ تامٍّ أنَّ عشقي يتملك قلبَكَ وأنَّ فؤادي مسكنُك ووطنُك، لكن الذي يضعُني في حَيرةٍ: لماذا لا تُظهرُها لي...؟

هل لأنك غامضٌ لا تريد لأحدٍ أن يقتربَ من عالمِك الخاصِّ، أو أنَّ خجلَك يمنعُك من البوح، أو أنَّ كبرياءَك أو خشيتَك إنْ أُنتَ أظهرت لي حجمَ عشقِك يدفعُكَ بعيداً مخافةَ أنْ يتملكَني الغرور...؟ ليتك تُريحُ قلبي من حَيرته وتخبرُني وأعِدُك أنَّ عشقي سيزدادُ أضعافا، ولكن كيف تكون خجولًا وأنت تأكلني وتلتهمني كلَّما كنتُ معك...؟!

لا.. لا.. لن أقبل بحديثك قبل أن تعتذرَ لي وتعدَني أن تحترمَ رغباتي ...

يا لها من عاشقةٍ مجنونةٍ لا تعرفُ ما تريدُ؛ إلَّا أن يظلَّ بجانبِها...! وبينما هي تُحدِّثُ صورتَه أغراها صوتُ قطراتِ المطرِ التي تُلامس النافذة، تركت صورته وخرجت تسير تحت حباتِ الماءِ المنهمرةِ من السماءِ، لا تدري إلى أين وجهتُها ولا إلى أين ستقودها قدماها، خطواتُها كانت حائرةً كقلبها المتوهِّجِ ناراً، رفعت رأسَها للسماء وابتسمت للغيوم، صرخت تخاطبها:

-أتدرين أنَّ حالك مثلُ حالي، يُجبرونك على البكاء، على أن تكوني حزينةً وهم الأقربُ إليك، فسماؤك التي لا تخونينها ولا تغادرينها أبدًا وأنتِ جزء منها هي مَنْ تُجبرك على البكاء وتجلدُكِ بسوطِ برقِها وزئيرِ رعودِها، وأنا كذلك أيضاً يا عزيزتي؛ ولكنَّ الفرقَ الوحيدَ بيني وبينك هو أنكِ في السماء وأنا على الأرض.

أنهت كلماتِها بتنهُّدٍ حارٍّ كنَفْثِ التنين، وراحت تُكمل طريقَها المجهولةَ، خطوةٌ واحدةٌ خطتها قدماها ثم شعرت بيدٍ تمتدُّ إلى خصرها وجسدٍ يقتربُ منها من الخلف، رفعت يدها واستعدَّت لتوجِّه لكمةً تُفقِدُ ذاك الوقحَ وعيهُ، واستدارت وإذا به "خالد" يقولُ مبتسمًا:

- اضربي.. هيا..

- هذا أنت...؟ ما الذي أتى بك إلى هنا...؟

هل انتهيت للتوِّ من ليمونك الباردِ مثلك...؟ أكان لذيذًا...؟

ليته كان سمًا لأتخلَّصَ من لا مبالاتك...!

أطلق ضحِكةً في الأرجاء من أعماقِ قلبه ثم تحدثَ بهيامٍ:

-أتعلمين.. أعشقك بجنونٍ؛ فحين تغضبين تصبحين مثيرةً أكثر، وكلُّ شيءٍ بك يدعوني لالتهامك..

تأفَّفتْ وأدارت ظهرها وأكملت طريقَها، أمسكها من يديها ثم تساءل:

-إلى أين تذهبين يا مجنونتي...؟

تعالي إلى بيتك الذي في صدري ومأمنِك بين أحضاني

فتحَ ذراعيه ليضمَّها إلى صدرِه فتملَّصت منه وصرخت:

-دعني وشأني.. يجب عليّ أن أموت لعلَّك ترتاح، وتهنأ بلا مبالاتك التي تُشعلُ نار غضبي منك..

اتسعت عيناه وأدارهما في محجريها يميناً ويسارًا ثم استدعى وجه الضابطِ أثناءَ التحقيق مع متَّهمٍ على يقينٍ أنه مذنبٌ وهتف:

-إن لَّم تصمتي وتهدئي سأسكتك بطريقتي..

رقصت قرودُ غضبها أمامَ عينيها وهتفت بغيظ:

- وماهي طريقتُك.. ستقتلني أم تخنقني.. هاااا.. ماذا ستفعل...؟

أقبل عليها بسرعةٍ وأمسك رأسها من الخلف والتهم شفتيها وجعلهما في قبضةِ فمِه وقيَّدَ لسانه السليطَ بأسنانِه لنصف دقيقة، ثم تركها ونطق:

-تكلمي مرة أخرى.. هيا تكلمي...!

صمتت لدقيقةٍ حتى استوعبت جرأته ثم نظرت في الأرض فلمحت خلفه حفرة سطحية يرقد فيها ماءُ المطر الممزوجِ بالوحل، ابتسمت في نفسها وقالت:

-هذه فرصتي المناسبة لأنتقم..

دفعته بقوةٍ فسقط في الحفرة، لم تتمالك نفسَها من الضحك، ضحكت بشدةٍ وقفزت في الهواءِ كطفلةٍ صغيرةٍ انتقمت من شريرٍ قهرها وغلبها باللعب.

نهض ووجهُه متوهجٌ من شدَّةِ الغضب، وهي لازالت تضحك ثم أشارت نحوه وقالت مشاكسةً:

-أتعلم أنك تُشبه الضفدع الخارج من مستنقعٍ..

لقد قضت على غضبه بجملتها وجعلته يبتسمُ رغمًا عنه ويقول:

-يااه.. تسخرين مني سُأريك إذًا...!

ركضت فركضَ وراءها وظلت تُشاكِسُه:

-الحق بي أيها الضفدع الجميل..

نسيا كلَّ شيءٍ، عتابها.. غضبَه منها.. عدمَ مبالاته.. إهانتَه في المطعم، تحوَّلَ كلُّ شيءٍ إلى ضحكاتٍ ورقصاتٍ، كأنهما طفلانِ جُلُّ همِّهما اللعبُ تحت المطر.

هكذا هو الحبُّ يفعل بنا المستحيلَ ويُنسينا من نكون ويجعلنا نغفرُ كلَّ شيءٍ مهما عظُم ما دام أحباؤنا مخلصين لنا...

*****

في أحدِ الأحياء الفاخرةِ كانت الأشجارُ تصطفُّ بجوارِ بعضِها، تُغطِّي فروعُها سورَ فيلا فارهةٍ لأحدِ الرجال المرموقين في الدولةِ، وكأنها حُرَّاسٌ مجندون، في هذه اللحظات كانت سيارةٌ موديل "تويوتا" بيضاءُ اللونِ تقطعُ الطريقَ وصولاً إلى مدخلها، فُتحت بوابتُها على مصراعيها، انطلقت السيارةُ داخلها، وقفت في منتصفِ الممرِّ على أرضيةٍ حديديةٍ مستطيلةِ الشكل، تُشبه رافعةَ السيارات في مراكزِ الصيانة، في غضونِ ثوانٍ هبطت إلى أسفل، تجاوزت عشرة أمتار في باطنِ الأرض، تحركت العربةُ بعيدًا عن الحاملة وانطلقت في نفقٍ مظلمٍ وصولًا إلى الجراج، وقفت وترجَّلَ منها الرجالُ الستَّةُ وبصحبتهم غريبُهم معصوبَ العينين، سار به أحدُهم يمينًا نحوَ غرفةٍ كبيرة، دلفا إليها ثم ترك الغريبَ بها وخرج، وحين عاد إلى زملائه وجدهم قد انتهوا من انتزاع اللون الأبيض من جسمِ السيارة لتظهر على لونها الرمادي الأساسي، تحرَّك نحوَ غرفةٍ أخرى على اليسار وقبض على لوحتين معدنيتين وعاد، استبدلَ اللوحتين ثم استلقى أرضًا، نظر إليه أحدُهم وسأله :

-ألَا تستبدلُ ملابسك وتخلعُ عنك لحيتَك المزيفةَ...؟

هزَّ رأسَه رافضًا فتابع الرجلُ:

-إن رآك الأمير هكذا سيغضب منك، سيعتبر رفضك مخالفةً بينةً..

لم يُعلِّق على حديثه.. فتركه الرجلُ والتحقَ بزملائه حيث دلفوا إلى غرفة الملابس، خلعوا عنهم جلابيبهم وكذلك لحاهم وارتدى كلٌّ واحدٍ منهم بذلته ثم خرجوا متوجهين نحوَ السيارة، جلس أحدُهم خلف عجلةِ القيادةِ وامتلأت المقاعدُ بالآخرين ثم انطلقوا بها، صعدوا ممرًا عريضًا ملتويًا حتى وصلوا إلى بابٍ في آخره، ترجَّلَ أحدُهم وفتحه، أصبحوا داخل جراجٍ لإحدى الشركات الخاصةِ، نزلوا من السيارة واتَّجه كلٌّ واحدٍ منهم نحو سيارتِه الخاصة، في حين قد وصلت إشارةٌ للأمير بشأن الرجلِ الغريب، زفرَ في ضيقٍ وأرسلَ أحدَ رجالِه يستطلع أمره ثم قبض على هاتفه وأجرى عدةَ مكالماتٍ هامةٍ.

في هذا التوقيت كان المعصوبُ منزويًا بركنِ الغرفة كفأرٍ يتململُ خوفًا.. جسدُه أسير وعقلُه فارغٌ مع الحياة، ينتظر أن ينقض عليه أحدُهم بمكنسةٍ خاطفةٍ للأرواح تمحو أثرَه من دنيا لا يعرف عنها شيئًا، يبدو أنها قادمةٌ، صوتُ وقعِ أقدامٍ تقتربُ منه، البابُ يُفتح.. يُصدرُ صريرًا مزعجًا، ينزوي الرجلُ على نفسِه، خطواتٌ ثقيلةٌ وبطيئةٌ تقتربُ منه، تبدو أنها لرجلٍ ذي هيبةٍ ووقار، شّعَرَ بجسدٍ يجلسُ أمامه، ارتجف بشدة، شيءٌ ما يقبضُ على عصابةِ عينيه، أُزيحت عنه، الرؤيةُ ضبابيةٌ، واحتراقٌ يغزو عينيه، فركهما بيديه، اتضحت الرؤيةُ، رجلٌ قويُّ البنيانِ، بضَّ الملامح، خفيفَ اللحيةِ، أنيق المظهر، يختلف كثيرًا في الهيئة عمَّن سبقَ ورآهم، التقط أنفاسه وهو يحدِّق في الرجلِ الذي ثبَّتَ بصره في عينيه بتهجُّمٍ ونطق متسائلًا:

-من أنت...؟

قبل أن يجيبَ الآخرُ.. رفعَ الرجلُ سبابتَه مُحذِّراً وأكمل:

-إياك والكذب..

ابتلعَ الرجلُ ريقَه بصعوبةٍ بالغةٍ وتوقَّفَ عن الكلامِ لبرهةٍ ثم أردف:

- لا أعلمُ شيئا سوى اسمي، حتى أنني لا أدري كيف وصلت إليكم أو أنتم من وصلتم لي...! ربما كنت لِصَّاً أو بطلًا أو رجلاً عادياً.. لا أدري أقسم لك أنني

لا أدري من أكون ولا من أين أتيت، كلُّ ما أتذكره أنني كنت في صحراءَ شاسعةٍ وكأنني زرعٌ شيطانيٌّ نبت دونَ بذرة..

أعادَ الأولُ العصابةُ إلى عينيه ونهض، لم يسمع الثاني تعقيبًا على حديثِه سوى صوتِ حذاءٍ يدقُّ الأرض مبتعدًا عنه حتى اختفى، هكذا قطع الرجل الممرَّ حتى انتهى إلى أخرِه بمحاذاة قطعةٍ معدنيةٍ في يمينه، ضغط عليها بقوةٍ ليجدَ نفسه بعدها يقف في بهوِ الفيلا، سار بخطواتٍ واثقةٍ تجاهَ غرفةٍ أنيقة، طرق الباب برفق، فأتاه صوتٌ من الداخل يأذن له بالدخول، دخل وعيناه مثبتتان على أرضية الغرفةِ ويداه معقودتان على سُرَّتِه، ثم تحدث بنبرةٍ هادئة:

-السلام عليكم..

خلع الرجلُ -الذي كان يجلسُ خلفَ المكتبِ- نظارته، وقابله بنفس الهدوء:

-وعليكم السلام ورحمةُ اللهِ وبركاته.. قبل أن تبدأ بحديثك حولَ عملية اليوم.. أخبرني أولاً: ماذا عن ذلك الرجلِ الذي جلبوه معهم..

رفع بصره عن الأرض وراحَ يقصُّ عليه ما دار بينه وبين ذلك الغريب.. وما إن انتهى من حديثه حتى قام الأميرُ وتحرَّك بضعَ خطواتٍ في اتِّجاهه ثم قال:

-ربما يكون فاقداً الذاكرةَ بحقٍّ وربما كان فخّاً من الأعداء...! ولكن الأيامُ كفيلةٌ أن تكشف لنا ما وراءَ "أحمد" هذا..

*****

# الفصل الخامس

نهض من فراشِه بعد منتصفِ الليل، أمسك رأسَه وضغطَ عليها بقوةٍ؛ فصداعُ رأسِه يكاد أن يقتله، فليس كعادته أن ينامَ في منتصفِ النهارِ، فدائماً ما كان يستهويه النوم في هذا الحين الذي استيقظَ فيه، لكن أمس كان القلقُ رئيسَ دولتِه، يُلقي خطابَه المسمومَ داخلَ رأسِه، يقف على مِنصَّةِ ذاكرتِه ويصيحُ في الحاضرين من أعضائه، نحن على حافة الهاوية، الخطرُ يحومُ حولنا كأسودٍ جائعةٍ، والغزال مختبئٌ في جوف السجين " جمال" الأسودُ تزأرُ.. تقتربُ من لحمِ مناصبنا.. ستمزقنا إربًا ولن تنفعَنا ذئابُ حيلِنا، علينا إنقاذُ أرواحنا وإلَّا فلن ترحمنا الوحوشُ..

لا زال أثرُ الخطابِ يضغطُ على رأسِه، فمنذ نام في الثالثةِ مساءً وحتى الآن لم تفارقْه مخاوفُه، نهض عن فراشِه وتحرك نحو الحمام، فتح الصندوقَ الخشبيَّ المُعلَّقَ خلف الباب وأخرج حبةَ مسكنٍ وابتلعها بِشَربةِ ماءٍ، ثم غمر جسده في المياه الدافئةِ، وما إن فرغ من حمَّامِه حتى سمع صوتَ هاتِفِه يناديه.. تحرك على الفور وقبض عليه، كان المتصل "سعيد فرغلي" المُكلَّفُ بالضغط على "جمال" للحصول على اعترافه بمكانِ وجودِ الملف، تنهَّدَ بارتياحيةٍ ووضع الهاتفَ على أُذنه واستمعَ لمُحدِّثِه، كان يودُّ أن يسمعَ خبرًا يسحقُّ صراعَ القلقِ داخل جمجمته، ولكنَّ ارتجافَ صوتِ مُحدثه جعله يُلقي بجسدِه إلى أقربِ مقعدٍ وهو يصيحُ فيه بغضبٍ جمٍّ:

-ما الأمر.. تحدث..

خرجتِ الكلماتُ من فمِ محدثِه متقطعةً، جعلت أشلاءَه تتناثرُ كمن حمل حِزامًا ناسفًا وفجَّرَ نفسَه:

-دخلت زنزانةَ "جمال" لأعاود استجوابه فوجدته قد فارق الحياة...

ابتلع "حازمٌ" ريقَه بصعوبةٍ بالغةٍ وردَّ متلعثما:

-المحضر.. هل حررتَ المحضرَ أم لا...؟

أجابه المتصلُ بيأسٍ:

-نعم.. حررته..

إثر جملته نفخَ "حازمٌ" في مزاميرِ غضبه حتى أصدر صوتًا مرعبًا جعل الهاتفَ يسقطُ من يد محدثِه:

-غبي.. لقد ألقيتَ بنا في أتونٍ مُستعرٍ.

قال كلماتِه وأغلق الهاتفَ وتحاملَ على جسدِه ونهضَ، ركض نحو غرفةِ النومِ وارتدى ملابسَه دونَ النظر إلى تناسقِها، واختطف مفاتيحَ سيارتِه من فوقِ الصوان الموضوع بجوارِ السريرِ وهرول نحو الخارج، لم ينتبه أنه ترك باب الشقة مفتوحاً، تجاوز الدرج بخفةٍ وصولاً إلى سيارته، رأى رجلاً يضعُ رأسَه على مقدمتِها كوسادةٍ غارقاً في نومه، ظنَّه لصًا ثم دارت في رأسِه الظنونُ فتوهَّمَ أن أحداً ما يراقبُه، لكن لا.. فربما يكون قتيلًا وهذا إنذارٌ أخيرٌ له، توقف قليلاً وسحب مسدسَه من حزامِ بنطاله وتحرك نحوه.. قبضَ على شعرِه الطويلِ ورفعَ رأسَه لأعلى ثم وضعَ فوهةَ مسدسِه في جانبها وصاح غاضبًا:

-من أنت...؟

ففزِعَ الرجلُ وحاول الإفلات منه وصرخ قائلا:

-اتركني.. اتركني..

خاف حازمٌ أن يتغلَّبَ عليه أو أن يأتيَه أحدٌ من الخلفِ ليقضيَ عليه أثناء شجارِه مع الرجلِ الغريبِ فأسرعَ في ضربِه بكعبِ مسدسِه على مؤخرةِ رأسه

مما جعل الرجل يفقدُ وعيه ويتهاوى بجسدِه أرضًا، فتح حازمٌ سيارته وأخرج منها أسورةً حديديةً وقيَّدَ الرجلَ من يديه ثم زجَّ به داخلَ السيارةِ وقال بضيق:

-سأعرف حكايتك حين أنتهي من مصيبتي..

أدار محرك السيارةِ وانطلق بها، كان يقطع الطريقَ بسرعةٍ جنونيةٍ وكأنه يقودُ طائرةً، لم يستغرقِ الكثيرَ من الوقت حتى وصلَ إلى القسم، ترجَّلَ من السيارة وهرول داخله والشررُ يتطايرُ من عينيه، في غضون ثوان كان قد جلس خلفَ مكتبه ودخل خلفه "المعاون سعيد فرغلي" فتح فمَه ليتحدثَ ولكن قاطعه حازمٌ قائلاً بتوبيخ:

-ما العمل أيها الأحمق...؟! لقد وضعتَنا في مأزق لا نعرف كيف سنخرج منه الآن، خصوصًا بعدما علمَ اللواءُ "فاروق الجيزاوي" باحتجاز السجين...!

انتفخت عروقُ المعاونِ وبحث في عقله عن مبررٍ، فلم يجد فالتزم الصمت، فتابع حازمٌ حديثَه متسائلاً بنبرةٍ أشدَّ غضبًا:

-هل علم أحدٌ بموتِه...؟

أجابه المعاون بثقةٍ:

-لا يا سيدي..

أشعل حازمٌ سيجارةً وأخذ منها نفسًا عميقًا ودار بكرسيِّه كما دار عقلُه بحثاً عن حلٍّ، بينما "سعيدٌ" ظلَّ واقفاً مكانه لا يفعل شيئاً سوى تجفيفِ عرقِه الذي يسيلُ على وجهِه بغزارةٍ حتى التفتَ إليه حازمٌ وقد لمعت في رأسِه فكرةٌ جعلته يبتسمُ على غيرِ عادته، نهض عن مقعدِه وتحرك نحو الخارجِ وأشار إلى "سعيد" بأن يتبعه.

بعد دقائقَ وصلَ إلى سيارتِه؛ فَفتحها وقال لمعاونِه:

- أخرجْ هذا الأحمقَ منها واتبعني به إلى المكتبِ لنرى ما وراءَه، نَفَذَّ الرجلُ ما أمره به، وحين دلفوا إلى المكتب أمره "حازمٌ" بتفتيشِ الرجلِ المكبلِ وإخراجِ ما يُثبتُ هويتَه، نَفَذَّ "سعيدٌ" الأمر في عجالةٍ، لكنَّه لم يعثر على شيءٍ

يدلُّ على شخصيته، مما جعله ينفخُ في ضيقٍ ويصفعُ الرجلَ بكفِّه الضخمِ على عنقِه وهو يسألُه بحدَّةٍ:

- أين أوراقُك...؟

ضربَ "حازمٌ" بقبضةِ يدِه المكتبَ وصرخَ في سعيدٍ:

-اهدأ يا سعيد.. لا أريدُ جثةً أخرى.. بل مصيبةٌ ثانيةٌ!

قال جملتَه ونهض عن مكتبه واقترب من الرجلِ، تفحَّصَ ملامحَه فاستشفَّ أنه غريبٌ عن دولتِه، شعرُه أشقرُ مسترسلٌ كأنه قُصاصاتٌ من ذهب، عيناه زرقاوانِ كبحرٍ غامضٍ يُغرقُ كلَّ ناظرٍ إليه، حاجباه مستقيمان كأنما خطَّهما قلمُ خطَّاطٍ بارعٍ، وجهٌ مستديرٌ كقرصِ العسلِ يحملُ ملامحَ أعجميةً فاتنةً، طويلَ القامة نحيلَ البدنِ أنيقَ المظهرِ.

طالَ تفحُّصِه له...! وحين أنهى ذلك وجَّهَ نظراتِه إلى "سعيد" وأمرَه أن يأخذَه إلى زنزانةِ "جمال" ويضعَه هناك ويأخذَ الآخرَ إلى سيارتِه ويعودَ إليه بالمحضرِ الذي حرَّرَه للقتيل...!

*****

حزمت حقائبَها وأمتِعتَها وعادت إلى البيت، عادت إلى مقبرتِها المريحةِ التي لا تُشبهُ الفنادقَ الفاخرةَ ذاتَ النجومِ الخمسةِ، لكن هذه المرةَ دخلتها دون تأفُّفٍ، دونَ وجعٍ، دون عقلٍ، لقد نسيَتْه في مكانٍ ما، على طاولةٍ أحدِهم دونَ أن تقولَ له -اعتن به، أو حتى تلفت نظرَه له- تركته ليصبحَ لها حقُّ العودةِ وإشباعِ نظرِها من سماءِ عينيه الصافيةِ والغرقِ في مياهِ محيطِها الزرقاءِ، فتحت البابَ ودخلت، صوتُ أنينِ "سعد" اخترقَ سمعَها، يااااه أخيرًا تذكَّرَتْ أنَّ هناك من يحتاجُها، نحرت خيالَها وتركته يهوى أرضاً كما رمت حقيبتَها وأسرعت إلى الداخل، رأته مستلقياً على الأرض، يصارعُ الموتَ ويبدو أنه سيُهزَمُ في معركته، ركضت نحوه، قبضت على ذراعِه وبصعوبةٍ بالغةٍ استطاعت أن تجعلَ جسدَه ينتصبُ متحاملاً على جسدِها أجلسته على

سريره، وهرولت نحوَ الخارجِ التقطت حقيبتَها، ثم أخرجت منها كيسَ الدواء البلاستيكيَّ، وعادت إليه، أعطته بعضَ أقراصِ المُسكِّنِ وتفحصتِ الدواءَ، ابتسمَ شيطانُ عقلِها حين رأت ثلاث حُقَنٍ، تذكرت مشهدَ الطفلِ الصغيرِ صاحبِ المغصِ ويدَ "أمجد" الناعمةَ حين أسكنت ألم الطفلِ وبكاءَه، تنهَّدت بعمقٍ وقبضت على واحدةٍ، واقتربت من "سعد" وبصوتٍ رقيقٍ مُغلَّفٍ بالحُزنِ قالت:

- نحتاج لمن يعطيك إياها، سأبحثُ في فاتورةِ الأدويةِ علَّني أجدُ وسيلةً للتواصلِ مع الصيدليةِ لأطلبَ من أحدِ عامليها الحضور.

أومأ "سعدٌ" برأسِه دونَ تعقيب، بينما هي قد طبعتِ الأرقامَ على هاتفِها وبدأتْ في الاتصال، وهي تُردِّدُ في نفسِها بتمنٍّ:

-يا ربِّ.. هو من يُجيبني..

جاءها الجواب هاتفاً:

-أجزخانة الدكتور "أمجد" مع حضرتك يا فندم..

حين سمعت صوته أدارت وجهَها للخارج حتى لا يلمحَهُ "سعد" ويرى السعادةَ التي قفزت من قلبِها فوقَ ملامحِها لترسمَ ابتسامةً عارمةً على شفتيها ثم تحدَّثت بخجلٍ:

-دكتور أمجد أنا "ليلى" أخذت دواءً لمريضٍ بالقلبِ من عندك منذ قليلٍ، ولكن وجدت بها بعض العقاقيرِ التي تحتاج للتحقين، ولا أعرف أحداً هنا، والمريضُ بحاجةٍ لواحدةٍ الآن، هل من الممكن أن تأتي إلينا لتسعفَه...؟

ظهرت على وجهِه ابتسامةٌ غريبةٌ كمن وجد كنزاً لأجدادِه مدفوناً منذ زمنٍ بعد عناءٍ، تاه في صوتِها الرقيقِ ونسِيَ أن يُعقِّبَ فتابعت حديثَها بنبرةٍ أكثرَ رقةٍ:

-دكتور.. المريضُ في حالةٍ يُرثَى لها؛ وتُحرِّكُ سواكنَ قلبِ الجاحد..

على الرغم من أنَّ "أمجد" لا يرتادُ منازلَ أحدٍ لهذا السببِ إلَّا أنه وافق وبدونِ تردُّدٍ، أعطته العنوانَ ولم يلبث حتى طرقَ البابَ، قلبُه هو من كان يُطرقُ كمن يقفُ على بابِ غرفتِه ينتظرُ أن يُفتَحَ له من الداخل.

فتحتْ "ليلى" البابَ وتلاقتِ النظراتُ من جديدٍ فأشاحَ "أمجد" بصرَه عنها كي لا يَغرقَ مُندفعاً إلى سؤالِها:

- أين المريضُ...؟

اصطحبّتْه إلى غرفةِ " سعد " شعر حينها أنه بينَه وبينَ الموتِ شعرةٌ واحدةٌ ويحاولُ جاهداً أن يتمسَّك بها ولا يفلتها من جسده، أخذ "أمجد" العقار وأفرغَ محتواهُ في السرنجة وأعطاها "لسعد" فحص قلبَه ونبضَه وكاملَ جسدِه المتهالكِ من ضرباتِ العمر، أمّا "ليلى" فقد نسيتْ "سعد" وعيناها الشغوفةُ لا ترى إلا "أمجد" وحركاتِه وكلماتِه، كانت تحسُدُ العليلَ على مرضِه، تمنَّتْ أن تكونَ مكانَه لتحظى بلمساتِ " أمجد" حتى انتهى من عملِه والتفتَ إليها قائلاً باهتمامٍ بالغٍ:

-سيدتي.. حالتُه حرجةٌ للغايةِ، فهو بحاجةٍ لعنايةِ ومتابعةِ الطبيب المختص..

رمقته بعينيها الدامعتين، وابتسم ثغرُها بحزنٍ ليوقعَ قلبَه أسيراً لهواها، ثم امتدت يدها لتشير له بأنْ يتفضَّلَ خارجاً إلى الصالون، سار أمامها وكانت تراقبُ خطواته بكلِّ دقَّةٍ، وفي كلِّ خطوةٍ يزدادُ نبضُ قلبِها خفقاناً إلى أن وقف واستدارَ بوجهِه ليسألها بجرأةٍ:

-وكم مجموعُ خطواتي...؟!

أجابته بضحكةٍ خجولةٍ:

-بعدد نبضاتي..

هكذا هو الحبُّ...! في لمحةِ بصرٍ إذا التقى عاشقان يخطفهما من واقعهما وإن كان جحيماً ليغمسَهما في نهرٍ من السعادةِ الممتدةِ إلى جنةِ الخيالِ المتوَّجَةِ بنظراتِ العيون الساحرة.

في هذه اللحظاتِ توقفَ الزمانُ عن الدوران وحلَّقتْ "ليلى" بروحِها في الخيال لتحتضن توأمها الضائعَ بين حنايا قلبه، طالت النظرات حتى قطعها نداءُ سعد:

-"ليلى" أين أنت...؟

تنحنحَ "أمجد" وتحدَّث بقلبِه قبل لسانه:

-اذهبي إليه.. وأنا سأعود غدًا لأعطيَه الحقنة الثانية.. حتمًا سأعود ...

*****

ليس ثَمَّةَ طريقةٌ لطيفةٌ للفشل، الجميعُ يفشلون لكن حتماً بدرجاتٍ متفاوتةٍ، لا يُعقل أن خوفنا من الفشل كخوفِنا من الموت مجرد فطرةٍ بشريةٍ، أو ردُّ فعلٍ طبيعيٍّ لشخصٍ سوف يخسر آماله أو حتى حياته في يومٍ ما؛ غير أنه لا يعرف عن هذا اليومِ شيئا.

هكذا تحدَّثَ العميدُ "مصطفى" مع نفسه بعد فشلِه في حلِّ معضلة الجاسوس بكلِّ الطرق الممكنةِ، المشروعةِ منها وغير المشروعة، لكن يبقى أمامه طريقةٌ واحدةٌ، هي الأكثر نجاحاً في التحقيقات الاستخباراتية، لكن هل ستنجح معه بعد فشل التنويم المغناطيسيّ وأيضاً جهاز كشف الكذب...!

إنَّ هذا الشخصَ لمعضلةُ العصر التي يجب حلُّها سريعاً، فكيف يُعقل أن يفشلَ جهازٌ مثل هذا في معرفة هوية شخصٍ ما، وهو الجهاز القادرُ على رصدِ تحركاتِ العدوِّ واصطيادِ حيتانه وقطع رقاب زبانيته...؟

-لابد أن أُباشر التحقيقِ معه بنفسي الآن..

نهض عن مقعده وتحرك بخطواتٍ واثقةٍ نحو غرفة التحقيقات، وَجدَه مُقيدًا فوق كُرسيه، ورأسُه تتدلَّى إلى صدرِه، صفعَه بكفِّه على مؤخرةِ رأسه ليستفيق ثم قبض على لحيته ودفعَ رأسه بقوةٍ فاصطدمت في المقعد وقال متهكمًا:

-أيها الوغدُ من أيِّ البلادِ أنت...؟

صمتٌ عتيقٌ نائمٌ على شفتيه لا توقظه تهكُّماتُ أشخاصٍ ولا لكماتُ أفرادِ ولا حتى صعقاتُ آلياتٍ، لا زال صامتاً يبدو أنه تمرَّن على الموتِ سابقاً، لا يخاف التعفن لأنه في مرحلة ما بعده، أو ربما أدمن قديمًا أفيون اليأس.

حين تعبَ العميدُ من الأسئلة التي لا جدوى منها، صاح بأعلى صوتِه منادياً على أحدِ رجاله، حضر على الفور وبيده عقارُ مصلِ الحقيقة "بنتوثال الصوديوم" حقن المتهم به واصطبر عليه حتى اختلط العقارُ بدمه ثم بدأ العميد في استجوابه:

-من أيِّ دولةٍ أنت...؟

تلوَّى برأسه مثل ثعبانٍ يحتضر وأجاب:

-من دولةٍ غابت شمسُ دنيتِها وحلَّ على أبنائها الظلام الأبديُّ.

رمقه العميدُ بنظرةٍ يائسةٍ وبنبرةٍ خشنةٍ، ثمَّ قذفه بسؤال آخر:

-أين موقع تلك الدولة...؟

بنبرةٍ جامدةٍ رد:

-مختفيةٌ عن الأنظار، مغموسةٌ في الشهوات، غارقٌ أصحابُها في المحرمات، ممحيةٌ من الذاكرة والذكريات..

إجابةٌ معقدةٌ متشعبةٌ اجتاحت العميدَ فجعلته يفقد هدوءَه ويركلُ الرجلَ بقدمِه ركلةً قويةً ليصطدمَ بكرسِّيه في الحائط، لم يكتف بذلك بل أقدم عليه وهو ملقىً أرضاً ودهسَ رأسه تحت حذائه كما يفعلُ بسيجارتِه وتهكَّم عليه قائلاً بِوَعِيدٍ:

-لا تظنَّنَّ أنك بهذا الهراءِ ستنجو، العميد "مصطفى طاهر" يجعل الشياطين تعترفُ بجرائمَ لم توسوسُ للحِقار أمثالك بها..

*****

استيقظت مفزوعةً مجردةً من صباحٍ هادئٍ، جاء مزدحماً بالفوضى مطليَّاً باليأس داخل رأسها، "ياه" كيف تحفر الهواءَ وتشقُّه، وتشرح رئةَ الكون المريض الممدد على سرير الرغبة.

رغبتُها الجامحةُ في الزوال، في التفتت إلى ذرَّاتٍ لا تُرى بالعين المجردة، متخليةً عن كلِّ شيءٍ يمُتُّ لأمسِها بصلةٍ، متنصلةً من الحياة.. لا تبصر من هذا الصباح سوى خيوطِ أشعَّةِ شمسٍ ذابلةٍ متعبةٍ مرهقةٍ حدَّ الشهقةِ التي تسبقُ الموتَ، مصابةً بملٍل مُزمنٍ، تتقيأُ علينا كلَّ يومٍ آثامَ البارحةَ وذنوبَ خلواتِنا وخطايا البشر.. لا تسمع سوى خطواتِ العويل وهو يركض تحت جلدِها حافياً أو ربما يأتيها عبر الباب على هيئة طَرَقاتٍ خفيفةٍ.. يصلُ بالكاد صوتُ دقاتِ الباب إلى أُذنها، ظنَّت أنها تتوهم أو ربما يشاكسها كابوسُ يقظةٍ مزعجٌ، فما اعتادت أن يزورَها أحدٌ يومَ عطلتِها وكذلك في ساعةٍ مبكرةٍ مثل هذي، لكن الطَرَقَاتِ تضاعفت، يبدو أنها حقيقيةٌ وليست وهمَاً كما اعتقدت، انتصبت بجسدِها وسارت نحو الباب، وقفت خلفَه، وبصوتٍ نصفِ حيٍّ سألت:

-من...؟

لا أحدَ يجيبُها، صاحت بكاملِ صوتِها:

-من على الباب...؟

كلمةٌ واحدةٌ خرجت متقطعةً من بين شفتَيِ الطارقِ:

-أنا..

يبدو أنها لم تتعرف على الصوتِ بعد، لكنها فتحت البابَ بخوفٍ فرأتْ أباها أمامها، أصابتْها صدمةٌ جعلتها تتمايلُ بجسدِها كأنها شاهدتْ أحدَاً عائداً من الموت، سألها بخجلٍ:

-أيمكنني الدخولُ...؟

نطقت بجمودٍ بعد أن التقطت أنفاسَها بقهرٍ كمن يلتقطُ أعقابَ الحياةِ التي داسها البشرُ في الليل وتدخّنُها بِنَهَمٍ، والرقّةُ قد فرَّتْ من فمِها هاربةً والعالمُ يُشكلُها من جديدٍ وحشاً بمخالبَ حادةٍ:

-تفضل..

دلفَ مطأطئَ الرأسِ، ثم جلس على أقربِ مقعدٍ في الردهة، ونظر أرضاً وقال متسائلاً:

- كيف حالُكِ يا ريم.. وكيف حالُ خالدٍ...؟!

أتمنى لكِ السعادة.. خالدٌ رجلٌ جيدٌ، ذو خلقٍ حميد..

أجابته بإيجازٍ كأنَّ الكلماتِ تُجرُّ من فمها جرَّاً:

-شكراً لك..

رمقها بنظراتٍ منكسرةٍ وتابع حديثه:

-ريم.. هل لازلتِ...

قاطعته قائلةً بتساؤلٍ:

-أرجوك لا أريدُ التحدثَ فيما مضى.. فقط لديَّ سؤالٌ واحدٌ.. هل كانت أمي...؟

لم تستطع أن تكملَ سؤالَها...! لقد ابتلعت كلماتِها الممزوجةَ بدموعِها الداخليةِ، أمَّا عيناها فظلتا صامدتين أمامه، داخلهما براميلُ دمعٍ مُخزَّنٍ، لكنها أبت أن يراها تبكي.

عقبَ جملتِها أسندَ رأسَه للمقعدِ وتنهد بحرقةٍ وأردفَ:

-نعم.. أُمُّكِ خائنةٌ، رغم كلِّ الذي قدمتُه ورغم كلِّ حبي الذي كنتُ أُكِنُّه لها باعتْ عِرضي وبحثت عن شهوةِ مراهقٍ من سنِّ أولادِها..

أطنانٌ من القهرِ تكوَّمت على قلبها، كادت أن تُوقفَ نبضاتِه، بينما لسانُها لازال صامدًا يُجبر الكلام أن يخرجَ في وجهِه بصمودٍ:

-أكمل.. أريد أن أعرفَ كلَّ شيءٍ..

دمعةٌ سالت من عينيه تبعتها تنهيدةٌ حارقةٌ أخفاهما بحديثِه:

-في يومٍ عدتُ من عملي مبكراً بعدما شعرت بالتعبِ حينها لم أستطع إخبارَ أمك، دخلت المنزلَ وكان هادئاً.. توجهتُ إلى المطبخ لعلّي أجدُها تعدُّ الطعامَ كعادتِها، لم يعثر بصري على شيءٍ سوى الجمادِ بينما أذناي سمعتُ بهما صوتَ ضحكاتٍ عاهرةٍ مصدرُها غرفةُ نومنِا، كاد قلبي أن يخرجَ من بين أضلعي، وعقلي في ذهولٍ، اقتربت من الغرفة وكنت أردِّدُ بقلبي -إنه التلفاز- ولحبي الشديد لأمك توهمتُ أنَّ كلَّ الأصوات النسائيةِ لا أسمعها إلا بصوتِ أمكِ.. فتحت باب الغرفةِ وكانت الصاعقةُ، شاهدتها وهي بين أحضانِ شابٍّ من سنِّ ولدها على سريري .

في تلك اللحظة لم أرَها عاهرةً؛ بل فتاةُ ليلٍ تمارسُ عملها القذر في بيتٍ للدعارةِ..

وقبل أن يكمل قاطعته صارخةٍ في وجهِه بغضبٍ جمٍّ:

-كفاك.. لا تتحدثْ عن أُمِّي بهذه الطريقة..

جفَّفَ دموعَه براحتِه وردَّ:

-وكيف تريدين لي أن أتحدثَ عن امرأةٍ كهذه...؟

ثم إنكِ تعرفين ما حدث جيدًا ولا تحتاجين لسماعِه مرةً أخرى، لكن لماذا اشترطت على خالدٍ أن يُتمِّمَ زواجك منه هنا في بيتِ من دنَّست شرفَ أبيك...؟

دموعُها المقيدةُ بالكبرياء داخل مقلتيها ثارت كحممٍ بركانيةٍ، صرخت وتهكمت وثارت عليه:

-وما الذي أتى بك إلى بيتِ من دنست شرفك، اخرج من بيتها الآن، أنا مثلُ أمي ولا أريد أن أراك مرةً أخرى، فأنت سببُ تعاستي هيا اخرج..

نهض دون حديثٍ وغادر المنزل، صفعت الباب خلفه وهرولت نحو غرفة النوم، حدقت في صورةِ أمِّها المعلقةِ على الجدار.. انتزعتها.. قبضت عليها

بكلتا يديها.. تأملت ملامحَها.. خلعت رداءَ الكبرياءِ الذي ارتدته أمام أبيها.. انفجرت في البكاء.. حدَّثتْ الصورةَ بألمٍ:

-لماذا فعلتِ هذا يا أمي.. لماذا...؟

لقد دمرتِ حياتَنا بفعلتِك وقتلتِ سعادتي بخيانتكِ.. أكرهك...!

وسطَ صيحاتِها رفعت يديها عالياً وألقتِ بالصورةَ أرضاً، تحطمت كقلبها، نظرت إليها وهي مهشمة، جَثّت على ركبتيها، انكفأت على صورةِ أُمِّها، ضمتها إلى صدرِها، وتحدَّثت برثاء:

-أمي.. أرجوكِ أطفئي حُرقةَ فؤادي وقولي إنه يكذب، وإنك طاهرةٌ عفيفةٌ.. لا يُعقلُ أن تكوني أنتِ هكذا أبداً، أُبغضُكِ منذ عرفت فعلتَكِ لكنني أتشبثُ بهذا المكانِ ولا أعرف لماذا...؟! روحكِ تحفُّني.. تُطمئنُني، ولا أعلم أنَّ هناك روحاً خبيثةً تفعل ذلك أبدًا، أجبيني ولا تقتليني بصمتك..

*****

# الفصل السادس

يومٌ مفاجئٌ شديدُ الحرارةِ أتى مصطحباً معه غباراً عاصفاً يخنق الأنفاسَ كأنه رياحُ الخماسين، شمسٌ حادةٌ، رمالٌ حارقةٌ وسرابٌ يخدع العطشانَ من الجان، أشواكٌ كأنهنَ رؤوسُ الشياطين، تحسبها قطعةً من جهنمَ، مساحاتٌ شاسعةٌ لا يوجد فيها وحشٌ يسيرُ ولا طائرٌ يطيرُ...! حتى العقاربُ والأفاعي تحنَّطتْ من شدةِ الحرارة، لا يوجد شيءٌ سوى قسوةِ البشر، فهذا المكانُ المناسبُ لغرسِ براعمِ القسوة ورعايةِ أبناء الموت، جهَّزوا المعسكراتِ وأعدُّوا المعداتِ لاستبدال القلوبِ بقطعةٍ من فولاذٍ من جحيم، وغسيلِ العقولِ بأفكارِ الحقدِ والكراهية، معسكرٌ يليق به اسمُ قاعِ السعير، خِيَمٌ باليةٌ لا تقي حرَّ النهار ولا صقيعَ الليل، شابَّان في مقتبل العمر مضطجعان على حُصرٍ من نخيلٍ متيبس، حالُهما كحال الجميع، وسائدُهم من أحذيتِهم التي تشهد على تدريباتِهم، فهي أقرب منها للتعذيب.

حان آذانُ العصر، ولا بد أن يستيقظوا من قيلولتهم، صوتٌ خشنٌ ينادي عليهم:

-هيا يا عبادَ الله.. هيا

إن تأخر أحدُهم في النهوض، يأتيه دلوٌ من رمالٍ ساخنةٍ كفيلٌ بأن يأخذَ النوم من عينيه لأخر الزمان...!

بعد تأدية الصلاةِ حضرهم المدربُ العسكريُّ، رأسُه ضخمٌ كرأس ثور، وقلبٌ صلبٌ كأسدٍ وحيد، يُطلق صافرةَ النزول لميدانِ التدريب، يتفقد طابور الشبابِ المصطفين كجذوعِ نخلٍ خاويةٍ لا روحَ فيها ولا حياة، الشمسُ دنتْ من الرؤوسِ فجعلت الأدمغةَ تغلي وشوتِ الوجوه، عيونُهم حمراءُ شبيهةٌ

بجمراتٍ من بركانٍ ثائر، أجسادُهم ماتَ الإحساسُ فيها، ينتظرُ كلٌّ واحدٍ منهم النزول إلى ساحةِ التدريب، هناك رجلٌ مُكَبَّلُ اليدين والقدمين يجلس على حجرين يشاهدُ الأمرَ من بعيد، يخرُّ العرقُ من جسدِه كينبوعٍ تفجَّرَ، بينما شفتاه قد جفَّتَا وتشققتا من شدة الظمأ، تدورُ عيناه بترقُّبٍ وكأنه يَعُدُّ الأكياسَ المليئةَ بالرمالِ التي تَحُدُّ المكانَ من كلِّ جانبٍ، تتوقف عند الإطارات المشتعلةِ فيتوهجُ قلبه خوفاً حين يرى جسداً يمرُقُ من خلالِها، يبعد ناظريه سريعاً حتى لا يسوءه رؤيةُ من تعثَّرَ في العبور فتنشب النارُ في جسده، يتوجه ببصره نحو الحفر المليئةِ بالأشواك والخوازيق الحادة، يقفز قلبُه من صدرِه مع كلِّ قفزةٍ لأحدهم، يغمض عينيه كي لا يصابَ بجُنةٍ من شدة الهلع، يعود بصرُه من جديدٍ فيشخصُ عند التلة الشامخة كَوَتَدٍ، ثم يُصعدُ به مع المجندين الذين يحملون على ظهورهم صخوراً ضخمةٍ، يهبط بسرعةٍ خشيةَ أن يفقدَ عقلَه الذي لا وجودَ له، يُلاحظ اقترابَ أحدِهم منه وبيده لوحتان؛ كلٌّ واحدةٍ منهما يتصدرها رجلٌ يرتدي زيّاً عسكريّاً مرسوماً بدقة، يرتجف بشدة كقطّةٍ مبللة، يضع الرجل بجواره اللوحتين ليصبحَ أوسطهما ثم يُطلق صفيراً يظل طنينُه عالقاً بذاكرةِ أذنيه، فيخرج عدة رجالٍ من الخيام يحملون الأسلحة النارية في أيديهم، يقفون صفاً واحداً بجوار بعضهم، يُصوِّبون أسلحتَهم تجاهه، يخترق فوهةَ البنادق بعينيه، ينتظر أن تخرجَ رصاصةٌ من إحداهنَّ لتقضي عليه، يُطلقون النيران بكثافةٍ، يُغربلون اللوحتين بحرفيةٍ تامة، اللوحةُ الوحيدةُ التي لم تُصبْها طلقةٌ ناريةٌ هو، لكنَّ قلبه أصابته كلُّ الرصاصات اللواتي خرجنَ من أسلحتهم، يصرخ بأعلى صوته :

-النجدةَ.. النجدةَ

*****

يفعلها المرض بها مجددًا، يغتسلُ بها في حوض أبديَّتِه ووجودِه الطافح عن أيِّ موجودٍ في حياتها، يغمس رأسَه الثقيلَ في جسدِها حدَّ التوغلِ يديرُها حسبما يشتهي، يؤسِّسُها كما لا ينبغي أن يفعل، يحفر التجاعيد في وجهِها بمخالبِه الحديدية الصدئة.. هكذا ستكبر قبل الأوان، ستشيخ لأنه يريد ذلك، لأنه يخسف بها إلى هاوية الإعاقة بعيداً عن خيوط العافية، وملاءات الصحة، بعيداً عن أحلامِها التي تأرجح سريرُ الحبِّ في قلبها، بعيداً عن انكماش المُقلِ واسترخاء العضلات بين ذراعَي حبيبها، بعيداً جداً أبعد من كابوسٍ يحتفل بانتصارِه في ذاكرةٍ قاصرٍ مرعوبة..

ها هي الآن ممددةٌ على سريرها في غرفةٍ كلُّ شيءٍ فيها يبكي، جدرانُها مهترئةٌ؛ فكم صدَّعها نواحُ الأقارب وهم يُودِّعون أرواح ذويهم، ستائرُها رغم بياضِ لونِها إلا أنَّها تبكي تضامناً مع حاضريها، سُرُرُها ممددةٌ بجوار بعضِها كتوابيتِ الموتى، أحدهما يحمل فوقَ ظهرِه جسد "أسماء" يُسمعُ أنينُها يُواسِي وحدتَها، تنفطر أضلاعُه الخشبية لبكاء قلبِها على غياب حبيبها، يتركُ معها سراً لا يعرفه غيرُها حتى "منال" التي تجلس بجوارِها وتشيِّعُ جسدَها بدموعٍ غزيرةٍ لا تعرف عنه شيئاً، لا تملك من الأمر سوى التخفيف عنها، تناديها بصوتٍ أشبه بنحيبِ أُمٍّ تودِّعُ جثمانَ طفلتها الوحيدة:

-أسماء..

فتحت أسماءُ عينيها المثقلتين بالدموع، وشفتاها ما رسمت إلا حروف اسمِه:

-جمال..

- أين هو...؟

أريد رؤية عينيه.. فهي بلسمُ جراحي وترياقُ شفائي..

-أين هو...؟ ألم يعد بعد...؟

ليته يعلمُ أنَّ قلبي العليلَ لا يشفى إلا برؤيته..

لم تتمالك منالُ دموعَها التي انسابت بغزارةٍ، وتحركت بجسدِها أكثر نحو الفراش ثم رفعت رأس أسماءَ ووضعتها على صدرها وضمتها إليها قائلة ببكاء:

-أسماء.. عزيزتي لماذا البكاء...؟ أرجوكِ كفِّي عنه فإنَّ حالتك الصحية لا تسمح أن ترهقي نفسكِ أكثر من ذلك، اليومَ كنا سنخسرُكِ إلى الأبد، أرجوكِ يا صديقتي كفِّي عن البكاء؛ فهو لا يُغيِّرُ في الأمر شيئاً، إلا أنه يُرهقك أكثر..

تدافعت نبراتُ أسماءَ الباكيةُ بالكلام وردت:

- منال أنت أكثرُ شخصٍ يشعرُ بمعاناتي واحتياجي له، هو روحي البعيدة التي فارقت جسدي ولن تعودَ إلا بعودتِه، نبضُ قلبي المتوقف، سعادتي الضائعة، بسمتي المسجونة بعينيه، فرحتي المرهونة بعودته..

كلماتها مزقت قلبَ صديقتِها التي صمتت لوهلةٍ تبحثُ عما يخففُ عنها من كلماتٍ وإن كانت كذباً، ودت أن تقولَ لها أنه أتى لزيارتها وهي غائبة عن الوعي ثم تذكَّرَ شيئاً هاماً؛ فذهب ليقضيَه ومن ثم يعود ليطمئنَّ عليها، حبكت الكذبة داخل رأسها جيداً وقبل أن تمررها عبر شفتيها، صاح فيها ضميرُها غاضباً ملقياً على نفسها سؤالًا:

-ماذا إن لَّم يحضر...؟ هل تودِّين قتلَ صديقتِك بكذبتك اللعينة هذه...؟! ألهذه الدرجةِ هناك أشياءُ أهمَّ من أرواحٍ تستنشقُ مثلنا الهواء...؟

تراجعتْ عن الفكرة وتحدثت بأمل:

سيعودُ وتلتقيان، ضعي يدك على قلبك واستفتيه كما كنت تفعلين في السابق، وتخبرينني بأنه سيطمئنك عليه، ويقول لك: إنه عائدٌ لا محالة، أنسيتِ تلك الليالي التي كنتِ تحدثينني فيها عن أحلامِك التي ستحققينها معه وعن عدد أطفالكما وعن أسمائهم، عن تفاصيلِ حياتك التي ستحيَيْنها معه، لم أتعوَّد عليك هكذا.. أنتِ أقوى من ذلك...!

بكت أسماء بكاءً مريراً، خرجت الكلماتُ من فمِها ممزوجةً بالحرقة، مطليةً بالخيبة، معلنةً عن هشاشتها:

-قوَّتي وجبروتي وصبري ما هم إلا كذبة صنعتها لكي أتجنَّبَ نظراتِ الشفقة، من منكم يا ترى كان يسمع أصواتَ النحيب في قلبي، ويرى ألسنةَ لهبِ الشوقِ التي تكويه بحرارتها...! من منكم يرى دموعي كلَّ ليلةٍ تُغرِقُ وسادتي وتقتلعُ مقلتيَّ من شدة الألم، من منكم يعلم أنه كان لا يستطيع أن يمضيَ يومُه قبل أن يطبع قبلةً على جبيني، الأمل الذي كنت أحيا لأجله دهسته عجلاتُ الطغيان، وسَوَّتْ بجسده الأرض وربما وضعوا عليه طبقاتٍ من أسمنت كي لا تتعرقلُ مسيرتُهم..

انقبض قلبُ منالٍ من حديثِها وصرخت باكيةً فيها:

-أرجوكِ يا أسماءُ اهدئي.. لا يجوزُ أن تفعلي بنفسك هذا، سيعود.. أقسمُ لك أنه سيعود

*****

كانت تجلسُ أمامَ التلفاز تشاهدُ أحد الأفلام الرومانسية، كلما التصقت شفتا البطل بشفَتَي حبيبتِه، زاد شوقُها وشغفُها لأن تتذوق طعم تلك القبلةِ من شفتَي أمجد، حتى أنها في بعض الأحيان كانت تجعل يديها تتحسس مفاتن جسدِها فتعلو أنفاسُها، ثم تُغلقُ عينيها وتغوصُ في علاقةٍ تطفئُ نارَ أنوثتِها الملتهبة، لقد استحوذت عليها الرغبةُ الجنسيةُ، ولولا أن "أمجد" يعاملها باحترامٍ ولا تريدُ أن تسقطَ من قلبِه لطلبته لنفسها:

- لكن ما حال المستلقي على فراشه...؟! ألَا يُطفئُ نارَ اشتياقي بجسده...! وبخيالي يكون فارسي الفاعل الحقيقي.!.

هكذا فكَّرتْ بعد أن أصبحَ جسدُها عبارةً عن كتلةِ نارٍ متوهجة، فَفزَّت عن مقعدِها كمن لدغتها حيةٌ وهرولت نحو غرفةِ النوم، وجدته مستلقياً على سريره متوسداً ذراعيه، غارقاً في شروده، اقتربت منه وداعبت أنفه بإصبعها، فانتبه لها وابتسم في وجهها، بادلته نفس الابتسامة بل زادتها بإثارته حين

عضَّتْ بنتَ شفتها السفلى بأسنانها ولعقتها بلسانها، ثم دارت بجسدها حول نفسها كراقصة باليه، سالَ لعابُه عليها، فبدأت بإزالة ملابسِها قطعةً تلوَ أُخرى ورمتها أرضاً، تحركت بدلالٍ نحوه فرمقها بنظراته الجائعة، فاعتلت السرير وجلست على ركبتيها وبحركات أصابِعها المثيرة دغدغت كاملَ جسدِه، لعلَّ ما كان نائماً فيه يستيقظ ليطفئَ نارَ الشهوةِ التي استحوذت عليها، روحُها العطشى تتوقُ للارتواء حدَّ التخمةِ من نشوة تظنها لذيذةً ومميزةً كونها ستكون بين أنياب ذكورةِ حبيبها، رغبتُها الشديدةُ لتحصلَ على هذا الشعورِ تتملك من تصرفاتها؛ بدأت بإزالة ما يعوقُ بينها وبين ملامسةَ جسدِه، انتزعت كاملَ لباسِه، فجموحها لا ينتظر أكثر، حاول بكلِّ طاقتِه أن يعطيَها ما تريد، حاولَ أن يتجاوبَ معها، بادلها القبلاتِ واللمساتِ، ولكنه شعر بالتعب الشديدِ، فعاملُ تقدمِ الزمنِ به له فيه أثرُه..! لهث كأنه خارجٌ من معركةٍ هو الطرف الخاسر فيها.

لم يستطع أن يكمل، خفض رأسه خجلاً واعتذر منها، لكنها لم تكترث لحالِه واستلقت فوقَه؛ فإرضاءُ غريزتِها هو ما يستحوذ عليها، لكن هيهات هيهات...! فما تحتاجه منه بزمام نائم نومة أهلِ الكهف، لن يوقظَه بركانُ مشاعرِها الملتهب، جاهدت بكلِّ أنوثتِها حتى أنها بدت كذئبةٍ مفترسةٍ تنهشُ لحم جيفةٍ، وحين فقدت الأملَ في استيقاظِه نهضت عن جسدِه، وتحركت نحوَ دولابِ ملابسها، أخرجت روباً أسودَ اللون وارتدته ثم خرجت من الغرفة، وألقت بجسدِها فوق المقعدِ الموازي للتلفازِ

*****

إصرارٌ غريبٌ تملك من العميد "مصطفى طاهر" على أن يكشفَ هويةَ سجينه، قضيتُه أصبحت الأهمَّ في حياته، ربما لو عُرِضَ عليه أن يصبح رئيسَ دولةٍ لرفض قبل فك معضلة هذا الغامض، وها هو الآن يقطع طرقات المبنى بخطواتٍ واسعةٍ وصولاً إلى غرفة التحقيقات، فتح البابَ ودخل مُشمِّراً عن ساعديه، مشعلاً سيجارتَه، اقترب من الأسيرِ وأمعنَ النظرَ في عينيه، قرأ غموضَهما، انتابه الفزع، ترجم نظراته على هيئةِ كلمات:

-"دعني أخبرك يا عزيزي أن الفشلَ هو الحقيقةُ الأكثرُ وضوحاً في العالم، وهذا ما يخيفك" لا بأس.. سأقنعُك أن الاعترافَ بالفشلِ أمرٌ طبيعيٌّ، وأنَّ الذين نجحوا في تطويعِ الحياةِ كانوا مجردَ واهمين مثلك، سيكتشفون في النهايةِ أنَّ النجاحَ وهمُ الضعفاء، أما الفشلُ فهو الأصلُ لأنه نابعٌ من وعيٍ كاملٍ واقتناعٍ تامٍّ أنَّ كلَّ ما في الحياةِ يقودُ للفشلِ...!

ثورةٌ عارمةٌ من الغضبِ اجتاحت ملامحَ العميدِ، جعلته يقبضُ على شعرِ المتهم، ويقترب بوجهِه منه ويقول بتحدٍ:

-أُحييك لقد استطعتَ ببراعةٍ تامةٍ أن تخدعَ أجهزتَنا في الكشفِ عن هويتِك، يبدو أنك تدربتَ على يدِ أُناسٍ من كوكبٍ آخر، لم يصلنا إعجازُهم العلميُّ بعدُ، لك الجولةُ الأولى وقد اجتزتَها ببراعةٍ، ولي الجولةُ الثانيةُ وأعتقد أنها الأخيرةُ كي أنهيَ بها تلك اللعبة القذرة رافعاً رايةَ النصرِ التي ما اعتدتُ أبداً أن يرفعَها غيري..

ألقى كلماته في وجه أسيرِه ثم قهقَهَ بصوتٍ عالٍ، وقبضَ على شفتيه بأناملِه وتابع حديثه:

-لن تخضعَ لبصمةِ الصوتِ فقط؛ بل سأجعلُ هاتين الشفتين المتقشفتين شاهدتين عليك.

أثناءَ حديثِه فُتح البابُ ودخلَ أربعةُ رجالٍ، ابتعدَ العميدُ عنه ووقف يتابع المشهد، تقدَّم الأولُ وبيدِه جهازٌ للحبرِ السرِّي وورقةٌ شفافةٌ، وضع الورقةَ على فمِ المتهمِ ومن فوقِها الجهازُ، ثم ضغط على شفتيه، طبعت بصمة

شفاهه على الورقة، أومأ العميدُ برأسِه في رضاً تامٍّ، ابتعد الرجلُ عنه وتقدَّمَ نحوه آخر وبيده جهازٌ صغيرٌ يُشبه سماعةَ الهاتف، وضعها فوقَ صيوان أذنيه وضغط على زرٍّ صغيرٍ بها، أضاءت والتقطت التجويفات الداخلية لأذنيه، ابتسم العميدُ ونطقَ بصوتٍ مرتفعٍ:

-عظيم.. عظيم..

تقدم ثالثٌ وبحركةٍ مباغتةٍ اقتلعَ بعضَ الشعيراتِ من رأسِ الجاسوس ووضعها في كيسٍ بلاستيكيٍّ ثم أعطاها لرابعِهم، انصرفَ الرجالُ وخلفَهم العميدُ "مصطفى طاهر" وما إن خرجوا من الغرفةِ حتى استوقفهم قائلاً بحزم:

-أريد النتائجَ بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ، وكذلك تقريرَ الإنتربول الدوليَّ..

بصوتِ رجلٍ واحدٍ هتفَ الجميعُ:

-تحتَ أمرك يا سيدي..

# الفصل السابع

بعد منتصفِ الليلِ تمددت ريمُ على سريرها، تحسستْ قلبَها وشعورَها المرعبَ؛ هذا الذي لا يُفسِّرُ، لا يؤول تعقيده بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ، تتنفسُ الظلام، تترقَّبُ الفجرَ والعتمةَ تعضُّ قلبَها بنهمٍ، وحزنُها منشرحُ الصدرِ يلوك ما تبقى من لحم خيباتها، تُحدِّقُ في السقفِ تتوه في العدم، تبكي تارةً وتضحك أخرى كالمخمورة، لا شيءَ بداخلِها الآن.. لا شيء..

هذا الوعيُ ينفجرُ من رأسِها حدَّ أنها تشعرُ بتنمُّلٍ في داخل أجوفة رأسها، تستعطفُ أطرافَها الخامدةَ دون فائدةٍ.. إنها تعي كلَّ شيءٍ، وتلك مصيبتها العظمى..

الأصدقاءُ ورقتُها الخاسرةُ وهي تراهنُ على الاستمرارِ وحيدةً.. تفقدُهم واحدةً تلو أخرى..

يهطلون من الذاكرةِ غزيراً..

فيما تكابدُ المشقاتِ، وتعصرُ غيمةَ عمرِها ليسقطَ الجميعُ بعد فضيحةِ أُمِّها...! حتى الأقاربُ في نظرها أصبحوا أعداءً في حفلةٍ تنكريةٍ، يرتدون بشاشتَهم عند كلِّ مناسبةٍ ويتناوبون على طعنِها من خلف الستار..

الحبُّ.. مشروعُ هزيمةٍ كبرى، ثقبٌ يستقرُّ في قلبها يتوهجُ كلَّما لمسته، تخاف أن يطفأئها مثلما تطفئُ مصباحَ غرفتِها، بينما تشعرُ عائلتُها أنها رئتها المريضةُ، كبدَها الذي تتقاسمه رفقةُ ذئابٍ شاردةٍ، كتفَها المتعبةَ دائما..

الزواج سريرٌ من شوك، باسطاً ذراعيه لمعانقتها يقترب منها، يهرول نحوها، يقطع الأميال، سيستغرق يومين حتى يصلَ، هل سيقضي على شوكِهِ

ويعانقُها عناقاً أبديّاً دون ألمٍ...؟! أم أنه سيحتفظ بمخالبِه، يغرس كلَّ ليلةٍ في قلبها واحداً...؟!

ها هي الآنَ تجلس بعقلِها على أُرجوحةِ اليائسين من الحياة، تنظر لفستانِها الأبيضِ، تراه كفناً ذا أكمامٍ ينتظر منها الارتداء، تنتفض، تصرخ وتصيح، تنهض مهرولةً نحوه، تقبضُ عليه متلبساً بالزينة، مستعداً لحفلِ زفافها، كلُّ شيءٍ حولها كان مستعداً إلا قلبها. قلبُها المفجوعُ من ضربات القدر كلقيطة رمتها رياحُ القسوةِ في منفى الوحدة، الفستانُ يراودُها عن نفسِها، طاوعته ثم تقدمت نحو المرآةِ لترى نفسَها وهي ميتةُ القلب تزفُّها شياطينُ الحسرة، بكت عيناها بغزارةٍ مثل سماءٍ أمطرت في نهارِ صيفِ شديدِ الحرارة، بكت حين تذكرت حديثَها مع أُمِّها:

-عندما تتزوجين يا بنيتي سترتدين فستانَ زفافك بيدي، سأكون معك بكلِّ لحظة، ستصبحين أجمل عروسٍ ارتدت فستاناً أبيضَ، سأزفُّكِ بنفسي لزوجِكِ المحظوظِ بفتاةٍ مثلك.

آه.. حبيبتي كم أنا في شوقٍ لأراكِ عروساً في يومِ فرحك.. أتعلمين يا صغيرتي...؟ في ذلك اليومِ سأكونُ حزينةً لفراقك...! لكنني حتماً سأفرحُ كثيراً لفرحك.

فستانُها تبلَّلَ من الدموع وقلبُها نطق بلهفةٍ:

- أين أنتِ الآن يا أُمِّي...؟

لماذا كذبتِ...؟ لا أجدك بجانبي ولم تُنفِّذي أيَّ وعدٍ من وعودك لي.. لماذا يا أمي.. لماذا...؟

كسرتِ قلبي، دمرت سعادتي، حطمتِ كلَّ شيءٍ ورحلتِ.. بالله عليكِ أخبرِيني

ما الذي جنيناه لتكونَ أُمُّنَا أمَّاً مثلك

ما ذنبي أنا...؟ لِمَ تتوشحُ حياتي بالحزنِ وأكونُ وحيدةً في يوم زفافي...؟

ما ذنبي.. أن تتبدَّلَ ضحكاتي لدمعاتٍ ونبضاتِ قلبي تتحولُ لحسراتٍ وآهاتِ...؟

لماذا...؟

أخبريني.. حتى أنا لا أعرف لِمَ أتمسَّكُ بتلك الشقةِ التي تذكرني بك دائماً...؟! لا أعرف رغم أنني أكرهك وأكره كلَّ شيءٍ يُذكِّرُني بك...!

هل لأنك ملعونةٌ يا أمي ولعنتُك حلَّتْ عليَّ لتدمرَ حياتي المستقبليةَ، كما دمرت حياتي الماضيةَ، باللهِ عليك تحدثي معي؛ أم أنه لا يوجدُ لديكِ جوابٌ سوى أنك تفسدين عليَّ حياتي...؟

قلتِ لي: إنك لن تكوني أنانيَةً في حزنِكِ على فراقي؛ لكنك كنت أكثرَ شخصٍ أنانياً في هذه الدنيا...! فقط من أجلِ شهوةٍ لِلَحظاتٍ...!

انهارت في البكاء ولا زالت لا تعرف ماذا تريد...؟ هنا مربطُ الألم...! هذا ما يُمزقها دائماً

ينقصها الكثيرَ لتفهمَ.. لتفهمَ أنَّ هذا العالمَ المعقَّدَ يستحيلُ فهمه..

لكنها في هذه اللحظات أدركت أنها ستموتُ تاركةً خلفها كلَّ هذا الغموضِ

*****

الحربُ خدعةٌ والخدعةُ دهاءٌ لابد أن يمتازَ به القائدُ وكذلك جنودُه، فالزمن لا يعطي فرصةً ثانيةً للخاسرين الأغبياء، وكلٌّ منكم يوماً ما سيصبح قائداً..

هكذا خطبَ المدربُ في جنودِه وحثَّهم على المقاتلة قبل أن يبدأوا تدريبهم اليوميَّ، مما جعل صدورهم تنتفخ من فرط الحماس وهتافاتهم تعانقُ السماءَ تضرب السحب بقوةٍ فتبكِي وتسقطُ دموعُها على هيئة قطراتٍ باردةٍ تزيدُ من حماسهم..

في هذه الأثناءِ قَدِمَ نائبُ الزعيم فاشرأبت إليه الأعناق، وقف يراقب التدريبات من بعيد، كانت عيناه مُسلَّطتين على "أحمد" الوحيدِ الذي وضعوا له أحجاراً وحصىً مثل قبضة اليد وألقَوا بينهم بعض الأحجارِ المرجانيةِ الحادةِ وتركوه يسيرُ فوقهم بقدميه العاريتين، اجتاز الاختبار دون أن يلحظَ أحدٌ كمَّ الألمَ الذي تعرض له ، حين الانتهاء نظرَ الرجلُ لقدميه فلم يجد أثراً للدماءِ تنزف منها، أشار للقائدِ بيديه أن يجعله يزحف عليهما لِقرابةِ الخمسين متراً دون أن يستخدم ذراعيه، اجتاز الاختبارَ بنجاحٍ فائقٍ جعل الجميع ينبهرون به، ثم التحق بزملائه الذين يلكمون الأشجارَ وعلبَ الصفيح الصلبة بأيديهم ثم يلكمون كومات الملح ويدهم تنزف كثيرًا، حين الانتهاء من التدريبات انصرف نائب الزعيم وهو يشعر بالفخر لما رآه من بسالةِ رجالِه وبالأخصِّ ما رآه من "أحمد"..

وصل إلى الزعيمِ ألقى عليه السلامَ ثم سرد له ما رآه، فابتسم الرجلُ ونهضَ عن كرسيِّه وجلس قُبالتَه، ربت على ركبتيه ونطق:

-هذا الفتى سيكون له شأن عظيم معنا، والحمدُ للهِ أننا تأكدنا أنه ليس له علاقة بأعدائنا أو أنه مدسوسٌ منهم، ولكنْ ما يشغلُني الآن من هو...؟ ليس لدي معلومةٌ واحدةٌ عنه...!

ابتسم النائبُ ابتسامةً خفيفة ثم ردَّ بسؤال:

-لازلت قلقاً منه سيدي...؟

نهض الزعيمُ ولفَّ حولَ نائبه فاضطر الثاني للنهوضِ والالتفاتِ إليه والإصغاء لصمتِه حتى تحدث:

-لابدَ له من اختبارٍ على أرض الواقع وهذه مجازفة لابد منها..

أومأ النائبُ برأسه تفهماً ثم تساءل:

-فيم تُفكِّرُ سيدي...؟

تحرك الزعيمُ نحو مكتبِهِ وأخرج من الدرجِ صورةً فوتوغرافية لأحد الرجال ثم نقرَ عليها بأصبعِه ففهم النائبُ ما يريدُ وهزَّ رأسَه عدَّةَ مراتٍ فأشار له الزعيمُ بالجلوس وأردف:

-سفيان..

الضعفاءُ لا يستحقون التقديرَ في هذا العالم، هم فقط مثلُ العبيد وجودُهم يُشعِرُنا بالسيادة؛ فلا تهتمَّ لأمرهم ولا تأخذْك بهم شفقةٌ ولا رحمةٌ؛ سأُسديك نصيحةً - لكن احذر أن تطبِّقَها على صاحبها..!- ما دام هناك مأمورٌ فلا شيءَ سيقف أمامَك هو مثلُ مستأجرِ منزلٍ، اطرق بابَه فإن أبَى أن يفتح لك، فابحث عن صاحبِ المنزل؛ فإنَّ لديه مفتاحاً، فخُذْهُ وادخل على الأوَّلِ وشُقَّه نصفين دونَ رحمةٍ، وإن تعثَّرَ عليك الوصولُ فلا تيأس، هناك صغيرٌ حاقدٌ يعمل تحت إمرةِ المستأجر سيعطيك مفتاحَ الباب الخلفيِّ آملاً في أن تطيح به ليأخذ مكانه، اقتله وادخل المنزل اطرد كلَّ مَن فيه ولا تُغلق الباب آبداً فغلقك له بداية هلاكِك، دعه مفتوحاً وعيناك حارسه، وسلاحك في يدك ما إن اقترب أحدُهم؛ فاطلق عليه الرصاص دون تردٍ ..

تفهَّمَ سيفانُ النصيحةَ ثم نهض عن مقعده واستأذن بالانصراف؛ فأذن له الرجلُ وقبل خروجه استوقفه قائلا:

-الحذرَ يا سفيان، وأيُّ خطأ مقصودٍ أو غيرِ مقصودٍ من أحمد اقتلوه..

*****

أبوابٌ عمياءُ وجدرانٌ صماءُ، رائحةُ المكان تخنقُ الأنفاس، رطوبتُه تتسللُ إلى الأبدان تنخر العظامَ كسوسٍ ينخر جذع شجرةٍ متيبسةٍ، ورجلٌ متكومٌ على نفسِه في زاويةِ الزنزانة، كجزة من صوف متعفنة رمتها الرياح، بعد أن دارت بها نصفَ البراري ألقتها هنا بين جرذان السجن وديدان العفن؛ كاد يفقد صوابه من هول ما لَقِيَه في المكان حوله.

جسدُه يرتجفُ، قلبُه يصرخ كالمجنون، عقلُه في صدمةٍ، يقبض على عنقِه كمن يخنق نفسه، تؤلمه كثيراً، عيناه تشخصان، يحاول أن يصرخ، صوته مخنوقٌ مُختفٍ وكأنَّ الهلعَ أكلَ لسانه، يُغمض عينيه المتجمدتين، يصوغُ كلماتِه المخنوقةَ بحنجرتِه، لا يهتمُّ لمن يسمعه...! المهم أنَّ قلبَه يسمعه، يحاوره ببكاء:

-أتسمعني يا قلبيَ المنهكُ.. قل لي أين أنت...؟! أخبرني لماذا أنا هنا.. ما الذي فعلته..؟!

المكانُ هنا مخيفٌ حدَّ الهلعِ، مقرفٌ لدرجةِ الغثيان، الرطوبةُ نخرت عظامي وجمَّدت الدماءَ في عروقي، الهلعُ وأدَ بناتِ أفكاري ودفنها بتراب الفزع، أجبني ماذا أصابك.. أصبحتَ أصمَّ مثل صاحبِك أم أنّ النبض بك توقف...! أم أنك لا تسمعني.. أجب.. ليتك تقف وتريحني من حياتي المظلمةِ.. قف واجعلهم يَجرُّونني خلفهم كما فعلوا بمن سبقني هنا.

تحدث كثيراً حتى بلغ الغضبُ الحلقومَ، ثم نهض بكلِّ قوتِه المكبوتة منذُ سنين، توجَّه نحو باب زنزانته، أمسك القضبان، حاول أن يخلعه، دفعه بكتفِه فسقط أرضاً، نهض من جديد، فتح فمَهُ وصرخ دونَ صوتٍ، الجنونُ استحوذ على دماغه، ضربها بالجدار مراراً وتكراراً إلى أن فقد صوابَه وأُغمِي عليه.

مرت ساعتان.. ثم فُتحِتْ الزنزانة ودخل اللواء "فاروق الجيزاوي" وخلفه معاون المباحث "سعيد" ولازالَ الرجل ملقىً على الأرض يصارع الجنون، نظر إليه " فاروق" نظرةً حادةً ثم وجَّه نظرَهُ لسعيدٍ الذي تحرَّك على الفور نحو الرجلِ وركلَه في بطنِه ركلةً قويةً ثم تهكَّم عليه قائلاً:

-انهض يا حقير..

تحاملَ الرجلُ على جسدِه ونهض، وقف أمامَ اللواء ورمقه بنظراتٍ مستنكرةٍ فسأله اللواءُ عن اسمه، تابع صمته كأنه لم يسمعه فتدافعَ سعيدٌ بالكلام مُجيباً:

-جمال عز الدين - المتهم في قضيةِ قتلِ العقيد مدحت السيوفي-

اتسعت مقلتا اللواء فاروق في دهشةٍ وتساءلَ:

- مدحت السيوفي الذي قُتلَ منذُ عامٍ مضى...؟

- نعم يا فندم، لقد استطعنا فك لغز القضية بعد مرورِ عدةِ أشهرٍ من غلقها دون متهمٍ، وتبين لنا أن هذا الحيوانَ هو القاتلُ..

جاءه هذا الجواب من خلفِه، كان الصوتُ للمقدمِ حازم الذي لحِقَ بهما عندما أخبره أحدُ معاونيه أنَّ اللواءَ في القسم ويودُّ رؤيةَ السجين المنعزل

*****

فتحَ دولابَ ملابسه، أخرج بذلته السوداءَ وارتداها ثم توجه نحو المرآةِ وخلفه "ليلى" تحمل في يدها رابطةَ عنقه، طوَّقته بها وربطتها ثم احتضنت رقبته بيديها ونظرت في عينيه قائلةً بغزلٍ:

-تبدو عريساً لهذا الليلة، لكن احذر الفتيات الساقطات..

قهقه بمرحٍ وردَّ عليها ممازحاً:

-ساقطات...! يا بنت ال.....

قاطعته بدلالٍ:

-أكمل بنت ال.....

تابع قهقهته وأضاف بحبٍّ:

-بنت قلبي، وشيطانتي الصغير..

وقفت على أطراف أصابع قدميها حتى استطاعت أن تطبع قبلةً على خدِّه الأيمن وقالت بسعادةٍ:

-هيا كي لا يفوتَك العرس، ولكن عدني ألا تتأخر..

ضمَّها إلى صدره وهتف متسائلاً:

-ألا زلتِ ترفضين مرافقتي إلى هناك...؟

ابتعدت عنه ثم جلست على طرفِ الفراشِ وأطرقتْ بِبصرها أرضاً وقالت بامتعاضٍ:

-اتركني على راحتي.. لا أستطيع أن أضع عينيَّ في عينيها...! قل لها إني مريضةٌ أو لا تقل؛ فهي لن تسأل عني ولا تودُّ رؤيتي..

لم يُعلّقْ على حديثها؛ بل تركها وتحرك نحو الخارج، وما إن أغلق بابَ الشقة حتى قفزت في الهواءِ بسعادةٍ بالغةٍ وتوجهت نحو التلفاز، قلبت قنواته فلم تعثر على شيءٍ يجذبها أو يملأُ فراغها؛ فأغلقته وجلست على الأريكة واضعةً قدماً فوق أخرى، مُسندةً رأسها على المقعد، محدقةً في السقف، شاردةً بخيالِها في رجلٍ استحوذ عليها منذ الوهلة الأولى، غاصت في بحور الرومانسية، واصطادت حيتانَ اللذةِ ووضعتها في حجرها، حتي لاحت لها صورته من بعيد حاولت أن تقبلها فحملتها رياحُ النصيب على ظهرها وحلَّقْت بها في فضاءِ المستحيل مما جعل خيالَها يصطدم بسقف الواقع فيسقطُ مغشيًّاً عليه أمام عينيها، لكنها لن تستسلم..! بل ستجبرُ الواقع أن يمنحها إياه حتى لو اضطرت لقتل المستحيل ذاتِه؛ هكذا حدثتها نفسُها وحين اقتنعت ضحكت بميوعة كعاهرةٍ في ملهىً ليليٍّ، ثم نهضت عن مقعدِها وهرولت نحو غرفة النوم، وارتدت قميصَ نومٍ أحمر اللون حريريًّاً، لا يكاد يستر شبراً من جسدها، استلقت على السرير، أغمضت عينيها، وبدأت برقصةِ الفراش المثيرة، كان أمجد معها بكل حركة، كانت تشعر بطعم قبلاتِه على شفتيها، ترتشف منها رحيقاً مُسكِراً، يزيد من نار شبقِها، أنفاسُه تمتزجُ بأنفاسِها الحارَّةِ وجسدُه ملتصقٌ بجسدِها الحار، تعالت تأوهاتُها، فهي الحقيقة الوحيدةُ في مشهدها، ضحكاتها الشهوانيةُ تضوي في أرجاء المنزل، لكن سرعانَ ما توقفت عن كلِّ شيءٍ وتَسَمَّرَ جسدُها كتمثالٍ خشبيٍّ لفنانٍ مبتدئٍ، ثم تحدثت بصوتٍ عالٍ سمعه إبليسُ فضحك:

-كل هذا لا يساوي عندي نظرةً من عينيه، وجاء وقتها وربما أخذت ما أريد وكنت الضحية..

عاودت الضحكَ مرةً أخرى وقبضت على هاتفِها، ثم اتصلت على أمجد، جاءها الرد سريعاً:

-أهلاً ليلى..

استعارت صوتَ امرأةٍ تنازعُ الموتَ وردَّت بوهنٍ:

-أمجد أدركني يا أمجد....

ثم ارتفعت أنفاسُها وكأنها في الرمقِ الأخير.

لم يستطع السيطرةَ على مشاعرِه وكذلك نبرةِ صوتِه التي ارتفعت بشجون:

-ليلى ما بكِ...؟ ليلى..

كانت تستمتعُ بنبراتِ صوتِه التي تزيد من شغفِها، بل وكانت تبتسم في نفسِها ابتسامةَ الذئب قبل اصطيادِ فريسته.

حين فقد الأمل في الردِّ عليه أغلق الخطَّ، ومن ثمَّ أغلق الصيدليةَ وركضَ نحو بيتها؛ في غضونِ دقائقَ كان قد وصلَ إلى البنايةِ، سمعت هي وقعَ أقدامِه على الدرجِ ففتحت البابَ وألقت بنفسِها أرضاً، وصل إلى الشقة فَفُوجئ ببابها المفتوح، طرقه وهو ينادي باسم صاحبه:

-أستاذ سعد..

مرق ببصرِه داخلَ الشقة فلمحَها ملقاةً على الأرض، هرول نحوها وحملها بين ذراعيه دون النظرِ لملابسِها المثيرةِ، ودخل غرفة "سعد" ووضعها على الفراشِ برفقٍ، وبينما كانت بين ذراعيه تمنَّتْ ألَّا ينتهيَ الطريقُ ويصبحَ طولُه ما بين المشرقِ والمغرب، ولكن ليس كلُّ ما يريدُه المرءُ يدركه...! جس نبضَها فشعرَ أنه غيرُ منتظمٍ، وضع يده على جبينِها يتحسَّسُه فلسعته حرارته، انقبض قلبُه خوفاً عليها، نهض عن الفراشِ وركض نحو الردهةِ يبحث عن المطبخِ، تلفَّت يميناً ويساراً حتى اهتدى، أحضرَ زجاجةَ ماءٍ من الثلاجة وقماشةً بيضاءَ ثم سكبَ عليها الماءَ ووضعها فوق جبين ليلى فانتفضت وفتحت عينيها وتحدَّثت بتلعثمٍ مصطنعٍ:

-أمجد..

نظر في عينيها وقال بقلقٍ بالغٍ:

-حمداً لله على سلامتِك، يجب أن تزوري الطبيبَ غداً وتطمئنيني...! بالله عليك فحرارتُك مرتفعةٌ جداً وكذلك ضغطُك منخفضٌ..

أومأت برأسِها موافقةً فهي لا تريد أن تضيِّعَ الوقتَ بكلماتها، بل أن تربت على يده بيدها وتنظرَ في عينيه علَّ نظراتِها المثيرةَ تدفعُه نحو الخطيئة، لكنه تصبَّبَ عرقاً وشعر بالخجل الشديدِ حين تذكَّرَ عودة "سعد" وسأل نفسَه بذهول:

-ماذا لو دخل علينا ووجدنا هكذا...؟!

لم يُمهلْ نفسَه زمناً للإجابةِ حتَّى هَبَّ واقفاً وهرول نحو الخارج وهو يقول بخجل:

-لا تنسي أن تطمئنيني عليك..

شيعته بنظراتها حتى خرجَ من الشقة ثم نهضت عن فراشها وبدأت تُقبِّلُ كلَّ موضعٍ لمسته يدُه في جسدِها وتقول بتحدٍ:

-لكَ الأولى ولي الثانية..

# الفصل الثامن

ألقى بنظارتِه على الطاولةِ وفتح عينيه في ذهولٍ تام، رمق الجهاز أمامَه بغضبٍ وأخذَ يعبثُ بأزراره كمن به مسٌّ، لكنَّ النتيجةَ واحدةٌ.. لا شيء...! نهض عن مقعده وتحرَّك نحو شُرفةِ النافذة، وقفت بناتُ أفكارِه مشلولةً بينما عيناه كانت تقرأُ وجوهَ المارَّةِ في الشوارع، لا يعرفُ ما العملُ وماذا حدث، ليصبح أمام أمرٍ صعبٍ كهذا، ليس هناك أملٌ إلا أن يكونَ زملاؤه قد توصَّلوا لشيءٍ يرفعُ عنه الحرجَ، ويُعفيه من تهكُّماتِ العميدِ مصطفى.

عاد إلى مكتبِهِ ورفع سماعةَ الهاتف.. ضغط على زرِّ الاتصالِ وانتظر الردَّ وهو يجففُ عرقَه بمحرمةٍ ورقيةٍ، لحظاتٌ مرَّتْ ثقيلةً حتى أتاه صوتٌ من الجهةِ الأخرى فتحدث بلهفةٍ:

-معك دكتور محسن....

لم تكن نبرةُ صوتِ الطرفِ الأخرِ أقلَّ توتُّراً من نبرةِ الدكتور محسن بل كانت الأكثر صدمةً على الإطلاق:

-أسمعُك جيداً دكتور محسن، وأتمنى ألا تكونَ النتيجةُ واحدةً لديك أيضا...!

كادت عينا دكتور محسن أن تقفزا من مِحجريهما وهو يقول بذهولٍ:

-ماذا تقصدُ دكتور صفوت...؟! هل كانت النتيجةُ معك...

قاطعه دكتور صفوت قائلاً بأسفٍ:

- نعم.. ولست وحدي بل الأمرُ كذلك مع دكتور شريف أيضاً.. وقد أصبحتُ على يقينٍ من أنك أنت أيضاً قد صُدمتَ بنفس النتيجةِ..

-هذه كارثةٌ يا دكتور صفوت.. دعك من أنَّ هذه المعجزةَ لا اعتراف بها في الطبِّ الحديث، دعك من كلِّ النظرياتِ والتجاربِ لكن.. لكن ماذا سنقول لسيادةِ اللواء مصطفى...؟! أنت تعرفه جيِّدًا.. لن يرحمَنا.. سيعتبرُ هذا خطأُنا..

ثوانٍ غابَ فيها الحديثُ، ثم عاد بنبرةِ الدكتور صفوت حين قال بهدوءٍ تامٍّ:

-استمع إليّ جيداَ يا دكتور محسن.. لقد فكرنا في الأمرِ مليَّاً، ولا سبيل لنا سوى المواجهةِ، ولابدَّ أن نذهبَ ثلاثتُنا إليه....

لم يُفرزْ عقلُ دكتور محسن أيَّ حلولٍ أخرى، فوافق على تخوُّفٍ ممَّا سيفعله اللواءُ مصطفى.

اجتمع الثلاثةُ وبعد أقلِّ من نصفِ ساعةٍ كانوا في انتظارِ اللواءِ في مكتبِه وكُلٌّ منهم يقبضُ على حُزمةٍ من الأوراقِ والتقارير..

دقائقُ قليلةٌ مرت عليهم كالدهرِ الطويلِ حتى أتى اللواءُ مصطفى ومعه أحدُ الضباط.. استقبلهم بلهفةٍ واضحةٍ على أملٍ أن يروُوا ظمأَه، لكنهم ما إن بدأُوا بشرح النتائجِ التي توصَّلوا إليها حتى قطَّبَ اللواءُ بين حاجِبيهِ، وانتفخت عروقُه غضباً وصاح فيهم وهو يضربُ المكتبَ بقبضةِ يدِه:

-أيُّ هراءٍ هذا...! يمكنني استيعابُ كونِ ذلك الوغدِ قد تمرَّنَ بما يكفي كي تُخفِقَ معه أجهزةُ كشف الكذِبِ والتنويمِ المغناطيسي، ولكن كيفَ يمكنُ أن تفشل معه كلُّ اختباراتِنا بهذه الطريقة...؟!

صمت وهو يتفحَّصُهم بغضبٍ، فقد بات الأمرُ صعباً عليهم، بل شِبهَ مستحيلٍ أن يكشفوا ماهيةَ هذا الرجلِ، لو طُلب منهم أن يُمرِّروا كوكبَ زُحلٍ عبرَ زقاقٍ ضيِّقٍ لكانَ أسهلَ، خيوطٌ من صمتٍ نسجتْ نفسَها حولَ أفواهَهم حتى قطعها الدكتور صفوت وكان أكثرَهم هدوءاً:

-سيادة اللواء.. نحن فعلنا كلَّ ما بوسعِنا، ولكنَّ النتائجَ كلَّها تُفصِحُ عن لا شيءٍ.. لا شيءَ في جسدِ هذا الرجلِ يَمُتُّ للحياةِ بصلةٍ وكأنه نبتةٌ شيطانيةٌ...!

أعلمُ جيداً أن كلامي هذا ربما يكون من قبيل الخرافاتِ.. لكن ما نُجمِعُ عليه هو ما أجمعتْ عليه تقاريرُنا.. في الأمرِ لغزٌ ما، الحلُّ بأيديكم أنتم.. لا بأيدينا نحن.

رمَى بعبارتِه تلكَ في وجهِ اللواءِ ثم انصرفَ برفقةِ زملائِه تتبعُهم نظراتُ الحنقِ والغضبِ التي تُشعِلُ عَيْنَيِ اللواءِ مصطفى...

وما أن تجاوزوا المكتبَ خارجينَ منه حتى هوَى مصطفى بجسدِه على الكرسيِّ في محاولةٍ منهُ لاستيعابِ ما يحدثُ...! ثم نظرَ إلى الضابطِ الذي ظلَّ صامتاً طيلةَ الوقت وهتف بيأسٍ:

- لقد قامتْ قيامتُنا يا جلال.. إنها القيامةُ ولا شك...!

رمقَه جلالٌ بعينين تلمعانِ، فيهما من الخبثِ ما يشي بحقيقةِ ما يُضمرُه، ثم اقترب من المكتب وجلسَ على الكرسيِّ وقال بنبرةٍ ذاتِ مغزىً:

-ولِمَ لا تكون فرصةً ذهبيةً يا سيادةَ اللواءِ...!

ضاقت عينا اللواءِ باستفهامٍ، واعتدل على كرسيِّه وأنصت بكلِّ جوارحِه فتابعَ جلالٌ بدهاءٍ:

- يولد الطفلُ بلا أوراقٍ والحكومةُ هي من تصنع أوراقه، وقد جاء إلينا هذا الحقيرُ مجرداً من كلِّ شيءٍ، فلِمَ لا نجعلُ منه بطلاً لبلدٍ أخرَ وعدوّاً لبلادِنا.. ثُمَّ ليذهبْ هو إلى الجحيمِ، ولنذهبْ نحن إلى حركةِ الترقياتِ القادمة...!

صفق اللواءُ مصطفى بحرارةٍ ثم ردَّ عليه بسعادةٍ بالغةٍ:

-عظيمٌ يا جلال، منذ أن رأيتُك ولمحت فيك الذكاءَ والدهاءَ.. قلت في نفسي سيكون له شأنٌ عظيمٌ في هذا الجهاز، ولكنَّ السؤالَ هنا: كيف نصنعُ منه بطلاً لدولةٍ أخرى...؟

******

طَوتِ المصابيحُ نفسَها ولملمت أضواءَها وذهبت لتستريحَ على سريرِ السعادة، واضعةً الحبَّ في خزانةِ الحبيبَيْنِ، منتشيةً بلذةِ انتصارِه...! فبعدَ عناءٍ طويلٍ مع الخيانة والغدر، استطاعت أن تزفَّ عاشقين خلا قلبُهما من الأنانية، بعد أن كانت تشيِّعُ جنائزَ الألافِ بأنوارِها الحزينة، وتضحكُ برثاءٍ كُلَّما وجدت من يُبارك عُرسَهم، تضحك لِكونِها الوحيدةَ التي تعرف الحقيقة، الحقيقةُ التي يطغى عليها زيفُ المشاعرِ وتغطيها أقنعةُ المصالح، الليلةُ هي انتصارُ الحبِّ وتتويجُه بصكِّ زواجٍ في حفلةٍ حملت الكثيرَ من التساؤلاتِ حولَ جمالِ العروسِ وثقافتِها وأناقةِ العريسِ وجاذبيتِه، أطنانٌ من الغَيْرَةِ حملها الكثيرون في أعينِهم وهم يحسدون العروسين، فلقد اجتمع فيهما كلُّ ما يريده إنسانٌ من دنياه، العلمُ والسلطةُ، المالُ والجمالُ والحبُّ، الشوقُ الذي دغدغ قلبيهما يصطحبُ الوحدةَ ويرحلُ ليتركَهما هانِئَينِ بعناقِ عشقهما بعد سنواتٍ من الشوق والحنينِ لهذا اليومِ الذي كانَ جُلُّ أمانيهما فيه أن يعيشا تحت ظِلِّ سقفٍ واحد، تحققَ حلمُ العمر وانتهى حفلُ الزفافِ وآتت تلك اللحظةُ؛ اصطحب العريسُ العروسَ إلى شقتِها، فتح الباب ودخلَ وهو يحملُها بين يديه، لقد وفَّى بوعدِه وطبَّقَ حديثِه حين كان يغازلُها:

-أنتِ ملَكٌ والملَكُ يجب ألَّا يمشي على الأرض..

وضعها على الأريكةِ برفقٍ وقبَّلَ جبينَها، أخذتها رجفةُ فحاولت أن تُخفيَها، حدَّقتْ في الأرض فانبهرت حين رأتها مفروشةً بورقِ الوردِ الأحمرِ، وشموعٌ صغيرةٌ مصفوفةٌ على جانِبَيِ الطُّرقةِ المؤديةِ لغرفةِ النومِ؛ الستائرُ بيضاءُ اللونِ مطرَّزةٌ بخيوطِ الذهبِ لتتماشى مع طاقمِ الصوفياتِ الموضوعِ في الصالون، تتوسَّطُه طاولةٌ من خشبِ السنديانِ يعلوها مزهريةٌ من النرجسِ وأزهار الليلك المفضلةِ لديها المقطوفةِ من حديقةِ المنزلِ والتي كانت زرعتها واعتنت بها منذ مكوثِها في هذا المنزل، السعادةُ تكادُ تخطفُ أنفاسَها، حتى أن دموعَها سالت على خديها من فرطِها مما جعله يقطفُ أجملَ الأزهارِ ويدنو منها ليضعَها بين خُصيلاتِ شعرِها الذهبيِّ ويقولُ بغزل:

-أرقُّ زهرةٍ لأبهى جميلاتِ الكون..

عَقِبَ جملتِه أرادَ أن يُقبِّلَها فجفلتْ منه كما تجفِلُ المُهرةُ من خيَّالِها، رجعت برأسها للوراء، انتفضت بكامل جسدِها، يداها ترتجفان كعجوزٍ مصابةٍ بمرضِ الرَّعَّاش، قلبُها كبركانٍ يثور، نبضها من شدته يُسمعُ له صدىً، دمُها لم يعد يسري بالعروق ، لاحظَ عليها التوترَ فاقترب منها واحتضنها ليهدِّئَ من رَوْعِها، لم يتمالك نفسَه أمام جمالِها الفاتنِ خارت قواهُ وأعاد الكرَّةَ مجدَّداً وقبَّلَها وهَمَّ بها، فصرخت وفكَّتْ وثاقَ ذراعيه بعنفٍ ثم فزَّت واقفةً تخيَّلتْه ذئباً يحاولُ افتراسَها، وضعت يدها على فمِها وقبضت على بطنها بالأخرى ثم أسرعت نحو الحمام لتتقيأَ، كامرأةٍ حاملٍ في شهرها الأوَّلِ، ما إن دلفت إلى هناك حتى أخرجت ما في جوفها، سمع تأوهاتِها التي أخرجته من صدمتِه الممزوجةِ بالدهشة فهرولَ نحو الحمام، وقف عند الباب يُراقِبُها بذهولٍ حتى انتهت وغسلت وجهها، وما أنِ التفتت وشاهدته يقف أمام البابِ حتى تراجعت بظهرها في خوفٍ والتصقت بالجدار، رفع يده في إشارةٍ لها بالهدوءِ ثم هزَّ رأسه بأسىً وتحرك نحو الردهةِ، غابت في حمامها بضع دقائقَ ثم عادت، نظرت إليه بصعوبةٍ بالغةٍ فلقد ظهرت ملامحُها شيئاً فشيئاً من بين دموعِها الكثيفة، أرادات أن تعتذر منه عمَّا فعلت، سارت نحوه وهي لا تعرف ماذا تقول، امتنع الكلامُ أن يخرجَ من بين شفتيها فطبعت قُبْلةَ اعتذارٍ على جبينه، انتهزها فرصةً وضمها إليه، قاومته ودفعته بعيداً عنها، أحسَّت أنه مخمورٌ يريد الاعتداءَ عليها، تهجمت عليه دون وعيٍ وقذفته بكلماتٍ قاتلةٍ أشبه بقنابلَ بدائيةِ الصنع قتلت مخترعيها:

-ابتعد عني.. لا أريدك.. كلُّكم أوغادٌ تلهثون وراءَ غرائزكم..

تجمَّدَ الدمُ في عروقِه عقبَ حديثِها وكوَّرَ قبضةَ يدِه وهَمَّ بالنهوضِ ليمنعَ مستنقعَ الكلماتِ البذيئةِ أن يخرجَ من فمِها، لكنَّه تحاملَ على نفسِه وكظم غيظَه حين لاحظ ارتجافَها، واكتفَى بالتحديق فيها حتى انتهت وسارت بخزيٍ نحو غرفتِها ثم أصفدت البابَ خلفها.

ضربَ المقعدَ بقبضةِ يده وطاح في الشقة كثورٍ هائجٍ أثاره لونُ الوردِ الأحمرِ، فمزَّقها بجنونٍ وهشَّمَ المزهريةَ، ثم ألقى بجسدِه على المقعدِ وراح في تفكيرٍ عميقٍ، وبينما هو كذلك كانت هي مُكوِّرةً نفسَها داخلَ فراشِها كقنفذٍ بريٍّ تكوَّرَ حولَ نفسِه لِيُبرِزَ أشواكَه التي يحمي بها جسدَه من الافتراس، بينما عيناها سقطت منها الدموع على هيئة حِممٍ بركانيةٍ أفقدتها الرؤيةَ...! ورغم بركانِها الثائرِ في قلبها وحرارةِ جسدِها المرتفعةِ إلَّا أنَّها لازالت ترتعد بشدةٍ..

انقضت ليلةٌ.. هي الأشدُّ ظُلمَةً على قلبيهما، وجاءت أشعَّةُ الشمسِ متسللَةً عبر النافذة تقصدُ عينيها المنتفختين من البكاء، وكأنها أتت لتعاقبَها على فعلتِها.. سلَّطتْ ضَوءَها الممزوجَ بالحرارةِ على عينيها لتوقظَ ما تبقَّى من بصرِها النائمِ، نهضت بتعبٍ عن فراشِها، توجهت نحو المرآة، حدقت في ملامحها عبرَها، أرادت أن تبكي فلم تنزفْ عيناها دمعةً واحدةً بينما قلبها نزف خيبات كثيرة، تحركت في الغرفة ذهاباً وإياباً، مُشبِّكةً أناملها خلف ظهرِها كما يفعل مُحققو الشرطة حين يشغلهم لغزُ قضيةٍ ما، كانت تبحث في عقلها عن اعتذارٍ ما يليق بما فعلته أمس، طال تجوُّلُها.. يبدو أنَّ الأمرَ بات تعقيداً من فكِّ شفرةٍ.. لماذا اختارت التفاحة رأسَ نيوتن، حين لم يعد في التفكير جدوى، قررت أن تخرجَ عليه كما هي، دون مبرراتٍ ولتجعل الأمر يسير كما رسمه القدر، فتحت الباب ومشَّطتِ الردهةَ بعينها الحزينتين، فوجدته نائماً على الأريكةِ ولازالت ملابسُ العرسِ على جسدِه لم ينزع شيئاً منها، سارت على أطراف أصابع قدميها وصولاً إليه، جثت على ركبتيها، تأمَّلت ملامحَه الملائكيةَ وابتسمت في نفسها رغماً عنها وتحدثت بقلبِها قائلةً بمزاح:

-تبدو ملامحُك أكثرَ براءةً وأنت نائم.. أين صلابةُ عروقِك المخيفةِ في جبينك...؟!

تسللت أناملُها الرقيقةُ عبرَ خصلاتِ شعرِه الكثيفةِ داعبتها دون إرادةٍ، ثم اقتربت منه وطبعت قبلةً على جبينه ما جعلَه يشعرُ بلمساتها؛ فاستيقظَ وفتح عينيه وتبسَّم لها، استحضرت صمودَها وأرغمته على البقاء بجوارها،

رغم أن قلبها ارتعد بشدةٍ، لازالت تَعبرُ بأناملها جنائنَ شعره، حتى اعتدل بقامته وفتح ذراعيه لاحتضانها ظناً منه أنها عادت لطبيعتِها، ولكن ساءته ردةُ فعلِها؛ حيث فرَّت هاربةً منه وكأنه كان يحلُمُ واستيقظ على كابوسٍ مزعجٍ، زفرَ في ضيقٍ ونهضَ ثم توجَّه نحو الحمامِ، فغمرَ وجهَه في المياه الدافئةِ وخرجَ متوجِّها نحو الحديقةِ، تأملَ أزهارها، استنشق عبيرَها، وجلس على أُرجوحةٍ كانت مُعلقةً بين شجرتين وجعلها تتأرجحُ به وأخذ يُفكرُ ويُحدِّثُ نفسَه بريبة:

-أيعقلُ أن تكون.....

لا.. لا.. لا يعقل.. ربما فقط الخجلُ يمنعُها.. اصطبرْ عليها حتى تستوعبَ الأمرَ، فمُذْ عرفتُها وهي تموتُ خجلاً إن داعبَها هواءُ الربيعِ، فما بالُها برجلٍ...؟!

قدَّم لقلبِه الاعتذارَ نيابةً عنها وظلَّ يتأرجحُ بجسده حتى سمعَها تناديه:

-خالد.. خالد.. لقد أعددتُ لك إفطارَك، وكذلك قهوتَك الصباحيةَ..

فابتسم في نفسِه ونهضَ، ثم تحركَ نحو الطاولةِ الموضوعةِ في وسطِ الحديقةِ وهو يقول:

-مجنونةٌ يا ريمُ..

جلس على الطاولةِ وجلست هي على المقعدِ الموازيَ له، نظر في عينيها فأطرقت بِبصرها خجلاً منه، وبين الحينِ والآخرِ كانت تختلسُ النظر في عينيه وتفتح فمَها تريد أن تتحدثَ لكن الكلام يرفضُ الخضوعَ لقرار قلبِها فتغلقُ فمَها من جديدٍ ثم تمسك بقطعةٍ من شطائرِ الفطير وتقربُها من فمها فتمتنعُ شفتاها عن احتواء الطعام وكأنها تريد شيئاً آخر، رشفة من عسلٍ مُصفًّىً لا يتجرعها غريبٌ تروي ظمأ قلبِها المتوهج مثلَ جمرةِ خريفٍ

*****

بعد الثانيةَ عشرةَ ليلاً بدأت ذاكرتُه بالبكاءِ، هرب من الغرفة، تجوَّلَ في الطرقة الواسعة، كلُّ الأبواب مغلقةٌ حتى بابُ قلبِه لم يطرقه أحدٌ منذ زمن، جال ببصره يبحث عمن يواسي وحدتَه، الكلُّ نيامٌ حتى عقلُه، عاد ليتجول ثانيةً مثل كلبٍ مشرد، بدأ يَعِدُّ مصابيح الطريقِ كما يعدُّ طفلٌ صغيرٌ نقودَه التي ادخرها، تفقد رئتيه، قلبه، أمعاءه، لمس بأنامله وجهه ليتأكدَ أنه لم يصبح بعدُ شبحاً هزيلاً يتلمَّسُ طريقَه للهاوية، فجأةً سمع أصواتَ أبوابٍ تتحطم، بحث ببصره فرأى ذكوراً عرايا يركضون نحوه يحملون السيوف في أيديهم، لكنهم ليسوا رجالاً، أجسامُهم فقط كأجسامِ البشرِ، ولكن رؤوسُهم كانت لخنازيرَ، أخذه الذهولُ..! الكائناتُ تقتربُ منه، كبيرُهم يحمل بين يديه خنزيراً كاملَ الهيئةِ ميتًا، رماه به، فزع منه وتراجع بجسده للخلف، سقط الخنزيرُ أمامه، تنقَّلَ ببصره بينهم، لمحَ الغدرَ يخرجُ من أعينهم.. تلفَّت حولَه.. انحنى سريعاً والتقط بندقيةً كانت بجواره، شدَّ أجزاءَها للوراء واستعد لإطلاق النار، ما إن تحرك أحدُهم نحوه حتى أعطَى للرصاص إشارةَ انطلاق، ركضت الطلقاتُ نحو رؤوسِهم، أصابت العديد منهم، اشتعلت الحربُ بينهم، سيوفُهم حلَّقت في الهواء بحثاً عن جسده، ناله العديدُ من الطعنات، لكن سلاحَه كان الأقوى والأسرعَ والأعنفَ.. قضى عليهم جميعًا حتى أصبحت الطُّرقةُ مليئةً بالجثث المخضبةِ بدمائها، أسند رأسه على الجدار ولازال في ذهول...! لا يصدق ما كان فيه، جسدُه ينزفُ بشدةٍ رغم أنه لا يشعرُ بأيِّ ألمٍ يتخللُه، سرعان ما اتَّكأَ على بندقيته وسار بين الجثث وصولاً إلى غرفته، تقدَّم نحو المرآةِ ليتفحص جروحَه.. حدَّقَ فيها.. سقطت البندقيةُ من يده، وانتابته حالةٌ من الفزع حين رأى نفسه يُشبههم فجسدُه جسدُ إنسانٍ ورأسُه رأسُ خنزيرٍ، لم يتحمل الصدمةَ فهوى بجسده أرضاً وهو يصرخ:

-لاااااا..

فُزع من كان نائماً بجوارِه واستيقظ على صرخاته.. هزَّه بشدةٍ وتحدث بقلق:

-أحمد.. أحمد.. ما بك...؟! انهض وارتشف جرعةَ ماءٍ واستعذ بربك من الشيطان الرجيم..

فتح أحمدُ عينيه ولازالت الصدمةُ تسيطرُ على ملامحه، وصدرُه يعلو ويهبط بسرعةٍ فائقةٍ، أنفاسُه مضطربةٌ للغايةِ ونبضاتُ قلبه متزايدةٌ، حالةٌ من اللُّهاثِ تملَّكته حتى أنَّ روحَه كادت أن تفارقه..

*****

على صفيحٍ ساخنٍ أخذ حازمٌ يُقلِّبُ عقله يميناً ويساراً، لعلَّ فكرةً ما تَؤزُّها النار فتخرج معلنةً عن غليانها، طالبةً منه سكبَ ماءِ التنفيذِ عليها، لكنَّ الأفكارَ داخل عقله من الواضح أنها ميتةٌ منذ سنين لا يضيرها لهيبُ عقلِه المتوهجُ، أخذ يقطع ردهةَ منزِله ذهاباً وإياباً، ينافسُه دخانُ سجائرِه، قبل أن ينتهي من واحدةٍ يُشعلُ أخرى بعد دهسِ سابقتِها تحت حذائه المنزليِّ كما كان يفعل بالمستضعفين الذين يقذفُهم حظُّهم العاثرُ في طريقه.

ثلاثُ ساعاتٍ قضاها على حالته حتى اجتمعت كلُّ أنواع التلوث في منزله، كلَّما ارتفع صوتُ هاتفه أخمده سريعاً بعدما يرمقُ اسمَ المتصلِ بنظرةٍ ناريةٍ.. أخيراً قرر أن يفتحَ الشرفةَ ويقف فيها عاقداً ذراعيه خلف رأسِه، حاول تخفيفَ وطأةِ الحاضر على عقله، لكن هيهات...! فسرعان ما أعاده صوتُ الهاتف إلى واقعه بل إنه قذف به في بحرٍ من الرعب حين رمقَه هذه المرةَ فكان المتصلُ قائده:

- مرحبا.....

-أين أنت يا حازم...؟

-موجود يافندم تحت النظر..

- أنت حقَّاً بحاجةٍ لأن تكونَ كذلك.. لم يَعد يُعتمَدُ عليك.. ملفٌ به بضعُ ورقات يستعصي على ضابطٍ مثلك.. لا شكَّ أنك وقتها تحتاجُ لرعايةٍ وليس لتكليفٍ بمهمةٍ صغيرةٍ مثل تلك...!

صمتَ قليلاً.. كاد حازمٌ أن يتكلمَ وما إن خرجت أنفاسُه حتى قاطعه اللواءُ رفعت القوصي مستطرداً بحزم:

-اسمعني جيدا.. أمامك ثلاثةُ أيامٍ لا أكثر إمّا أن تعثر على الملف أو أن أعترفَ أمامَ نفسي بأنني أخطأتُ فعلاً حين وكَّلتُ إليك هذه المهمة.. والاعترافُ بالخطأ عندي ليس باليسير...!

كوَّرَ حازمٌ قبضةَ يدِه بغضبٍ جمٍّ، ثم تماسك سريعاً قبل أن ينفجرَ في وجه محدِّثه محاولاً أن تكونَ نبرتُه أكثرَ هدوءاً:

-لقد كنتُ على بضع خطواتٍ منه لولا موتُ ذلك الأحمقِ جمال.. لكنني أعدك سيدي أننا سننتهي قريباً جداً..

-ليكن في معلومِك يا حازم أنَّ جمالاً كان مجرَّدَ حلقةً في سلسلةٍ، تذكَّرْ ذلك جيداً... ابحثْ في محيطِه، ربما تجد سمكةً بريئةً تنقذُك من أسماكِ القرش..

*****

# الفصل التاسع

جلس خلف مكتبه داخل أجزخانتِه المتواضعةِ، أمسك بلحيتِه الكستنائيةِ، وظلَّ شارداً يفكر في ليلاه التي استحوذت عليه، تسللت داخله فامتلكته، صورتُها دائماً أمام عينيه، ابتسامتُها الرقيقةُ، حديثُها الساحرُ:

-يااااااه كم اشتقت للغرق في عينيك..

لا أعرف أنني على قيدِ الحياة إلا كلَّما رأيتُ وجهكِ، وكأنك شمسٌ تركتِ السماءَ وتنازلت لتكونَ بين البشر، أشرقَ بها قلبي المظلم المتوشحُ بسوادِ القَدَر، يا لكِ من ليلى، ليس لكِ من اسمك نصيبٌ، إنك كالفجر بنقائه وصفائه وهدوئه المتوارِي خلف شقاوتك التي تُشعلُ الروحَ اشتياقاً لاحتضانك...! حارَ القلبُ بحبكِ وتاه بتفاصيلك الجذابة، أيعقلُ أن أقعَ فريسةً لعشقِكِ الذي كنتُ أحلم أن أتذوَّقَ طعمه من شفتيك المتوردتين...! أيعقلُ أن أشتاقَ إليكِ شوقاً يضاهي اشتياقَ العطشانِ في الصحراءِ إلى الماء...!

أخرجَ هاتفَه من جيبه وحدَّقَ في رقمها وكأن صورةَ وجهها الجميلِ بين يديه، حدق كثيراً، وقد نازعته نفسُه في الاتصال بها، أصابعُ يده تجرُّه بقوةٍ لِلمسِ الرَّقْمِ كزبانيةِ جهنمَ تجرُّ الكفارَ إلى الجحيم بسلاسلَ من فولاذٍ متوهج، وهو في وسط معركتِه يجدُ صوتَ سيدةٍ تطلب منه أن يصرفَ لها وصفةً طبيةً، نهض وتوجَّه نحو رفوفِ الأدوية، جلب علبتين من الأدوية، رن هاتفُه ولمَّا اقترب منه وحدقَ في الشاشةِ رأى رقمها يتراقص أمام عينيه، لم يتمالك نفسَه من الفرحة.. ارتخت أعصابه.. سقطت الأدويةُ من يده.. تهشَّمت ولم يشعر بها..

صاحت السيدة:

-دكتور أمجد..

لم ينتبِه؛ بل ظلَّ مُحدقًا في الهاتف.. انتهى الاتصال نادته المرأة ثانياً، انتبَهَ لها ولزجاجات الدواء المهشمةِ على الأرضية، فاعتذر من المرأةِ وأحضر لها طلبَها، فلمَّا أخذته وانصرفت أمسك هاتفه وسارعَ بضغطِ زرِّ الاتصال.. فُتِحَ الخطُّ؛ وبلهفةٍ شديدةٍ بهمسُ:

-ليلى...؟

صوتها اختفى وراءَ أنفاسِها الساخنة.. أشعلت نارُ الشوقِ في قلبه.. ردَّدَ اسمها بلهفةٍ:

-ليلى..

لم تجبه فتابعَ بحب:

-كنت سأتصلُ بك قبل أن تفعلي...! أرجوكِ تحدَّثِي.. قولي شيئاً.. أتوق لسماع صوتك، بل أودُّ أن ألتقيَ بك اليوم في.....

وقفَ الكلامُ على لسانه فتحدثت هي بحُنُوٍّ:

-أكمل.. هاا.. في ماذا...؟

ضحك من أعماقه.. وردَّ عليها مُغازلاً:

-أخيراً تناثرت حبَّاتُ اللؤلؤِ على مسامعي وخرجت جواهرُ الكلماتِ الممزوجةِ بقطرات الندى من بين شفتيك الرقيقتين لتزيِّنَ قلبي الحزين وتُرطِّبَه..

خرجت تنهيدةٌ حار ةٌ من أعماقِها اكتفت بها رداً على حديثِه فتابع:

أودُّ أن أراكِ في مطعمِ الحسناء.. هل تعرفينه...؟ هو ليس بعيداً عن منزلكم...؟

أجابت دون تردد:

-نعم.. أعرفه؛ ولكن متى ذلك...؟

رقص قلبُه بين ضلوعِه وأجابَ قبلَ لسانه:

-اليومَ.. في تمام الساعة الخامسة..

أغلق كلٌّ منهما الخطَّ، ولكن ظلَّ قلبهما متصلاً حتى اللقاء.

في الخامسةِ مساءً دلف أمجدُ إلى المطعم، ومن ثَمَّ جال ببصره في المكان ليتفحَّصَ ملامحَ زبائنه.. ربما حضرت قبله...! وحين حدَّثَه قلبُه بأنها لازالت في طريقِها إليه جلس على طاولةٍ في الركن اليساريِّ للمطعم ووجَّهَ بصرَه نحو الباب، ومع كلِّ زائرٍ يقتربُ من الباب كان قلبُه يستقبلُه قبل أن تتضحَ معالمُه حتى أتت فيروزةُ حياتِه بفستانِها الأسودِ الطويلِ وشعرِها المسترسلِ المنثورِ خلف ظهرِها كشُعَبٍ مرجانيةٍ تُزيِّنُ شاطئَ جسدِها المنحوتِ بدقَّةٍ، فلمحته من بعيدٍ فتقدمت نحوه، ومع كلِّ خطوةٍ كانت تخطوها كانت تزدادُ نبضاتُ قلبِه فرحاً وسعادةً وكأنها ترقص فوقه حافيةَ القدمين، وحين وصلت إليه نهض عن مقعده وصافحها وطبع قبلةً على يدها وأشار لها بالجلوس، فحدّقت فيه بتمعُّنٍ وشردت في لونِ عينيه "اللازورد" وحدثته بعينيها :

- يا لجبروتِ هذا "اللازورد" الهاربِ من بلاد ما وراءَ النهرين ليستقر بعينيك ويتخذهما موطناً يجلب السائحات إليه...!

- ليلى.. كيف حالُك...؟

تساءل وهو يحتضن كِفَّتيها بين كِفَّتَيه.. فأجابت بدهاءٍ ممزوجٍ بخجلٍ مصطنع:

-لم أكن بحالةٍ جيدةٍ إلا حين رأيتُك..

تفتَّحت أزهارُ ملامحه وارتوت من كلماتها التي طمأنت قلبَه ودفعته بقوةٍ نحو قتلِ مخاوفِه في أن يكون إحساسُه بحبِّها له قد كذب عليه وتحدث بثقة:

-أريد أن أُخبِركِ شيئاً...! لا بل أشياءَ كثيرةً...

قبل أن أعرفكِ كنتُ كالميِّتِ فارغَ القلب والعقلِ والحس، لكنني الآن أصبحت ممتلئاً بالحياة، بدأتُ أشعر بالقلب الرابضِ بين ضلوعي، أسمعه وهو

يهتف باسمكِ كأنه يتلو صلاةً.. يناجيكِ ليلاً ويهيمُ في تفاصيلك نهاراً وفي قيلولته يتوسَّدُ ذراعيك وينام مثل طفلٍ صغير.

احمرَّتْ وجنتاها خجلاً ضاعف من جمالِها في عينيه وتعرَّقت يداها بين يديه فسحبتهما برفقٍ ثم أطرقتْ بصرَها أرضاً لوهلةٍ وعادت تنظر إليه؛ فتابع حديثه بكلمةٍ واحدة:

-أحبك..

لم تُعلِّقْ على كلمتِه، فهام في وجهها متأمِّلاً تلك الملامحَ التي تشبه ملامح طفلةٍ بريئة، عيناها تلمعان بغرورٍ مثل جوهرةٍ نادرةٍ، شفتاها تبتسمان تخفيان داخلهما نبعاً من عسلٍ يخرج من بين حبَّاتِ لؤلؤٍ بيضٍ يتمنى الناظرُ إليها أن يقتنيَها ويثملَ من نهرِ عسلِها المتدفِّقِ بغزارةٍ.

طال التأمُّلُ وحلَّ الصمتُ ضيفاً على المكان فنهرته ليلى وقالت بصوتٍ خافتٍ:

-أمجد.. أنت أيضاً سكنت القلبَ والروحَ حتى أنني أصبحت سُكناكَ..

*****

أنظارٌ مصوَّبةٌ نحو الفضاءِ تترقَّبُ بلهفةٍ هبوطَ الطائرةِ القادمةِ من أمريكا، والتي كانت تحمل على متنها أجساداً لقلوبٍ مُتسمِّرةٍ في الأرض، وحلمٍ لعجوزٍ أكلَ الدهرُ من عمرِها وشرب متمثِّلاً في جسدِ رجلٍ في منتصف عقدِه الثالث، وإشارةِ نجاةٍ للعميد مصطفى الذي حضَّ إلى المطارِ قبل قدوم الرحلة بساعةٍ كاملةٍ يصحبُه ضابطُه جلالٌ...

وقفت أعينهم تتفحصُ وجوهَ المسافرين وهم يهبطون من سُلَّمِ الطائرةِ إلى أن استقرت على الهدفِ المنشود، تلاقت نظراتُهم فأرسلت عن بعدٍ إشارةَ ترحيبٍ وأخرى مبهمةٍ، اعتبرها العميدُ إشارةً لمغادرةِ الصالة، تحرَّك على الفور وخلفه رفيقُه وصولاً إلى سيارتهما، جلس الرجلان قرابةَ الربعِ ساعة حتى

حضرهما زائرُهما، لم يسعهما الترحيبُ به بشكلٍ روتينيٍّ كما كانا يفعلان في كلِّ زيارةٍ سابقة، على الرغم من أنهما هذه المرةَ تحديداً كانا يحتفيان به من الداخل، لكن الوضع يستدعي ألَّا يعرفَ أحدٌ باجتماعهم، انطلقَ جلالٌ بالسيارة بينما كان يجلسُ في المقعد الخلفيِّ العميدُ مصطفى وزائرُه "مستر مايكل" الضابط الأكبرُ سلطةً لدى المخابراتِ الأمريكية.

ربت مصطفى على رِجلِ "مايكل" قائلا بامتنان:

-أشكرك لقدومك واستجابتك السريعة...

ابتسم "مايكل" ابتسامة ترحيبٍ وتحدث بلهجةٍ عربيةٍ فصيحةٍ، وبدبلوماسيةٍ شديدة:

- الجميعُ مستفيدٌ وحيث أنَّ الأمرَ كذلك فالشكرُ عبث، أتمنى أن تكونَ مدركاً لأنه ليس لديَّ الكثيرُ من الوقت لأقضيَه هنا...

نظر جلالٌ لعينَيِ مصطفى الذي كان يتطلَّعُ في المرآةِ، فأومأ مصطفى برأسِه لِـ"مايكل" إشارةً لِتفهُّمِه للأمر، هنا أخرج جلالٌ ملفّاً أزرقَ وأعطاه لرئيسه الذي لوَّحَ به لِـ"مايكل" فابتسم الأخيرُ شعوراً بالانتصار، وأخرج أسطوانةً من جيبه وأعطاها له وأردف بسعادة:

نحن الآن نعترف بمساندتنا للأسيرِ الذي عندك، وأنت تساعدُنا في اتساع رقعتِنا داخل بلادكم...! ما أدَّى إلى أنَ قهقه الثلاثةُ فرحاً بانتصارهم...! وكلٌّ من مصطفى ومايكل يقبض على كنزه الثمين بين يديه.

*****

يحدثُ كثيراً.. أن تخلع قلبكَ في مدينةٍ ما، في شارعٍ ما، أو ربما في حانةٍ أيضاً حين يجتاحُك السُكْرُ وتثمُلُ وأنت وحيد، بينما عقلُك يبحث عنه بجنون، يعثر عليه بقربِه يقتربُ منه ليعانقَه فينفرَ قلبُك بجمودٍ، ملقياً على عقلِك قذائفَ من التساؤلات دخانُها الشكُّ، ونارُها الجفاءُ، وبارودُها الغموض، لكنك مجبرٌ على عدمِ المقاومةِ والبحثِ عن سبيلٍ لعقد هدنةٍ معه مع تحليك بالصبر:

-قد يبدو الأمرُ صعباً؛ لكنه غيرُ مستحيلٍ.. حسناً سأعاودُ الكرّةَ.

هكذا فكَّرَ خالدٌ وهو جالسٌ مع ريم في الردهة، وما إن انتهى من تفكيره حتى طلب منها أن تعد له فنجاناً من القهوةِ، نهضت على الفور وتحركت نحو المطبخ، وحين غابت عن أنظاره انتصب بجسده هو الآخرُ وخلع قميصَه ثم ألقى به على المقعدِ وسارَ على أطراف قدميه وصولاً إليها، وما إن بلغَها احتضنها من الخلفِ وطوَّقَ خصرَها بذراعيه وأزاح خصيلاتِ شعرها عن عنقها ليطبعَ قبلةً عليه، فتنهدت تنهيدةَ خجلٍ وقامت بتحريك رأسِها يساراً ويميناً في اعتراضٍ مكتوم، كتمت داخلها صرخةً اعتادت عليها منذُ زواجِها، شعورٌ متناقضٌ يتخلَّلُها.. تشتاق للمساته وقبلاته ولكنَّ شيئاً ما يُرعبُها ويقتل اشتياقَها ويقذفُ الرعبَ داخلها، تملَّصت منه بذكاءٍ وتحدثت وعيناها تجوبان الأرضَ من شدةِ الخجل:

-دعني أُعدَّ القهوةَ واسبقني إلى الصالون كي نتحدث...

تأفَّفَ بضيقٍ وضربَ الحائطَ بقبضةِ يده ثم خرج، تركها تتململُ من جسدِها، لقد أصبح ثقيلاً على روحِها، تودُّ أن تخلعَه لتركضَ في أزقةِ الندم حافيةً، تُرهقُها حنجرتُها الغارقةُ في الصراخ، بينما العالمُ يحشر نفسَه في قفصِها الصدريِّ، مرَّت دقائقُ خروجِها بثقلٍ مريبٍ، وضعت القهوةَ أمامه وجلست مطأطأةً رأسَها شاردةَ الذهنِ مرتجفةَ البدنِ ترغبُ في أن يفتح الكون فمَه العميقَ ويبتلعَها داخله دون أن يُبقيَ أثرا، أو تفقد ذاكرتها التي تعجُّ بالكوارثِ القاتلةِ لتصبحَ وليدةَ اللحظةِ، ربما وقتّها فقط تشعرُ أنَّها من حقِّها

انصهارُ جسدها بنارِ أشواقه، غائبة بعقلِها حاضرةٌ بجسدِها، اقترب منها لمسَ خدَّها الأيمنَ بيدِه الرقيقة، لم تقاوِم..! فاحتضن خديها بكفَّتيه، ثم شرعَ في مغازلتِها:

-انظري إلى عينيَّ التي كنتِ تخبريني أنهما عشقُكِ وأنهما جنتُك، اقتربي من حضني، أليس هو أمانك من مخاوف الدنيا...؟!

تدحرجت باتجاهه دون شعورٍ ، غابت عن الواقع تذكرت حُلمها القديمَ وهي على سريرِ حبيبها حين أسقطته أرضاً فابتسمت وردمته تحتَ أنقاضِ الوسائد والبطانيات والأحذية والفُرُشِ والملابسِ والعُلَبِ الفارغة، أصبحت بين أحضانه دون وعيٍ، شعر بلذةٍ غريبةٍ لذةِ انتصاره على خجلها، اقتربت شفتاه من شفتيها حتى التصقتا، فاقت من شرودها، فظهر أمامَها ذلك الشبحَ الذي تراه فيه يتحسس مفاتنها، وضع أصبعه في موضعٍ لا يلمسُه غريب، صرخت صرخةً مرعبةً، وانتزعت نفسَها من بين أحضانه بدفعةٍ قويةٍ اسقطته أرضاً على ظهره، تحامل على ذراعيه حتى استقام نصفُ جسده، أطلق من عينيه قنابل غضبٍ متوهجةٍ، رفع يده عالياً ،أراد أن يصفعها، وقعت عيناه في عينيها الباكيتين، توقفت يدُه في الهواء، لم يستطع أن يصفعها، فضَّلَ أن يلطمَ وجهه رحمةً بها، صفَّقَ كفُّه الأيمنُ على خدِّه الأيسرِ ثم نهض وتحرك نحو غرفةِ النوم، ألقى بجسده على الفراش، وغاص في شكوكه، تكالبت شياطينُ الكونِ عليها وتضامنت مع عقله، تبادلوا معاً التساؤلات، حتى أشاروا جميعاً نحو اتجاهٍ واحدٍ، نفقٌ مظلمٌ يَهلكُ من يسلكه، يجرِّدُه من صفاتِ الإنسانية قبل الولوج داخله بحجةِ الثأر لرجولتِه المغتصبةِ من امرأةٍ باعت شرفَها لغريبٍ، استوى الشكُّ داخله، نظرَ يميناً نحو الصُّوانِ الموضوع بجوار فراشِه، مدَّ يده داخله، قبض على مسدسه وقبل أن يخرجَه رآها تدخلُ عليه تحاولُ أن تبتلعَ ريقها بصعوبةٍ وجبينُها ينزفُ دماً، فانخلع قلبُه خوفاً عليها، فترك ما في يده وهبَّ واقفاً متسائلاً بقلقٍ بالغ:

-ما الذي حدث...؟

لقد كانت تناطح الجدار علَّها تفقدُ الذاكرةَ فخدشت رأسها، فقامَ فمسحَ عنها الدمَ واطمأن أنَّ الجُرحَ سطحياً، ضمها إليه وسألها:

-أخبريني ما بك...؟ ألستُ خالداً حبيبَ القلبِ والروحِ...؟!

ارتجفت بين أحضانه فأكمل:

-هل تحتاجين لطبيبٍ.. أخبريني.. قولي شيئاً يُطفئُ نار قلقي عليك...؟!

خرجت كلماتُها مرتجفةً:

-لا أعلم.. لكن أرجوك تحمَّلني قليلاً.. لا أعلم ماذا يحدث لي كلَّما تحاولُ الاقترابَ مني، أنا أحبك بل أهيمُ عشقاً فيك، ولكنَّ شيئاً ما يُخيفني ويمنعُني عنك.. أرجوك لا تنزعج ولا تغضب مني.. فقط تحمَّلني لبعض الوقت..

نسيَ ما دعته شياطينُه إليه ودفعه قلبُه إلى أن يُخفِّفَ عنها ألمَ ما لا يعلمه، هتف بحب:

-لا عليكِ...! والآنَ: ما رأيُكِ في أن نخرجَ لتناولِ العشاء..

فأومأت برأسِها إيماءةً تُفهِمُه أنَّها موافقةٌ، ولازالت الدموعُ تغتصب عينيها..

تركها حتى هدأت وبدَّلت ملابسَها، واستعدَّ هو أيضاً، وبعدُ.. غادرا المنزلَ وقلبُه يلعنُ حظَّه العاثرَ وهي تراقبُ عينيه بحزنٍ بالغ، والشعورُ بالذنبِ يمزقُ قلبها ألمَاً، وعندما وصلا إلى وجهتهما جلسا وتناولا طعامَها دون حديثٍ.. فقط نظراتُه تعاتبُها...! تُلقِي اللومَ عليها، تذبح قلبَها بسكينٍ باردٍ، وهي لم تعد تحتملُ أكثرَ من ذلك، فحالُه أهمُّ عندَها من نفسِها، فقررت أن تواجه شبحَ ذاكرتِها، وأن تنتصرَعليه في هذه الجولةِ كي لا يُفقدَها الحياةَ التي تمنَّت أن تعيشَها أخيراً، واستجمعت عزيمتَها واستحضرت رغبتَها في الانتصار ونطقت هامسةً: - حبيبي.. مارأيُك في أن نعودَ للمنزلِ؛ فأنا مشتاقةٌ إليك جداً، مشتاقةٌ لكلِّ شيءٍ معك..

لم يُصدِّق ما فاهتْ به ونطقَ في دهشةٍ:

-ريم.. ماذا قلتِ...؟!

ابتسمت بخجلٍ وقالت بدلالٍ:

كما سمعتَ.. مشتاااااقةٌ جداً، وأريد العودةَ إلى المنزل في الحال..

لم يُعلِّق، بل أمسك يدها وانطلق قلبُه قبل قدميه إلى الخارج وخلفه النادلُ يصرخ:

-الشيك يا فندم.. يا فندم الحساب!

ركب سيارته وأجلسَها بجوارِه ثم انطلقَ بسرعةٍ فائقةٍ كأنها بساطُ الريح سابقَ الزمنَ ووصل إلى المنزل، وسارع بمجرِّدِ نزولِهما من السيارةِ بحملها بين ذراعيه؛ فتعلَّقت في رقبته حتى غرفةِ النوم، فأنزلها وهي تطلبُ منه أن يُمهلَها بضعَ دقائقَ لتجهيزِ نفسِها.

ومن ثَمَّ ارتدت قميصَ نومٍ أسودَ اللونِ برَّاقاً، ووضعت في عينيها كُحلاً عربيَّاً خالصَ السوادِ يفتنُ القلب، وعطَّرت عُنقها الشفافَ وطوَّقت قدميها بخلخالٍ من ياقوتٍ، ثم نادته وهى تتجوَّلُ في الغرفة، خطواتُها كانت تُراقصُ نبض قلبِه على صوتِ أنغامِ خلخالها حتى دلفَ إلى الغرفةِ فنظرت إليه نظرةَ خجلٍ وأشارت بأصبعها إلى مفتاح الإضاءة، فتحرك نحوه دون ترددٍ وأطفأه واقترب منها فأخذت تتراجعُ بخطواتها حتى استلقت على سريرها، جمالُها الفتانُ يسرقُ اللبَّ ويشعلُ البدنَ من حرارة الشوق، انقضَّ عليها كأسدٍ جسورٍ، وهي في محاولةٍ لأن تتكتَّمَ على رعبِها لدقيقةٍ ولاثنتين ولثلاثةٍ، ولمَّا لم تستطع الاستمرارَ صرخت صرخةَ ألمٍ كصرخةِ امرأةٍ حاملٍ في ولادةٍ متعثرةٍ، وأفلتت نفسَها منه ثم ركضت نحو مفتاحِ الإضاءة وأشعلته، فلم يتمالك أعصابه هذه المرةَ ولطمَها على وجهِها لطمةً قويةً جعلت جسدَها يرتطمُ بالجدار، ثم تركها وخرج ينفثُ غضبه في دخانِ سجائره

*****

دخل خالدٌ إلى مبنى النيابةِ العامةِ ولمَّا أن بلغَ مكتبَه منه جلس عليهِ يتأملُ بابَه الخشبيَّ، وبجوارِه المحرِّرُ يقبضُ على قلمِه ينتظرُ دورَ أحدِ المتهمين لِيَسطُرَ أقوالَه في مضبطتِه، فَفُتحَ حازمٌ الباب ودخل ومن ورائِه جنديٌّ يسحبُ متَّهماً كمن يجرُّ بهيمةً، وحين رآهُ خالدٌ مكبَّلَ اليدين نفخَ في ضيقٍ وصاحَ غاضباً في الجنديِّ:

-فكَّ وثاقَه يا هذا..

نّفَّذَ الجنديُّ الأمرَ فبدأَ المتهمُ يتنفسُ الصُّعَدَاءَ...! بينما كانَ حازمٌ يرمقُه بنظراتٍ حاقدةٍ ثم وجَّه بصرَه نحو خالدٍ وألقى عليه التحيةَ مبتسماً وجلس أمامه، فرد خالدٌ تحيته وأشار للمتهمِ بالجلوسِ فترددَ الرجلُ كثيراً قبل أن يجلسَ قُبالةَ حازمٍ، وما إن جلس حتى نفرت عروقُ الأخيرِ عن جبينه وظهرت على ملامحِه علاماتُ الغضبِ الواضحِ رغم ارتدائه نظارةً سوداءَ تُخفي نصفَ وجهه.

بدأَ خالدٌ بالحديثِ موجهاً سؤاله للمتهم:

-ما اسمُك...؟

هزَّ الرجلُ رأسَه يميناً ويساراً وكأنه لم يفقه حديثَه فأعاد خالدٌ سؤاله، فلم يلقَ إجابةً منه غير ايماءةٍ أخرى تدلُّ على عدم فهمِه أو عدمِ استطاعته على الكلام، نظر خالدٌ للأوراق الموضوعةِ أمامه حتى اهتدى لاسمه وتابع:

-جمال: أنت الذي قتلت الضابط "مدحت السيوفي «...؟

أومأَ برأسِه نافياً؛ فنهض حازمٌ عن مقعده وصفعه بكفِّه وقال متهكماً:

-تحدث أيها الأحمق.. فإنَّ الصمتَ لن يفيدَك..

نهض خالدٌ عن مقعده وضربَ بقبضةِ يدِه المكتبَ وصاحَ غاضباً:

-حازم "بك" أنت لستَ في القسم...! احذر غضبي ولا تتعامل هكذا مع المتهمين ولا تنسَ أنك هنا فقط شاهدُ عيان..

رمقَه حازمٌ بنظرةِ تحدٍّ وقال معتذرًا:

-معذرة خالد "بك" لكنني أعلم جيداً أنه يستطيع الردَّ على أسئلتك ولكنه يحاول إيهامنا أنه أصمُّ وهذا لجذبِ تعاطفكم معه وعدم الإفصاح عمَّن وراءه..

جلسَ خالدٌ ووجَّه سؤالَه للرجلِ دونَ أن يُعقِّبَ على حديثِ حازم:

- هل تستطيع الكتابة...؟

أومأ الرجلُ برأسِه بكونِه يستطيعُ، فسقط قلبُ حازمٍ أسفلَ قدميه وسالت قطراتُ العرقِ على جبينه بغزارةٍ حتى أنه لم يستطع إخفاءَ توتره، وأخرج منديلاً من جيبه وبدأ يجفِّفُ هذا العرقَ المُتصبِّبِ؛ وهو يرمق الورقةَ بنظراتٍ حادةٍ وادَّاً لو يقفزُ داخلها ليرى ما بها أو أن يُخرجَ سلاحَه ويُخرسَ به قلمَ الرجلِ برصاصهِ قبل أن يجيبَ عن سؤالِ خالدٍ الذي اعتلى الورقة:

-لماذا قتلت العقيد...؟

كتب الإجابةَ وناولَ الورقةَ لخالدٍ ولا يعرف كيف خطَّتها يدُه، وحين نظر خالدٌ في الورقةِ اعتلت ملامحَه علاماتُ الدهشة، ووجَّه بصره لحازمٍ الذي ارتبك في جِلستِه وبدأ يبتلع ريقَه بصعوبةٍ بالغةٍ، تمنَّى لو يؤخذُ نصفَ عمره مقابلَ أن يعرفَ الإجابة، ولكنَّ خالداً وفرَّ عليه عناءَ التحديقِ من بعيدٍ ونطقَ الإجابة بتعجب:

-بريءٌ مذنبٌ...! أجب فقط بنعم أو لا..

أعاد المتهمُ الكرةَ وكتب الإجابةَ معكوسةً:

-مذنبٌ بريءٌ..

تنفَّسَ حازمٌ بارتياحيةٍ وحاولَ أن يُبرِّرَ موقفَه لخالدٍ قائلاً بثقةٍ:

-أرأيت يا خالد "بك" كيف يراوغ...؟

رمقه خالدٌ بنظراتِ استحقارٍ ولم يُعقِّب على حديثه مما جعل حازماً يستشيطُ غضباً حتى أن وجهَهُ انكمشت قسماتُه وأصبحَ شبيهاً برأسِ فجلٍ مُتعفِّنٍ.

لم يَرُقْ لخالدٍ الأمرُ بل أخذته شكوكُه نحو أنَّ هناك شيئاً ما يخفيه المتهمُ ويعلمه الضابط...! ربما خوفُه من التعذيب أو تهديدُه بالموتِ هو ما جعل إجابتَه غامضةً...! لذا قرر استمرارَ اعتقالِ المتهمِّ احتياطياً لخمسةَ عشر يوماً مع مراعاة التجديد له في الموعد المحدد، ومطابقةِ بصمات الجاني مع تقرير المعمل الجنائيِّ.

نهض حازمٌ عن مقعده وخرج يجرُّ خلفه أطناناً من الغيظ وعلى كتفيه جبالٌ من الخوف، بينما أسندَ خالدٌ رأسه للمقعد وتحدث مع نفسِه بأسىً:

-ما الذي تفعله يا خالدُ...؟ هل بتَّ تشكُّ في الجميع...؟! ما علاقةُ الضابط بالمتهم، أم أنَّ شكَّكَ في "ريم" سيجعلك تشكُّ بالمحيطين بك...؟! عُد إلى رشدك قبل أن يلتهمك حوتُ الشكِّ وتنصهرَ داخله.

*****

# الفصل العاشر

♆♆♆♆♆♆♆♆♆

تغيبين فيتشرد الكونُ بداخلي بينما تجمعُ الملائكة غبارَ غيابك وتعجنُه بدماء قلبي المشتاقِ لحضورِك، لِتُشكَّلَ لوحةً خالدةً في ذاكرة أحلامي لتصبحي حلماً لا غنى عنه، أُقاتل من أجلِه وحتماً لابد أن أنتصرَ لأقتل سنوات التِّيهِ التي عشتها بدونك.

الآن فقط أقولُها بملءِ قلبي وجوارحي لا أستطيع العيشَ في عالمٍ فارغٍ منك، سأجعل رؤيتي لكِ شرعيةً، وسأسعى جاهداً لأن تكونَ في أقرب وقتٍ أبدية، لابد أن أعود للمنزل الآن فقد شارفتِ الساعةُ على السادسةِ مساءً وهذا هو الوقت المناسب للزيارة.

عاد إلى منزله.. حفَّ لحيتَه وقصَّ شاربه وغمر جسده في المياه الدافئةِ ثم خرج متوجِّهاً نحو غرفة النوم، أخرج بذلته السوداء وقميصه البمبي ورابطةَ عنقه التي كانت من نفسِ لون بذلته، تألَّق في ملابسه ورشَّ عطره المميزَ، ثم نظر في ساعة يده ليجدَها السادسةَ إلا خمس دقائق، فابتسم لنفسه في المرآه ثم خرج، قطع الطريق قطعاً بخطواته الواسعة حتى وقف أمام بابِ شقتهما، فأخذ نفساً عميقاً وطرقَ الباب برفقٍ، جاءه صوت أنثويٌّ من الداخل:

-مَنْ...؟

أجاب بوقار:

-دكتور أمجد..

انتظر لوهلةٍ حتى فُتِحَ الباب، فوجئ بنظراتها الغريبة الممزوجةِ بالدهشة وكأنَّ عينيها تسأله:

- ما الذي أتى بك...؟

فأشاحَ بصرَه عنها وتحدَّث مبتسماً:

-هل يمكنني الدخول..

أفسحت له الطريقَ فظهر من خلفِها سعدٌ، واستقبله بكلِّ حفاوةٍ، ثم سار به نحو الصالون، فجلس هو أوَّلاً ثمَّ أشار عليه بالجلوس، ثم نادى على "ليلى" طالباً منها أن تُعدَّ لهما كوبين من الشاي ثم وجَّه حديثه لأمجد:

-أهلًا يا دكتور.. كيف حالُك...؟

وضع "أمجد" يديه بين ركبتيه ونظر إليهما في خجلٍ واضحٍ، وأجاب بصوتٍ لا يسمعه ثالثٌ:

-بخيرِ حالٍ أستاذ سعد..

ثم انخفضت نبرةُ صوتِه وهو يتابع:

-كيف حالُ صحتك أنت...؟ إنما أردت الاطمئنان عليك..

اقترب سعدٌ برأسه منه وأعطى له أذنه اليسرى وقال بنبرةٍ مرتفعةٍ متسائلاً:

-لا تؤاخذني يا دكتور لم أسمعك...! هل قلت شيئاً...؟

تصبَّبَ "أمجد" عرقاً وحاول جاهداً أن يقتلَ الخجلَ الذي استحوذَ عليه وأعاد كلامَه بنبرةٍ مرتفعةٍ سمعتها ليلى وهي في مطبخها، فأجابه سعدٌ بثقة:

-الحمد لله في أحسن حالٍ، أشكرك على تعبك وسؤالك ومتابعتِك حالتي مع ليلى، لو كان لي ولدٌ ما اهتم لأمري مثلك..

كلماتُه بثَّتْ الطمأنينةَ في نفس أمجد وجعلته يرتكزُ بظهره على المقعدِ وبكلِّ ثقةٍ هتف:

-دعني أُصارحْكَ بأمرٍ: إنَّما أتيت إلى هنا للسؤال والاطمئنان على صحتك بجانب طلبٍ أردته لنفسي..، وأرجو أن أحصلَ عليه بكرمِك وأن أُصبح حقاً ابناً لك، فهذا شرفٌ لي، فمنذ وفاةِ والدي وأنا لم أشعر بالحنين لنطقِ تلك الكلمةِ بقلبي إلا عندما عرفتُكما ولأجل هذا جئتُك اليومَ طالباً منك يدَ الانسةِ ليلى لتصبحَ زوجةً لي و.....

لم يكمل كلامه إلَّا وقد فَزَّ سعدٌ واقفاً منتفضاً كمن لدغته عقربُ في عقلِه وهَمَّ بطردِه قائلاً:

-أخرج من بيتيَ الآنَ وإلا قتلتُك..

في تلك اللحظة شهقت ليلى شهقةً مرعبةً كأنَّ الروح انتُزِعت منها، ثم عادت لتلطمَ صدرها بدهشةٍ وأسندت ظهرها على الحائط ومن ثمَّ رأسها، أما عيناها فقد تضامنت مع عينَي أمجد في تساقط الدموع...!

خرج أمجدُ يحمل على ظهره صدمته وجبهته تمطر قطراناً، وقلبُه ينزفُ حسرةً، وما إن تجاوز البابَ حتى هبط على الدَّرج وأسند رأسه للحائط، بينما هرولَ سعدٌ مسرعاً نحو المطبخ، وكادت عيناهُ أن تغادر مقلتيه قهراً، وقلبُه مشقوقٌ إلى نصفين بفأس الصدمة، وعقلُه بركان ثائرٌ غاضبٌ يريد أن يقتصَّ من سُكَّان الأرض جميعاً ويحرقهم بلهيبه.

وعندما رآها جذبها من ذراعها بعنفٍ وقبضَ على شعرِها بقوةٍ وتساءل بغضب:

-أكان يطمئنُّ على صحتي عبرَ الهاتف كما أوهمتني، أم كان يهيم بك شوقاً وعشقاً...؟ انطقي يا فاجرةُ وإلا مزقتك..

ذرفت عيناها دمعاً كاذباً ولم تتفوَّه ببنتِ شفة، فهزَّ جسدها بعنفٍ شديدٍ وكأنها خشاشةُ أرضٍ بيدِ أسدٍ...! وصرخ في وجهها معيداً سؤاله فأجابته بتلعثمٍ ورجفة:

-لا أدري إنه مجنون ويهذي وأنا مثلك مصدومة، ولا أعرف كيف تجرَّأَ على فعل هذا...! صدقني لم يتخطَّ حديثُنا الاطمئنان عن صحتك.. أرجوك لا تقذفني بِتُهمٍ أنت تعرف أنني لم أقترفها أبداً.....

فترك ذراعها وقال متسائلاً ثم آمراً:

-أين هاتفك...؟ من اليوم لا حاجةَ لكِ به ولن تخرجي من المنزل أبداً إلا جثَّة هامدةً فإن أردتِ استعجالَ أمرك فاعصِ أمري...!

*****

عينان يتساقط منهما الدمعُ كما المطر؛ تدوران في غرفةٍ جدرانُها مهترئةٌ، وسقفُها يبكي من شدة الاستغاثات التي سمعها طيلة صمودِه، وعقلٌ عابسٌ للغاية يُفكِّرُ في اختراق أرضية الغرفة، يحفرها بمخالب النسيان علَّه ينْفُذُ من خلالها ولو لمستنقعٍ قذرٍ.. لا يهم...! المهم أن يخرج، أن يكسر القيودَ ويُطلُّ برأسه للعالم الخارجيِّ كفأرٍ خائفٍ في منزلِ بخيل، يتحيَّنُ فرصةً للهروب قبل أن يموت جوعًا، كلاهما ميَّتٌ لكنَّ الطريقةَ تختلف، كلاهما يبحث عن مخرجٍ ربما يستطيع الإفلاتَ بروحِه من قبضةِ عدوه، لكنَّ الحسرةَ تحاصرُهما والكون يرجمُهما بالخيبات كما يرجمُ الحُجَّاجُ إبليسَ بالجمرات، لازالَ الفأرُ يتلصَّصُ حتى لمحه البخيل، سار على أطراف أصابعه وجاء من خلفه، رفع قدمَه اليسرى عالياً وهبط بها فوق رأسه، ساواها بالأرض فخرج الدم من أذنه معلناً فقدانَه حياتَه، بينما رقص الجسدُ رقصته الأخيرة قبل أن يبصُقَ في وجه الحياة رافضاً الاستمرار فيها، مات شبيهُه ولازال هو يبحث بعقله عن مخرجٍ حتى سمع صوتَ البابَ يُفتح، فانتقل ببصره تجاهه فرأَى العميدَ مصطفى يدخل متفاخراً بنفسه وعيناه تلمعان بالنصر، ووجهُه بشوشٌ يَشِي بانتصارٍ قادم، ظلَّ يراقب ملامحه حتى اقترب منه وانحنى بقامته لينظرَ في عينيه بنظراتِه الخبيثةِ ويقول بتشفٍّ:

-انتهت اللعبةُ أيها الوغدُ الأمريكيُّ اللعين..

إثرَ جملته انتابَ الرجلَ القلقُ وأحسَّ أنَّ العالم كلَّه يرتعدُ بين أحضانه مثل قطةٍ مبللةٍ، ثم إنه لم يُعلِّق سوى بإيماءةٍ بسيطةٍ تدلُّ على عدم فهمِه فتابع العميدُ حديثه:

-جون أدريالكونور.. الرجلُ الأوّلُ في المؤسسةِ الجاسوسية الأمريكية..

ضحكاتٌ هستيريةٌ أطلقها الرجل أشعلت نار الغضب في وجهِ العميدِ فتبدلت ملامحُه وتوشَّحت بالسواد...! حتى صارت شبيهةً بملامحِ يائسٍ يجلس وحيدًا وجهًا لوجهٍ مع مصيره، لم يتمالك نفسَه ولم يستطع أن يُطفِئَ

جمرتَي النارِ اللتين توهَّجتا داخل عينيه، فقبض على سوطٍ وألهب به جسد الرجلِ الثائر وهتف متهكماً:

-لماذا تضحك أيها المعتوه...؟! لقد فُكَّتْ عقدتي معك وبقي أنْ أرى عقدةَ مشنقتِك ورأسُك تتدلَّى منها أمامي مثل كلبٍ أجربَ..

ردَّ عليه الرجل بصمودٍ بالغٍ ولازالت قهقهته تصدح:

-أتظن أن عقدتي قد انفكَّت حقًا، أم أنها في أوجِ لعناتها التي ستصيبك حتى بعدَ مماتي؟

استطاع بكلماته أن يجذبَ القلقَ لقلبِ العميد كما يجذبُ المغناطيسُ قطعةً نقديةً، وهكذا تَغْلُبُ عاطفةُ البؤسِ والشقاءِ عاطفةَ الفرحِ والانتصار..

*****

غَفَتْ كطفلةٍ هاربةٍ من معركةٍ طاحنة؛ فقدت فيها كلَّ ذويها، بحثت عن أُمِّها بين الجثث لعلَّ حضنها يخففُ من روعها فلم تجدها، التفَّتْ حول نفسِها ونامت، طيفُ أُمِّها هو من وجدها، أتت لتمسح دمعة عينيها، امتدت يدُها بكلِّ لطفٍ خوفًا من أن تؤلمَها، داعبت خُصَيْلاتِ شعرها برفقٍ، جففت خدَّها من الدموع، ثم أمسكت يدها الباردةَ لتدفئها بين كفتيها ...

فُزعت ريم وانتفضت على فراشِها، كانت تشعر بتلك اليدِ ولكن لا أحد بالجوار، جالت ببصرها تبحث عنه ثم صرخت:

-خالد...؟!

لا مجيب سوى ألمٍ ترك آثارَه على خدِّها الأيسر يحاكي صرختها، تحسَّست فمَها وطرف وجهها المتورم، لم تستطع أن تمرر يدها عليه، هرولت نحو المرآة، تأمَّلت وجهها الذي كاد ان يتشوَّهَ من ضربة خالدٍ، حتى أسفلَ عينيها اصطبغَ بالزُّرقة، أصابعه طُبعت على خدها.

بينما شفتها السفلى شُجت والدماءُ المتجمدةُ نائمة على فمِها، أكياسٌ من القهرِ انسابت من عينيها على هيئةِ دموعٍ، وقنينةُ خذلانٍ سامٍّ تفجَّرت داخل قلبها فقتلت خلاياه، بينما عقلُها لازال يقاوم ويتحدث بأنين:

-يا له من أنانيٍّ...! لا أصدق أنني هُنْتُ عليه لهذه الدرجة.. كيف طاوعَتْه نفسُه في أن يضرب الوجه الذي أطالَ من التغزُّلِ فيه وفي جماله ليل نهار، أم أنَّ شهوته أغلى من حزني وألمي...!

ألقى عقلها عليها أسئلته وبحث في أدراجه علَّه يجد إجابةً مُرضِيةً لنفسها، وحين فشل التزم الصمت حتى سمعَ صراخاً مكتوماً كصوت رجلٍ تحتَ الأنقاض يستغيث، أتاه من القلب وقد كان قاسياً بالقدر الذي غلفت به الحسرة قلبها:

-لابد أنَّ في اعتقاده أنها تستهزئُ به،

أو أنها لا تحبه أو ...

قاطعَه العقلُ مستشفَّاً ما لم يستطع القلبُ نطقه:

أو أنَّ هناك من دخلَ بيته قبله..

صرخةٌ قاتلةٌ فجَّرها قلبُها في وجه عقلها وأردف:

-اصمت أيها الأحمق، صاحبتُنا حجابٌ يُزَيِّنُ رأسُ الشرف، ولباسٌ يواري سوءةَ ذي السوءةِ، كلُّ ما في الأمر أنه لا يدري ما يحدث لها حتى هي نفسها لا تدري، فالْتَمِسْ لهما العذرَ ولا تتحاذق..

أنهت "ريم" حوارَ جوارحِها عندما خرجت إلى الصالون تبحث عنه:

-خالد.. أين أنت...؟

فتشت عنه بدقَّةٍ في أرجاء المنزل كمن تبحث عن مِخْيَطٍ...! انتابها القلقُ عليه، أخذت هاتفها، كانت حائرةً أتتصل أم لا...؟!

-لكنه ضربني بالأمس...! وجعلني أبكي ولم يأبَه لبكائي...!

لكنني أعشقه وهو زوجي وحبيبي ولو يعلم ما يحدث لي لَمَا ضربني.. سأتصل به.

جاءها الجواب بنبرةٍ خشنة خاليةٍ من روحه المُرَحِّةِ الحنونة:

-نعم يا ريم ماذا تريدين..

ارتكبت وتلعثمت وخرج سؤالُها من بين شفتيها بثقلٍ كطفلٍ حديث الكلام:

-أين أنت...؟

ردَّ بقسوةٍ أشد على نفسِها من لطمة البارحة:

-أنا في عملي؛ فهو أولَى بوقتي..

-ألست في عطلة.....

قاطعها قائلاً بجمود:

- أنهيت إجازتي وعدت لعملي..

ابتلعتْ ريقها بصعوبةٍ وقالت بصوتٍ مبحوح:

-سأُعِدُّ لك الغداءَ حتى تعود..

ردٌّ صادمٌ صارمٌ قتل ما فيها من حياة:

-لا غداءَ ولا عشاءَ.. سأنهي عملي وأعود إلى شقتي..

رمى قنبلتَه وأغلق الخطَّ بوجهها، فانفجر صمامُ البكاء في عينيها

*****

المجدُ للأرواح المنهكةِ التي رغم انتهاءِ صلاحيتِها إلا أنها تقاومُ اليأسَ بكلِّ ما أوتيَتْ من هشاشةٍ، تُعلِّقُ كلَّ الأشياء خلف الباب وترتمي على السرير خفيفةً مثل لا شيءٍ، تُفكرُ بقدرتها على الفناء بهذه الصورةِ الموحشة، تنتقل من دوامةِ المخاوف إلى هيئةٍ فارغةٍ، أكياسٌ من الفشل تنام في قبرٍ غيرِ مريحٍ بمكانٍ ما، يا للفكرةِ السيئةِ، كيف ستغرق هذا الخيال البشع في بِرْكةٍ من الحنان، امرأةٌ بقلبِ طفلةٍ تنام على سريرها، تنتظر رجلاً يهمه أن تتعافى من الجنون، وأن ترقد في حجرِه طيلةَ اليوم، رجلا يفهمُ أنها موسومةٌ بالنحسِ وأنَّ

آلافَ الخرافات تتولَّدُ في رأسها، وأنها تقف إلى النافذة تتخيلُ بحراً في الخارج رغم أنها تعيش في صحراءَ قاحلةٍ، رجلا يفهم حاجتها للكذب حين لا تكون مبتهجةً وتتظاهر أنها تتعفنُ سعادةً، تريده أن يُصدِّق أنها فرحةٌ وأن البحر الذي لا وجود له يدعوها للسباحة، وأن سقف غرفتها يهمُّه كثيراً أن تنظر إليه في الليل، وأن تستمر بالتحديق فيه حتى ينامَ.. تهدهده من مكانها على السرير فينامُ في مخيلتها المريضةِ ويُشخِّرُ بعمقٍ مثل جرارٍ قديم..

ها هو رجلُها يركلُ الباب بقدمِه ويهرول نحوها فاتحاً ذراعيه لاستقبالِها، فَفَزَّت عن فراشها وقفزت فوقه كطفلةٍ صغيرةٍ ثم ارتمت في أحضانِه وهتفت بسعادة:

جمال حبيبي لِمَ كلُّ هذا التأخير...؟ كدتُ أموتُ خوفاً عليك وشوقاً إليك.. لا تتركني ثانيةً.. خشيتُ أن يكون قد أصابك مكروهٌ..

ضمها إلى صدره بعنفٍ ولفَّ بها حول نفسِه وأجاب بسعادةٍ بالغة:

-لا تقلقي يا حبيبتي.. فأنا على وشك الانتهاء من تلك اللعبة القذرةِ وقريباً سأبني لكِ قصراً فيه من الخدم ما يفوق جيش دولة..

طبعت قُبلةً على جبينه وأردفت:

-لا أريد خدماً ولا قصراً؛ فقط أريدك أنت.. فما الدنيا عندي بمتاعِها وجمالها إلا نظرةً في عينيك.. لمسةً من يديك.. ابتسامةً على شفتيك..

قالت كلماتِها ثم شدَّتْه من يده وأجلسته بجوارها على الفراش مثل طفلٍ صغيرٍ وتابعت بقلق:

-أخاف عليك كثيراً من تلك اللعبة..

ربتَ على يدها وتحدثَ بثقة:

لا تخافي يا مقلةَ العين، أنا أعلمُ جيِّداً ماذا أفعل وأعلم أيَّ لعبةٍ سأخوضها؛ ومن أيِّ بابٍ سأدخل، كلُّ مفاتيحُهم أصبحت بيدي، واليدُ الأخرى بها أرواحهم وهم سيختارون..

سقطت دمعةٌ من عينيها فالتقطتها يدُه قبل أن تسيلَ على خدِّها، لكنه لم يستطع التقاط القلقَ الذي سال من قلبِها على هيئةِ كلمات خرجت من شفتيها حين أردفت بحزن:

-لكنَّ قلبي ليس مطمئنّاً.. أرجوك حبيبي لا تجعلني أفتقدك، أو أفقدك فأنا لا أطيقُ الحياة بدونك..

وضع رأسها على صدره وربتَ على ظهرِها وقال مداعباً:

-أحقاً تخافين عليَّ، ولا تُطيقين الحياة بدوني...؟

رفعت رأسها عن صدره ونظرت في عينيه وأجابت بثقة:

-أنت تعلم أنك نبضُ قلبي، وأنَّ الحياة بدونك عدمٌ.

تنفَّسَ بعمقٍ ثم ناداها بحب:

-أسماء..

خطفت قبلةً من عينيه بنظرةٍ مطوَّلةٍ وردت بهيام:

-يا قلبَ أسماءَ وعمرَها ورُوحَها..

ابتسم قائلاً بطمأنينةٍ:

-كيف أترُكُكِ وأنتِ روحي...؟! آه كم أعشقُ رائحتَك، وابتسامتك، وعينيك، ووجنتيك...!

كلّ شيءٍ فيك أعشقه..

تنهدت بعمقٍ وقالت بخوفٍ:

-عِدني ألا تتركَني وحيدةً..

أجاب مُداعباً:

-أعدُك يا قطَّتي.. كيف لهذا الجمالِ أن يُترَكَ وحيداً...؟

أجهشت بالبكاء ونزفت دموعها بغزارةٍ، وفتحت عينيها وصورتُه ماتزال محفوظةً داخلهما وهو يعدها ألَّا يتركها أبداً.

ليت اللحظاتِ الجميلةَ يقف عندها الزمانُ.

حملقت بعينيها في أنحاءِ غرفتها الكئيبة التي تبكي جدرانُها تضامناً ولا تزال رائحتُه بها، صوتُ صريرِ الباب جعلها تنتفضُ في مكانها.. ظنَّت أنه جاء وسرعان ما خاب ظنُّها حين تحقَّقت من كونِها منال:

-أسماء.. هناك أحدٌ في الخارج يسألُ عنك ويقول: إنه يعرف أخباراً عن جمال...!

ركضت إلى الخارج كالمجنونة وسألته بلهفةٍ:

- هل حقاً أنك من طرفِ جمال...؟!

أومأ برأسِه ثم وجَّه بصره نحو منالٍ ففهمت أسماءُ مقصده واستطردت:

-منال انتظريني خارجاً..

ما إن خرجت منالُ حتى تحولت عينا الرجلِ إلى كتلٍ ناريةٍ بعد أن كانت خضراءَ صافيةً، كذلك نبرته التي تحدث بها:

-ليس لديَّ وقتٌ لأفقده في الحديث معك.. أين الملف...؟

دهشةٌ جمَّدت حدقَتَي عينَيها وردت بتلعثم:

-عن ماذا تتحدث...؟!

هجم عليها كالثور الهائج وأمسكها من شعرها ثم رمقها بنظرةٍ حادةٍ كالذئاب وقال بغضب:

-ويحكِ.. أتستغبينني...؟ أين الملف...؟

تأوَّهت بشدةٍ وردت بألم:

-لا أعرف.. اتركني.. اتركني..

دفعها بقوة فارتطمت بالجدار وقال محذِّراً:

سأمهلُك أربعاً وعشرين ساعةً فقط، وبعدها سأجعل الكلاب الضالة تنهش لحمك..

تركها تلوذ بأوجاعِها وخرج منفوخَ الصدرِ، رافعاً رأسه لأعلى كمن ظفر بغريمِه، تجاوز البناية وصولاً إلى سيارته، وما إن فتح بابها وجلس خلف عجلة القيادة حتى خلع نظارته السوداءَ وأسندَ رأسَه للمقعد وتحدَّث بصوتٍ عالٍ كمن يُحدِّثُ شخصاً آخر:

-ما العملُ يا حازم...؟ هل تظن أنها تعرف شيئاً عن الملف، وهل ستخضع لتهديداتك...؟ محادثةُ القوصيِّ معك كان يتخلَّلُها الشرُّ..

لا..لا.. لا يستطيع فعلَ شيءٍ.. هو فقط يهمه الملفُ ولا أحدَ غيري يستطيع الحصولَ عليه..

تحدث مع نفسه وأدار محرِّكَ السيارة وانطلق بها وصولاً إلى منزله، ركنَ السيارة وترجَّلَ منها، وعلى الطرف المقابلِ هناك سيارةٌ سوداءُ بداخلها خمسةٌ رجالٍ ملثَّمين لا تظهرُ منهم إلا أعينُهم التي كانت تلمع في الظلام كعيْنَي حيوانِ ابنِ عِرْسٍ، حين لمحوه يتَّجه نحو بنايتِه وجَّهوا أبصارهم نحوه دون حديثٍ، تابعوه حتى اختفى عن أنظارهم وانتظروا حتى أوغلَ الليلُ في دياجيرِه، ترجَّل أحدُهم من السيارة وهرول نحو البناية من الخلف، نظر إلى أعلى حتى توقَّف بصره عند هدفِه، قام بتسلق ماسورةِ الصرفِ بخفَّةٍ كأنه عنكبوتٌ قضى عمره بالتسلق على الجدران، وصل إلى شرفةِ المنزل قفز بهدوءٍ محاولاً عدم إصدارِ صوتٍ.. تسلَّلَ بخفةٍ نحو الردهةِ، الظلامُ دامسٌ وهدوءُ الليل الموحشِ يعمُّ الأرجاء، أضاء مصباحاً صغيراً كان في يدِه لينير عتمةَ دربه، توجَّه إلى غرفةِ النوم، فتح البابَ بحذرٍ، مشى على رؤوس أصابعِ قدميه بدا كنملةٍ خائفةٍ من أن تفلتَ قطعةَ السكرِ التي تحملها، اقترب من الفراش ليرَى هدفه نائماً على ظهره، يغطُّ في سباتٍ عميقٍ، أخذ نفساً عميقاً وكتمه داخله ثم أخرج من جيبه سكيناً حاداً، ثمَّ حمل وسادةً من جانبه ووضعها على وجه النائم وبقبضته الحديدية كتم أنفاسه، حاول الرجلُ أن يُدافع عن نفسِه وأن يتملَّص من قبضته، قدماه كانتا تُجَذِّفان بقوةٍ كسباحٍ ماهر، ويداه تحاولان انتزاع الوسادة، لكنَّ القدرَ مكتوبٌ عليه بأن تكون نهايته الليلة، بحركة خاطفةٍ وسريعةٍ نحره كما تُنحرُ النعاجُ من رقبتها، ظلَّ واقفاً بجواره حتى لفظ أنفاسَه الأخيرة، ألقى عليه نظرة الوداع ثم خلع عن وجهه القناع لدقائق حتى يلتقط أنفاسه، ارتداه مرة أخرى وعاد إلى رفقائه من حيث أتى حاملاً معه رايةَ النصر.

*****

# الفصل الحادي عشر

رداءُ الحزن يليقُ بقلبِه الممزق من خيبة الأمل، داءُ اليأس أصابَ عقله، عيناه اللامعتان عشقاً كشمس الصباح كادت أن تبيضَّ من شدة الحزن، اختار العزلةَ في منزله والزهدَ في العمل، واضعاً تعاسته أمامَ عينيه يَندب حظَّه، وقد أزّتْه معدتُه من شدة الجوع، جوفُه خالٍ إلا من دخانِ سجائره وقلبُه المشتعل ناراً كموقدةٍ قديمةٍ رصدت للاحتراق ....

شاردُ الذهن يرتشفُ سيجارةً ينفثُ دخانَها في قارورةِ حُزنه علَّه يختنقُ ويرحل عنه.

طرقاتٌ خفيفةٌ على الباب قطعت عليه خلوته، قام بجسده المتثاقلِ، فتح الباب فإذ بصديقِه وخليلِ قلبِه " الدكتور علاء" يستأذنُ بالدخول، رمقه بنظراتِه المنهكةِ ولم يتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ، عاد لأريكته وسجائرِه، لحق به صديقُه ليجلسَ بجانبِه، يتأملُ حاله بتعجُّبُ منه، يسألُه بنبرةٍ قلقةٍ وغاضبة: أمجد.. هل أنت بخيرٍ...؟ لماذا تُغلِقُ هاتفك، وكذلك الصيدلية...؟

الإجابة: سحابةٌ من الدخانِ كادت تخنقُ صديقه، سعلَ بشدةٍ وأزاحَ الدخانَ عن وجهه براحته ثم خطفَ السيجارةَ من يده وأطفأها وتابع حديثَه:

-منذ متى وأنت تُدخِّنُ...؟ هل أنت أمجدُ أخي وصديقي أم أنك مسخٌ منه...؟!

ترقرقت الدموعُ في عينيه وأخرج سيجارةً أخرى أراد أن يُشعلها، ولكن منعه علاءٌ وحطَّمَ السيجارةَ بين أصابِعه ثم هزَّ كتفيه بقوةٍ وتساءل بحزم:

- تحدث.. أجبني.. ما الذي آل بك إلى هذه الحالةِ المزرية...؟

خرج الكلامُ من بين شفتيه مخنوقاً تُشيِّعُه دموعه:

-لا شيءَ...! فقط متعبٌ وأُريدُ الراحة..

قبض علاءٌ على ذقنه ليرفعَ وجهه تجاهَه بعد أن خفضَه أرضاً، ثم نظر في عينيه الدامعتين وهتف بقهر:

-أمجد منذ متى وأنت تكذب...؟

حتى عند وفاةِ والديك لم تكن بهذه الحالةِ...! أيُّ مصيبةٍ أعظمُ من فقدانهما في آنٍ واحدٍ...؟! ومع ذلك كنت صامداً كالجبال، لكنني الآن أراك هشَّاً مثل بقايا رمادٍ أذرته رياحٌ خفيفةٌ استطاعت أن تُبعثره...! بل إنَّ دخانَ سجائرِك يستطيع أن يفعلَ بك ذلك...! قل لي ما بك...؟

أسند رأسَه للمقعد وصمت لوهلةٍ يبحث عن مبررٍ يُقنعُ به صديقه اللَّحُوحَ؛ فهو يعرفه جيداً.. لن يتركه دون أن يطمئنَّ عليه ويقتنعَ بحديثه.. ثوان وتحدث بألم:

-علاء.. اطمئنَّ.. أنا بخيرٍ فقط أريد أن أُغلقَ الصيدليةَ وأغادرَ هذا المكان.. لم يعد يريحُني ولا يُعجبني..

هزَّ علاءٌ رأسَه عدَّةَ مراتٍ ثم تكلم:

حسناً.. فهمتُ.. إنَّ أحداً في هذا الحيِّ هو من تسبَّبَ لك في تلكَ الحالةِ، لكن لن أترك اليأسَ يتملك منك.. الحلُّ الوحيدُ للخروج منه هو العمل...

نفخَ أمجدُ بضيقٍ والتزم الصمت، فتابع علاءٌ حديثه:

-العملُ يا صديقي هو الحلُّ، أليس هذا كلامَك لي؛ أم أنك تُسدي النصائحَ ولا تعملُ بها...!؟

ضاق صدرُ أمجدَ وتحدَّثَ بتهكمٍ:

-علاء.. قلت لك لم أعد أُطيقُ المكان.. أشعرُ كأنَّ الموتَ يرقصُ في عيني هناك، وأنَّ الحياةَ لم تَعَدْ إلا كَحذاءٍ ذي كعبٍ عالٍ في قدمَيّ امرأةٍ مجنونةٍ تسير فوقَ رأسي..

ربتَ علاءٌ على كتفِه، وأردف ممازحاً:

-لن تذهبَ للحيِّ ولن تُغلقَ الصيدليةَ وستظلُّ تعمل.. ستأخذُ مكاني في صيدليتي وأنا سأذهبُ لتلك المرأةِ المجنونة وأخلعُ عنها حذاءَها وأدقُّ به رأسها..

ابتسامةٌ باغتَتْ ثغرَه لم يستطع منعَها من الظهور لممازحةِ صديقِه، ثم وافق على مضضٍ بعد أن أصرَّ علاءٌ على هذا الاقتراح..

*****

قدمانِ تتجوَّلانِ في الغرفة تحملانِ جسداً مُتلفَاً وعقلاً خارجَ الحدودِ يبحثُ عن فقيد، وقلباً يبكي بشدةٍ يشتاقُ إليه، وذاكرةً تعجُّ بالمواقف المؤثرةِ؛ منها الرومانسيةُ ومنها الصادمةُ، تناقضاتٌ شتَّى وجوارحُ مبتورةٌ داخلَ جسدٍ أنهكه المرضُ وتكالبت عليه الصدمات ولكن صاحبتَه لازالت تقاومُ من أجل حُلمٍ تمنَّتْه قديماً فتمثَّلَ أمامها في هيئة رجلٍ أودع سرَّه في خزانة قلبِها ومنزِلِها ثم رحلَ دون عودةٍ، ذهب وتركها تتخبط بين أزقَّةِ الاشتياق ومغاراتِ الأوغاد التي ساقها القدرُ إليها حتى أنَّ تلك المغارات أصبح لها قدمانِ وساقٌ ولسانٌ وشفتان، جاءت تُهدِّدُها في عُقرِ دارها:

-يبدو أنَّ القادمَ سيكونُ أصعبَ بل سيتحوَّلُ إلى جحيمٍ يحرقُ الجميع..

هكذا هتفت أسماء وهي تدورُ حول نفسِها فخرجت صديقتُها منالُ عن صمتها، تلك التي كانت تجلس على مقعدٍ بجوار الباب تشاهدُها في صمتٍ تامٍّ وردت بثقة:

-الصبرَ يا أسماءُ، دقائقَ ويأتينا الخبرُ اليقينُ..

التفتت إليها أسماءُ وهزَّت رأسها دون فهمٍ، فأكملت منالُ حديثَها باستفاضة:

-انتابني الخوف حين رأيت وجه هذا الرجلِ الكئيبِ، لكنني كنت على أملٍ أن يكون حاملاً للخير رغم قُبحِ هيئته، وحين تركتكما معا استدعيت عاصماً

وطلبت منه أن يتبع أثر الرجل بدراجته النارية دون أن يلمحه ويأتينا بالخبر اليقينِ عنه؛ فلا تقلقي.. فإنَّ خلفك امرأةً بمليون رجلٍ من أمثال هذا..

ضحكت أسماءُ واقتربت من صديقتِها، ثم ارتمت بأحضانها.

ابتسامتها كانت ممزوجةً بالقهر، ضحكت رغم أنَّ قلبَها ينزف ألماً وخوفاً ممَّا هو قادمٌ.. طال عناق الصديقتين حتى قطعته دقاتٌ قويةٌ على الباب فابتسمت منالُ ممازحةً:

-جاء هادمُ اللذات ومفرِّقُ الجماعاتِ عاصمٌ ولد منصور..

تقدمت أسماءُ نحو البابِ ثم فتحته فدلف عاصمٌ ثم جلسَ على المقعد ووضعَ ساقاً فوق أخرى وقال بغرور:

-فنجانَ قهوةٍ يا منال هانم بعد إذنك..

اقتربت منالُ منه ودفعت ساقَه بيدها حتى استوت بأختِها ثم هتفت بحنق:

-المفيد يا عاصم.. ودعك من هذا الغرور..

ابتسمت أسماءُ ابتسامةً حزينةً وقالت موجهةً حديثها لمنال:

-دعيه يلتقط أنفاسه..

ثم تابعت:

-أنا مَنْ ستُعِدُّ لك القهوةَ يا عاصم..

ردَّ عليها قائلاً:

-لا.. لا.. يا ست الحسن والجمال، كنت أمزحُ فقط، الرجلُ ليس برجلٍ عاديٍّ؛ بل هو ضابطُ شرطة.. تتبَّعتُ أثره حتى منزِله وأشعلت سيجارةً لحارس العمارة التي يسكن بها وعرفت منه اسم الضابط ومقرَّ عمله..

ابتلعت منالُ ريقها بصعوبةٍ بالغةٍ ثم تساءلت بدهشة:

-ضابط شرطة.. إذن: فماذا يريدُ مِنك..؟

نظرت إليها بعينين دامعتين وأجابت بغموضٍ:

-يريد الحياة..

رمت جُملتَها وتوجهت نحو المطبخ لتُعدَّ فنجانَ القهوة لعاصمٍ؛ فلحقت بها منالُ وقالت مستفهمةً:

-ماذا تقصدين...؟

صمتت حتى أعدَّتْ القهوةَ وأثناء ما كانت تسكبُها في الفنجان تحدثت بغموض:

-العالمُ كلُّه الآن محشورٌ في هذا الفنجان...! والأوغادُ يسكبون على رأسِه قهوةً من جحيمٍ مثلما أفعل أنا الآن، لكن هل نحن نشاهده وهو يحترق أم نحن من المحترقين...؟

ضيقت منالُ عينيها في إشارةٍ إلى عدمِ فهمِها لما قالته أسماء، ثم حملت الفنجان وخرجت وتبعتها أسماء، وظلَّ الثلاثةُ يتحدثون حتى الصباحِ، ثم طلبت منهما أسماءُ أن يُسديا لها خدمةً فهتف الاثنان بصوتٍ واحدٍ:

-حياتُنا فداءٌ لكِ..

ابتسمت في وجهَيْهما وقالت:

-ستذهب يا عاصمُ لترى صديقَك حارسَ البناية ربما يشتاقُ لسيجارتك، ونشتاق نحن لمعرفة إذا كان هذا الوغد لازال نائماً أم أنه استيقظ وذهب لعملِه، أمَّا أنتِ يا منالُ فستذهبين لمقرِّ عملِه بعد أن تتأكدي من أنَّ عاصماً لازال في بيته، وتتقَصَّي أخبار جمالٍ من العساكر هناك، ربما هو تحتَ قبضتِه ونحن لا نعلم.

*****

بيتُ الأشباح، ذلك البيتُ الذي لا يمتُّ للحياةِ بصلةٍ يسكنُه شَبَحانِ، أحدُهما يجلسُ الشكُّ داخله يمنعُ ظهورَ ملائكةِ الابتسام من الاقتراب منه، يقتل جنودَ السعادة ويُحوِّلُ رأسه لمستنقعٍ قذرٍ تغوصُ فيه جرذانُ الحاجة، تتغذَّى على ديدانِ الشهوة؛ فلا تترك له منفذًا لينعمَ بجسدٍ يعجُّ بالأنوثة، عجزُه الظاهرُ أصبحَ شبحاً آخر قتل الحبَّ داخله وربَّى الشك حتى أصبحَت

له مخالبُ وخطاطيفُ، أمَّا الأخرى فَحِنْطَةُ صبرِها نَفِدَتْ والقحطُ قد امتد لحوافِّ جسدِها واستعمرها بالكامل؛ حتى أصبحت مفلسةً من السعادة، وحظُّها نزفَ كثيراً أكثر من اللازم لكي تستسيغَ الحياة.. هذه الحقيقةُ الواضحةُ كانت لابد أن تفرحَ كثيراً.. تفرحُ فقط.. دون خوفٍ دون تسمياتٍ أخرى لشعورِها في تلك اللحظة، لذا عزَمَتْ أمرها وتوجَّهت نحو دولابِ ملابسِها وارتدت فستاناً أبيضَ اللونِ به نجومٌ زُرقٌ تُزيِّنُ جوانبه وأوسطه كأنها السماءُ تسير على قدمين.. وصلت إلى الردهة؛ فرأته جالساً وبيده فنجانُ قهوتِه سألته ببرود:

-أتريدُ شيئاً قبل أن أذهب...؟!

تفحَّصَها جيداً إلى أنْ سقطَ الفنجانُ من يده وارتعدَ في جلسته كمن رأى عفريتاً...! ثم تساءلَ بجمودٍ:

-إلى أين...؟

رمقته بنظرةٍ لا مبالاةٍ وتابعت السير نحو البابِ وهتفت بحزنٍ:

-أريد أن أذهبَ لأتسوَّقَ.. فإنَّ الروحَ مني ضَجِرَتْ والقلبُ تململَ...!

فأكلَها بنظراتِ الريبةِ، ثم زفر في ضيقٍ حتى بدا كثورٍ هائجٍ مُحمرِّ العينين، وتحدث بحزم:

-ومن أعطاك الإذنَ بالذهاب.. ممنوعٌ أن تغادري خطوةً من المنزل..

خلعت حقيبتها من ذراعها ورمتها أرضاً، وتأهَّبتْ لمعركتها الكلاميةِ كمن يستعدُّ لحربٍ طاحنةٍ ثم تهكَّمت عليه قائلة:

-آلا تفقه يا رجل، قلت لك: إن روحي ضجِرت.. أريد الخروجَ لعلِّي ألتقط أنفاسَ الحياةِ قبل أن أموت هنا خنقاً.. نسيتُ شكلَ الشوارعِ والطرقاتِ، حتى وجوهُ الناس لم أعد أذكرها..

إنَّ الحياةَ أصبحت لا تطاق، محبوسةٌ بين أربعة جُدران منذ أن طلبَ أمجد يدها، كيمامةٍ حُكِمَ عليها بالسجن بقفصٍ، ولأنَّ سجَّانها أحبَّ شكلها قصَّ لها ريشها وسلبها سرَّ جمالِها كي لا تتركه وتُحلِّقُ بعيداً عنه، بل إنَّ هذا

المنزلَ أصبح كقبرٍ مهجورٍ ترقص به الأشباح؛ وهي المجبرةُ على خدمتهم كجاريةٍ في بلاطِ الشيطان..

نهض سعدٌ بجسده المتهالك، غضبُه تحوَّلَ لطاقةٍ شبابيةٍ حلَّت ببدنه، يدُه المرتجفةُ كخشاشةٍ مُتيبسةٍ تذروها الرياحُ يميناً ويساراً، تحوَّلت لكفٍّ ضبعٍ ولطمت وجهَ ليلى؛ ولكنَّ لطمتَه لم تردعها عن الكلام، بل زادت من حطبِ جرأتِها المشتعلة، وطعنته بخنجرٍ مسنونٍ محمومٍ في رجولته:

-أتحسب أن كفَّك ستردعني لا.. وألف لا.. ويا ليت قوتَك التي أظهرتها بضربتك هذه، تظهرُها لي في مكانٍ آخر وإن لم تتركني أخرج سأتصلُ بريم وأخبرها بكلِّ شيءٍ.. كلَّ شيءٍ..

هوى بجسده على أقربِ مقعدٍ واحتضن رأسه بين كِفَّتيه دون أن يردَّ عليها، فحملت حقيبتَها وخرجت، صفعت الباب خلفها وامتدت يدُها داخل حقيبتِها وأخرجت مرآة صغيرةً، نظرت لوجهها المتوهِّجِ حمرةً، واطمأنَّتْ أن أصابعَ يده لم تطبع بعدُ على بشرتها الرقيقة، أعادت المرآةَ مكانَها وهرولت نحو الشارع، ساقتها قدماها إلى صيدليةِ الدكتور "أمجد" تحسست قلبَها لتتأكد أنه لازال في مكانِه ثم دلفت، وإذا بالصدمةِ التي خيَّمتْ على ملامحِها حين رأت شخصاً آخرَ جالساً على مكتب أمجد، سألته بتلعثم:

-أين الدكتور أمجد...؟

استشفَّ من ملامحِها وتلعثمها في السؤال أنها الشخصُ المقصودُ فأجاب بكذب:

دكتور أمجد سافر..

*****

وقفت على الرصيفِ تشاهدُ المارَّةَ وتتمعَّنُ في ملامحهم وبين الحين والآخرِ تنظر في هاتفها، لا تبالي بحرارةِ الجوِّ التي تلسعُ جبينَها ووجهها البضِّ، عرقُها يسيل بغزارةٍ فتتجاهل تجفيفه، وتظل تتجول بعينيها في الطرقات حتى جاءها الاتصالُ المنتظر، رفعت الهاتف على أذنها وأنصتت للمتحدث، ثوانٍ وخفضت الهاتفَ ووضعته في حقيبتها وبنظرةٍ سريعةٍ رمقت الطريق المتجهةَ فيها، اقتربت من الشارع المذكور بحثت بعينيها عن قسم الشرطة، لا شيءَ يدل على أنه هنا، البنايات مصطفَّةٌ بجوار بعضِها البعض كمقابرَ فاخرةٍ، السياراتُ على جانبي الطريق دون حركةٍ، يبدو أن الشمس في هذا المكان حذرت البشر والجماد من السير في الطرقات، الكلُّ ساكنٌ حتى أوراقُ الشجر لا يداعبها الهواء وإن كان حارَّاً.

ظلت تبحث عن أحدٍ تسألِه فلم تجد، غيَّرت مسارها واتجهت لشارعٍ جانبيٍّ علَّها تلمح أحداً من المارة به، اهترأت قدماها واستحوذ اليأسُ على عقلِها، قررت أن تُكملَ مسيرَها لآخر الشارع وإن لَّم تجدْه فستعودُ أدراجها، من بعيدٍ لمحت جنديَّيْن واقفيْنِ كصنمين، اعتقدت أنها تهذي أو أنه سرابٌ...! فأشعَّةُ الشمس الحارقةُ كفيلةٌ أن تجعل الأدمغةَ تغلي وتُغرقُ الأجساد في نهرٍ من خيالٍ، فركت عينيها بقوةٍ وراحت تُهرولُ نحوهما:

حقَّاً إنه القسمُ الذي أبحث عنه..

اقتربت من أحدِهما وسألته بنبرةٍ منخفضةٍ:

-هل تعرفُ سجيناً هنا يُدعى «جمال عز الدين «...؟

أجابها باقتضاب:

-لا أعرف شيئاً هنا سوى حراسةِ هذا القسم..

في هذه الأثناءِ خرج من القسم رجلٌ ببذلةٍ ملكيةٍ.. اقترب منهم وسألها مستفسراً:

-ما الأمر...؟

ردَّ الجنديُّ سريعاً:

-تسأل عن سجينٍ يُدعى جمال عز الدين..

رمقها بنظراتٍ ماكرةٍ واستدارَ بظهره نحو البنايةِ ثم أمرها أن تتبعه، سارت خلفَه حتَّى وصل إلى مكتب المعاون "سعيد" وأمرها أن تنتظره لدقيقةٍ واحدةٍ، وقفت أمام المكتبِ ثمَّ طرق هو البابَ ودلف دون أن ينتظرَ إذناً.. أغلق الباب وسرعانَ ما أخرج هاتفَه واتصل، لا مجيبَ عليه، عاود الكَرَّةَ من جديد.. زفر في ضيقٍ وهمهم قائلاً:

-ردَّ يا سعيد بك..

عشرُ دقائقَ مضت ولم يأته جوابٌ، فكر لوهلةٍ أن يتصل بحازمٍ، أخذته الرهبةُ لثوانٍ ثم فعلها، جاءه ردٌّ مُجحِفٌ:

-ماذا تريد أيها الأحمقُ لتقطعَ عليَّ خَلوتي مع النوم...!

مرَّرَ ريقَه عبرَ حلقِه بصعوبةٍ بالغة وأجاب:

-معذرةً حازم بك.. هناك فتاةٌ تسأل: هل السجينُ جمال عز الدين هنا...؟ وقد أبلغني سابقَاً سعيد بك ألَّا يعرفَ أحدٌ بأمر هذا السجين، وكنتُ قد اتَّصلتُ عليه كثيراً لأعرفَ كيف أتصرَّفُ مع تلك الفتاةِ لكنَّه لا يجيب.

فَفزَّ حازمٌ في أعقابِ ذلك الحديثِ من فراشه منتفضاً كمن لدغته حيَّةٌ سامَّةٌ وهتف بتركيزٍ:

-ما اسمها...؟

نظر المتحدث في هويتها وأجاب:

-منال فهيم صالح..

عاد حازمٌ بذاكرته أدراجاً، فتذكَّرَ أسماء حين قالت لصديقتها:

-انتظري خارجا يا منال..

قطَّبَ ما بين جبينيْه وقال بذهولٍ:

-معقول...! كيف عرفت القسمَ...؟! ولماذا في هذا اليوم تحديداً...؟!

وأثناء شروده تحدثَ المتصلُ باستفسار:

-ما العملُ يا حازم بك...؟

انتبهَ حازمٌ لسؤاله وأجابه بدهاء:

دوِّنْ كلَّ معلوماتِها عندك، وقل لها أنك بحثتُ عنه فلم تجده وخذ منها رقمَ هاتفها مع وعدٍ منك لها أنك ستهتمُّ لأمره وتبحثُ لها عنه في جميعِ الأقسام التابعةِ للدولة.

أغلق حازمٌ الهاتف ونهضَ عن فراشِه والغضبُ ينبعثُ من عينيه كقدرٍ يغلي على حجرٍ، ثم غمر وجهه في المياه الدافئةِ وارتدى ملابسه وقبل خروجِه أرادَ أن يُرطِّبَ على قلبه المتوهَّجِ ففتح الثلاجةَ وأخذَ منها زجاجةً من المياه الغازيَّة في يده وخرج، هبط الدرّجَ وصولاً إلى الدور السُّفليِّ، رنَّ جرسَ الشقَّةِ فلا مجيب، فمدَّ يده إلى جيبِه وأخرجَ مفتاحاً وفتح الشقةَ ودلف وهو ينادي على سعيدٍ بنبرةٍ مرتفعةٍ غاضبة:

سعيدُ.. أين أنت...؟ ماذا أصابك أيها الأحمقُ هل أُصِبتَ بالصممِ...؟! لماذا لا تجيبُ على الهاتف...؟!

تملَّكه شيءٌ من الريبة.. توجَّه نحو غرفةِ النوم، لمح البابَ مفتوحاً الشيءَ اليسير، كتابوتٍ لم يُغلق كي لا تتعفنَ الجثةُ داخله، فتح البابَ وهو لازال ينادي عليه، أتت مكابحُ الصدمةِ لتشُلَّ حركتَه لتسقطَ من يدِه المشروباتُ الغازية، تجمَّدت حدقاتُ عينيه وفتح فمَه كمن انفجرَت في وجهه عبوةٌ ناسفة.

منظرُ دماءِ سعيد التي جعلت من سريره بركةً من موتٍ غادر، جسدُه الغارقُ بها، وعيناه اللتان سُلبت الروحُ منهما وهم يطلبان النجدةَ من غرقِ النهاية، المنظرُ البشعُ الذي رآه جعل الصدمةَ تفترس قلبه، والارتباكَ يسيطرُ عليه، عادَ بجسده المرتعدَ من هولِ المنظر إلى الوراء، أسقط زهريةً متمركزةً على طاولةٍ صغيرةٍ؛ مما جعله يفزعُ أكثر ليتعثَّرَ بكرسيٍّ ويقعُ أرضاً وهو يصرخ ببحَّة:

-كنتُ أنا المقصود.. أنا كنت المقصود...

كان من الطبيعيِّ أن يواصلَ التفكير، حتى آخرِ رمقٍ...! ويجابِهَ الشكَّ.. يصارعُه ويصرعُه، يتفحَّصُ دولابَ ذاكرته جيداً ليتوقف عند مشهد رؤيتِه لبابِ شقته مفتوحاً، يجولُ ببصره يبحث عن شيءٍ ما يدلُّ على أنَّ أحدَهم قد دلف إليها في غيابه، لا شيء.. لا شيء.. كلُّ شيءٍ كما تركه- لكن.. من دخلها.. ولماذا...!؟ أظن أن حياتي أصبحت محاطةً بالخطر...! ولابد من حيلةٍ ما أو ضحيةٍ ما أو فخٍّ أنصبه لهم- تذكَّر حين أبلغه سعيدٌ أنه سيتغيَّبُ عن العمل غداً لأنه منشغلٌ بالبحث عن سكنٍ جديد، تذكَّرَ أيضاً حين لمعت في رأسه فكرةُ أن يقطنَ سعيدٌ بتلك الشقة ويصعد هو إلى شقةِ والده في الدورِ العلويِّ ليتابعَ من بعيدٍ ما سيحدثُ لمعاونِه وها هي المصيبةُ الكبرى حلَّت على رأسِ سعيدٍ، قُتل غدراً عن طريقِ الخطأ..

لا يعرفُ أَيُهنِّئُ عقلَه على ذكائه وتوقعاتِه أم ينعي حالَ رفيقِه أم يحتاطُ للخطرِ القادم نحوه...! أسئلةٌ كثيرةٌ دارت برأسه بعد أنِ استوعب الصدمةَ؛ لكنْ لا مجالَ أمامه الآن سوى أن يُؤجِّلها حتى تنتهي التحقيقات، أخرج هاتفه من جيبه واتصل على مساعدٍ له يُدعَى سامح، أبلغه بالواقعةِ وطلبَ منه أن يتَّصلَ بالنيابةِ العامة ويبلِّغَهم بالواقعة.

وبعد مرور ساعةٍ امتلأت الشقةُ بأصحاب البذل السوداء وبعضٍ من مرتدي الزيِّ العسكريِّ وعلى رأسهم وكيلُ النائب العام "خالد" والذي بدأ يتفحَّصُ الشقة، مخارجها ومداخلها، ستائرها وأرضيتَها ونوافذها حتى تأكد أن كلَّ شيءٍ بها لم يقترب العنفُ منه فأيقن حينها أن القتل لم يكن بغرض السرقة، لكنَّ سؤالاً ما كان يدورُ في عقلِه دونَ إجابة؛ لماذا قُتلَ المعاون سعيدٌ في شقةِ المقدِّم حازم...؟!

أمر رجاله برفعِ البصمات ثم وجَّه سؤالاً للمقدمِ حازم:

-حازم بك، أليست هذه شقَّتَك...؟

أومأ حازمٌ برأسه تأكيداً فتابع خالدٌ بسؤال آخر:

-إذن: أنت مَنْ كانَ مقصوداً..

صمت حازمٌ ولم يجبه، فاستأنف خالدٌ استجوابه:

-من تظن أنه وراء هذه الجريمةِ...؟

هنا تحدث حازمٌ مُبرِّراً:

-خالد بك: أنت تعرف أنَّنا مستهدفون وأنت أيضاً نفسُ الشيءِ ويصعبُ علينا تحديدُ الجُناةِ، لكن أعدُك أنني في أقرب فرصةٍ سأُقدمُ الجاني لحبل المشنقة بيدي، أنت لا تعرف مدى العلاقةِ التي كانت تربطني بالملازم سعيد، لم يكن مجردَ زميلٍ في العمل، بل كانت تربطني به علاقةُ صداقةٍ وطيدة...

قاطعه خالدٌ قائلاً بذكاءٍ وهو يُديرُ بصرَه في سقف الغرفة:

-أعرف جيداً مدى العلاقةِ التي كانت تربطكما؛ لذا افتداك سعيدٌ بروحِه أو ربما افتديت نفسَك أنت به..

تلعثم حازمٌ في الكلام وهو يقول:

-ماذا تقصد...؟

لازال بصرُ خالدٍ عالقاً في السقف وعقلُه مع مُحدثه.. وحين انتهى من سؤالِه أجابه خالد:

-لا شيء حازم بك سوى أن الجاني يقطن هنا..

ابتلع حازمٌ ريقَه بصعوبةٍ بالغةٍ...! ولم يستطع أن يكبحَ غضبه أكثر من ذلك فانفجر في وجهِ خالدٍ قائلاً باستياء:

-أتتهمني بقتله يا خالد بك، لن أسمح لك بذلك..

رمقه خالدٌ بنظراتِ ارتيابٍ وابتسمَ قائلاً بعد أن قد تأكَّدَ أنَّ شيئاً ما بداخل هذا الرجلِ يُخيفه ويرعبه:

-حازم بك لا أتهمك بشيءٍ؛ لكنَّك لم تلحظ ما أشيرُ إليه بإصبعي، القاتل داخل هذه الكاميرات وحين يتم تفريغها سنعرفُه حتماً سنعرفه.

*****

# الفصل الثاني عشر

بعد أنْ خاب أملُها ولم تجد سبيلاً للهروبِ من حالتِها سوى أن تعودَ لعملِها، قطعتِ الإجازةَ وذهبت إلى مصلحةِ الطبِّ الشرعيِّ، استقبلها زملاؤها بسعادةٍ بالغةٍ، كادت ذراعها أن تنخلعَ من كثرة المصافحات، وكذلك جسدُها الذي تململ كثيراً من عناق زميلاتِها، وحين انتهت ألقت بجسدها على المقعد والدموعُ عالقةٌ في عينيها كرأسِ بريءٍ في مشنقةٍ، تفحَّصت التقاريرَ أمامها ووضعت بعض التوقيعات عليها، وسرعانَ ما استدعاها رئيسُها طالباً منها اصطحابه لموقعِ جريمةٍ ما، فذاك الرجل يثق بعقلها ودائماً ما كان يشيدُ بذكائها في التعامل مع جثث القضايا الجنائية المعقدة، لم تكن هي أكثرَ فرحاً بعودتها للعمل ورؤية زملائها منه، لذلك عندما علمَ بوصولِها قرر أن تُرافقَه، لملمت أوراقها وعلَّقت حقيبتَها في ذراعها وأبدت له استعدادها للذهاب، خرج الاثنان من المكتب وتوجها إلى السيارة الخاصة بالعمل، تحرَّك السائقُ بهما حيث أشار له رئيسُ الطبِّ الشرعيِّ، وأثناء طريقهما لمح الرجلُ الحُزن المقيم داخل عينيها فسألها بقلق بالغ:

-ريم أنتِ تعرفين أنني أعتبركِ ابنتي.

ابتسمت في وجهِه ابتسامةً خفيفة وردت بثقة:

-حقاً يا دكتور طارق، يشهد الله أنني أيضاً أعتبرُكَ والدي، لكن لِمَ السؤالُ...؟

ربت على يدِها وأردف:

-أرى الحزن مستوطناً على ملامحك، وليست هذه هي المرةَ الأولى...! بل يومُ زفافِكِ أيضاً ولولا أنَّ الحرج منعنِي وقتها من سؤالك لفعلتُ؛ فإن كنتُ حقاً أباكِ فاحكي لي ما بك...!

ترقرقت الدموعُ في عينيها وهتفت بإيجاز:

-لا تقلق عليّ يا دكتور.. سأكون على ما يرامُ.. أعدُك بذلك..

التقط الرجلُ بفِراستِه ما لا تودُّ البوحَ به؛ فاحترم رغبتها وغيَّرَ مجرى الحديث علَّه يأخذها من حزنِها بعيداً، حيث بدأ يسرد لها قصةَ آخرِ جثةٍ قام بمعاينتِها وكم كان يحتاج سرعةَ بديهتها وكم أرهقته زميلتُها دعاءُ في استيعابِ ما طلبه منها أثناء التشريح، ما دعاه إلى أن يقولَ لها وقتئذٍ:

-لو أنَّ ريمَ هنا لَمَا احتجتُ أن أتفوَّه بحرفٍ واحد، بل حتى لو ظللت محتضناً سريري ولم أحضر، ولَجَاء التقريرُ الوافي إليَّ دون ريبٍ في صحته..

*****

- جون أدريالكونور، المتهم بالتخابر لصالح دولةٍ أجنبية، والسعيِّ وراء جمعِ معلوماتٍ تضرُّ بقوميةِ بلادنا لصالحِ دولتِه، لذا قررت المحكمةُ العسكريةُ الحكمَ عليه بالإعدامِ شنقاً بعد أن ثبت لدينا إدانتُه فيما ذكرناه آنفاً..

نطقَ قاضي المحكمةِ العسكرية بالحكم على المتهم بعد أن اطَّلعَ على الأرواق التي تُثبت إدانته، وبعد أن رُفعتِ الجلسةُ رقصت شياطين الفرح على مسرحِ قلبِ العميد مصطفى، وكذلك رقصت في عيْنَي معاونِه جلال، بينما ارتسمتْ علاماتُ التعجبِ على وجه المتهم، وجِدَّةُ عينيه أكلت العميدَ الذي خفضَ بصره حين وقعت عيناه في عيْنَي "جون" .

لم يستطع العميدُ مصطفى أن تتلاقى نظراتُه مع نظراتِ الأخير، الجملةُ التي ألقاها على مسامِعه في آخر حوارٍ كان بينهما لازالت تُؤرِّقه، بل كانت سبباً

في عدة كوابيسَ قامت بزيارته في منامه ويقظته الأيامَ السالفة، لا يعرف لِمَ كلُّ هذا الرعبِ الذي يسكنه كلما تذكر مقولةَ الرجل، لم يكن أوَّلَ شخصٍ يظلمه، لكنه الأولُ الذي أرعبه ولا زال يُرعبه..

سرعان ما أعادوه لزنزانته بعد أمرٍ من العميد مصطفى للجنود، دفعوه داخلَها وأغلقوا الباب، فارتكنَ إلى زاويةٍ فيها وأدار ذاكرتَه للوراء قليلاً حين سمعَ كلمات القاضي وهو ينطقُ حروف موتِه، خرجت من صدره تنهيدةُ النهاية وتمتم مع نفسه:

-وأخيراً سيموتُ الانتظار..

الانتظارُ الذي نخرَّ رأسي كَنخرِ السوسٍ وانسلَّ منها حتى أهلك حجرات قلبي..

دارت عيناه في الزنزانة يتأمل جدرانَها التي تروي حكاياتِ السابقين، قرأ رزنامةَ أيامِهم وتقويمَ حياتهم، وأجندات ذكرياتهم التي حشروها في ثقوبِ الأرضيةِ كبيوتٍ للنمل، العناكبَ التي سكنت أركانَ السقفِ وكانت شاهدةً عليهم، أصواتَ الأنين.. الاستغاثاتِ التي كان يسمعها بين الفينةِ والفينة، رغم قساوتِها إلا أنه سيشتاق لها، الفأرَ الذي شاركه فتاتَ خبزِه، تأمَّله بعينين دامعتين وخاطبه:

-أتعلم.. حتى أنت سأشتاقُ إليك...! رغم أني أشمئِزُّ منك إلا أنك كنتَ تُؤنس وحدتي..

واغرورقت عيناه بالدموع، وجالت في صدره كلماتٌ صداها ملأ فراغ عقله:

لا يهمُّ أنني سأموتُ غداً أو بعد غدٍ، المهم أنني لست مقتنعاً بما قاله المعتوه هذا، وذلك في حدِّ ذاته أمرٌ جيِّدٌ للحدِّ الذي جعلني أنتصرُ عليه..

تحدَّثَ مع نفسه، ثم فجأةً صاح بأعلى صوته ليهزَّ أركانَ الغرفة والغرفِ المجاورة:

-أيها العميدُ.. موتي ليس النهاية؛ إنه بدايةٌ لجحيمك الأبديِّ..

*****

في تمامِ الساعة الثانيةِ ظهراً وفي هذه الحرارة القاتلة.. في رفقٍ دفنَ رأسَه أسفل وسادتِه، تذكر الكابوسَ الذي لازمه طويلاً، ذاك الحلمَ الذي يباغته كلما غفتْ عينُه.. نهض وتحرَّك بخطواتٍ سريعةٍ نحو الباب، ثمَّ قام بالضربِ عليه بعنفٍ مثل سجينٍ منسيٍّ منذُ العصرِ الحجريِّ، تَعِبَ وعاد إلى فراشه، تكوَّرَ على نفسه مثل أحقادٍ يُربِّيها الجفافُ على ضفافِ نهرٍ بخيلٍ، لا يذكر أيَّ شيءٍ سوى أنَّ قلبه قناديلُ موقدةٌ، وحشراتِ الخوف تلتفُّ حولها، بكى بشدةٍ كغيمةٍ اعترفت بضعفِها للريح، فسمع صوتَ طرقاتٍ تدقُّ قلبه عبر البابِ، تحسَّسه فخانته لمساتُه.. فلازالت الطرقاتُ تعلنُ عن نفسها، تتبَّعَ أثرَ صوتِها، فنهض منكسراً وجرَّ نفسه إلى الباب ثمَّ فتحه ليَجدَ أمامه "سفيان"...! ألقى عليه السلامَ ودلف ثم تابع:

-كيف حالك يا أحمد...؟ لدي خبرٌ جيِّدٌ لك أو ربما حُلمٌ أراد تحقيقَه الكثيرون ولم يحظَ به غيرُك...! الأمير يريد رؤيتك..

احمرَّ وجهُ الفتى وهتف بتلعثم ممزوجٍ بالدهشة:

-الأمير.. رؤيتي أنا...! ماذا فعلت...؟ هل أخطأتُ في شيء...؟ فعلت ما طلبتموه مني..

ربت الأولُ على كتفه وردَّ بابتسامة:

-لا تخف.. فلربَّمَا أراد أن يكافئك...!

سأنتظرُك حتى تُبدِّلَ ملابسك...

وفي غضونِ بضعِ دقائقَ كانَ قد تجهَّزَ؛ ثمَّ خرج سفيان ومن ورائه أحمدُ الذي جرَّ خلفه قلبه المغلول بسلاسلَ من رعبٍ، ولمَّا وصلا إلى هناك طرق سفيانُ البابَ وانتظر الإذن بالدخول.. وبعدَ ثوانٍ دلف ثم أبق أحمد خارجاً.. ألقى السلام على الرجل المستلقي على أريكته:

-السلامُ عليكم يا شيخنا..

رد السلامَ دون أن يعتدلَ ثم أمرَ سفيانَ بالجلوس لدقائقَ وتابع:

-سردتَ لي مهاراتِ الفتى وبسالتَه ونجاحَه في كلِّ مُهمةٍ أُسندت إليه، هذا الأمرُ عظيمٌ جداً، لكن ما زلنا نجهل حقيقتَه رغم نجاحِه في الاختبار الأول..

أومأ سفيانُ برأسِه تفهماً وقبولاً ثم تحدَّثَ بطاعة:

-الأمرُ لك يا أميرُ ونحن جميعاً طوعُ إشارتك..

ابتسم الرجلُ وقال بسرورٍ:

-بارك الله فيك سفيان.. أدخله علينا وقل لزينبَ تستعدَّ..

نهض سفيانُ عن مقعدِه وتحرَّك نحو الباب.. أشار لأحمدَ بالدخول ثم أغلق الباب خلفه، وقف أحمد على الأعتاب مطأطأً رأسَه في خجلٍ، اعتدل الأميرُ في جلسته وأشار له بالتقدم، تحرك حتى أصبح قُبالتَه، تفحصه الأميرُ جيداً وتساءل:

-سمعت عنك الكثيرَ والكثيرَ من إخواننا، لكنني لم أسمع عنك منك فهلَّا حدثتني عن نفسِك...؟

تصبَّب أحمدُ عرقاً وانتظر لوهلةٍ حتى جلبَ الكلام إلى شفتيه وأخذ يُتمتم:

أنا شوكةٌ أتعبها وخزُ جلدِ هذا الزمن، وكنت أبحثُ عمَّن يسحبُني من عمقِ هذا التيه.

أنا وتدٌ أراد أن ينكسرَ ولم تسعفني حِدَّةُ الهذيانِ فامتدَّتْ فروعُكم وأنقذتني.

أنا من وضَّبت خيباتي وصدماتي سابقاً وحملت جرحي النازفَ وركضت خلف الريح..

أنا شيءٌ من العدم أصبح له وجودٌ بينكم..

كان الزعيم يستمع له بتركيزٍ بالغ، تدهشُه كلماتُه التي فهمها على مضضٍ، تلك الكلماتُ التي قتلت جانباً من الشكِّ في قلبه وأوقدت الجانبَ الآخر حتى بلغ قمةَ غليانِه، لم يكن أمامه سوى أن يُخضِعَه للاختبار الثاني علَّه يقتلُ به الجانب المتوهج.

صفَّقَ الزعيمُ بيديه؛ ففُتِحَ البابُ وظهر سفيانُ ومن خلفه وجهٌ أنثويٌّ بضٌّ يجذبُ القلوب لسحرِهِ وفتنتِه، كلٌّ من رآه سابقاً تقطَّعت شرايينُ قلبه كما قطعت نسوةُ امرأةِ العزيزِ أصابعهن عند رؤيةِ يوسف.. عينان لوزيتان لا تكادُ تعرفُ أهما خضراوان اللون أم عسليتان، أهما مخلوقتان من الزمردِ مع قطراتٍ من العسل، أم من عسلٍ مع شذراتٍ من الزمرد، لكنك فقط تدرك أن لونهما من الجنة، الحاجبان رُمحان رومانيان يظللاهما، وأهدابٌ اصطفت واحداً تلو الآخرِ كالجنود الوسيمين لحراستهما، لكن لا يعلمون أنهم زادوهما سحراً وجمالاً مما جعل لصوصَ الجمال يسرقون النظراتِ أكثر وأكثر، الثغرُ مرجانةٌ نُحتت بإتقانٍ، تزينه شفتان على هيئة ريشتَي نعام، الجسدُ لوحةٌ فنيةٌ لا عيب فيه ولا عوج كأنه لحوريةٍ سقطت من الجنةِ وتمثلت لنا بشراً تُدعى زينب.

تاه أحمدُ في تفاصيلها وظلَّ الزعيمُ يراقبُ ملامحَه ويبتسمُ في نفسِه ويقول: سينجحُ اختبارُنا الثاني..

طال الصمتُ وحلَّ التأمُّلُ مكانَ الكلامِ حتى أخرجهم سفيانُ من صمتهم وقال: زينب هنا.. كما أمرت يا أمير..

ضحكَ الأميرُ ضحكةً عارمةً وأردف:

-أحمد أنت اليوم من المقربين لنا وهذه هديتُنا لك..

اتَّسعت مقلتا أحمدَ في ذهولٍ وردَّ بخجل:

-هديتي أنا.. كيف...؟

ربت الأمير على يدِه واستطرد: سنزوجُها لك..

تدافَعَ سفيانُ بالكلام مستفسراً:

-لكنه لا يملك إثباتَ هويةٍ..

جاء الردُّ من وسط ضحكاتِ الأمير العالية:

-ليس لمثلِكَ أن يقولَ بهذا يا سفيان...! إثباتُ الهوية بيدِ الأوغاد.. ونحن لا نعترف بأحقيَّتِهم في تحديدِ مصائرنا.. اليومُ الأخيرُ من الأسبوعِ القادم سأعقدُ قرانَهما بنفسي..

*****

غرفةٌ ليس بها غيرُ الجمادِ وبعضٌ من حياةٍ يقودُها شهيقٌ وزفيرٌ يُواصلان عملهما في جسد حازمٍ المتقوقعِ خلف مكتبِه، يرويان رئتَي الخوفِ داخلَه ويُغريان كلابَ الرعبِ لتنهشَ قلبه وعقلَه وتدفعُه نحو سريرِ الموت البطيءِ ليتمدَّدَ عليه منزوعَ الراحة.. خاوياً من الأمان.. مجرَّدَاً من الشجاعة؛ حتى أنه انتفض رُعباً حين رنَّ هاتفُ مكتبِه ورمقَه بعينين خائفتين ثم بيدٍ مرتجفة رفعَ السماعة ووضعها على أذنه وأنصتَ للمتحدِّثِ:

-ألو.. حازم..

ميَّزَ الصوتَ فعرف أنَّ من يُحدِّثه هو اللواء رفعت القوصي، فأجاب بجمودٍ استدعاه من خبرتِه العريقةِ في مجاله الأمنيِّ:

-ما زلتُ على قيدِ الحياةِ سيادة اللواء...!

احتدَّت نبرةُ اللواءِ في الردِّ عليه:

-من فعلها يا حازم...؟

قهقه حازم وأجاب:

-سؤالٌ ساذجٌ سيادةَ اللواء، لكن لديَّ جوابٌ واحدٌ.. حازمٌ لن يرحلَ عن هذا العالم وحدَه، وإنَّ ما تبحثُ عنه تحتَ قبضتي...! وما دامت حياتي وعملي في مأمنٍ فأنت أيضاً في مأمن، وما حدث لسعيدٍ سأعتبره ضريبةَ نجاحٍ ولن ألتفت خلفي بعد الآن..

قال كلماتَه وأغلق الخطَّ في وجهِ اللواء ونهضَ عن مقعدِه وأشعلَ سيجارةً لينفثَ دخانَها في النافذة ويقهقه، وكأنه كان في أمسِّ الحاجةِ لهذه المكالمة كي يقتلَ بها الخوفَ الذي تملَّكه ويشعرَ أنه ما زال على قيد الحياة، وقبل أن ينتهيَ من سيجارته دُقَّ بابُ مكتبه برفقٍ ودلف المعاونُ سامح وبيده حُزمةُ أوراقٍ وضعها أمامه وتحدث بإيجاز:

-التحريات أثبتت أنَّ هناك شخصاً آخرَ استدرجَ حارسَ البنايةِ في الحديثِ عنك وقت وقوعِ الجريمةِ وكذلك كاميرات المراقبة التقطت له عدَّةَ صورٍ وهو يتجوَّلُ حول البناية في الصباح..

تنفَّسَ حازمٌ الصُّعَدَاءَ وهتف بسعادة:

-رائعٌ يا سامح.. هل توصلتم له...؟ وماذا عن الجاني.. هل استطعتم تحديدَ هويته...؟

اعتدل سامحٌ في جلسته وأردف:

-جارٍ البحثُ عنهما.. لا تقلق حازم بك.. في أقرب وقتٍ سيكونُ الاثنانِ أمامك..

أثناء حديثهما معاً، سمعا طرقاتٍ خفيفةً على الباب.. وقد كانت لمخبرٍ يستأذنُ في الدخول يحمل في يده ورقةً.. فأشارَ برأسِه تحيةً لحازمٍ فأجابه بإيماءةٍ هو الأخرُ يأذن له فيها بالكلام، ثبَّتَ المخبرُ بصره صوبَ الأرضِ وتحدَّث موجِّهاً كلامه لسامح:

-سامح بك تمَّ التعرُّفُ على الشخص الثاني في قضيةِ قتلِ سعيد بك، وفي تلك الورقةِ اسمُه وعنوانُه..

ابتسم سامح ونهض عن مقعده وأمرَ المخبرَ أن يطلبَ من القوَّةِ الاستعدادَ فنهضَ أيضاً حازمٌ ووضعَ مسدسه في حزامِ بنطالِه وتحدث بحزم:

-سأذهب معك يا سامح ...

*****

# الفصل الثالث عشر

عادت إلى منزِلها وحيدةً بعد عناءِ يومٍ طويل، خلعت عن وجهِها قناعَ الصمود الذي ارتدته باكراً لتخفيَ وراءه هشاشةَ روحِها، حملت روحَها إلى قبرها الصغيرِ وتحسَّست قلبها، شعرت أنه فاسدٌ كتفاحةٍ عضَّها الطاعون، ألقت بنفسِها على فراشِها وأغمضت عينيها، لكن يبدو أن قلبَها لازال على قيد الحياة...! بل إنه نبت له منقارٌ حادٌّ وبدأ ينقر نفسه شوقاً إلى خالد، آلمَتْهَا الطعناتُ من الداخل فأرادت أن تُهدِّءها، بحثت عن مسكنٍ فما وجدت إلا قميصَه الذي خلعه قبل أن يُغادر المنزل، لا زال مصلُ عرقِه به، جذبته واحتضنته، ارتجفت وبكت حنينا إليه، تمنَّت أن يُلَوِّحَ لها بقلبِه قبل أن تغيب ملامحَها، قبل أن يخنقَ عطرُ الأماكن القديمة أنفاسَ الظلام، قبل أن ترى نفسَها وحيدةً في هذا الحطام، متوسِّدةً فجائعَها، تُقْلِدُها الطبيعةُ أوسمةَ الخرابِ ونياشينَ الهزيمةِ كأنها وليمةٌ للخسارة تلوك لحمها بأسنانها وتبصقها كطفلٍ يبصقُ قلبه لليتم، كأن الظل يسبقها لاستراحةٍ طويلةٍ، كأنَّ الشمسَ تشرقُ من فمِها، والكونُ يتدلَّى من نافذةِ العدم كأنها فوقَ الأرض وحدها وكلُّ ما دونها هباء ..

غابَ نورُ عينيها وسط بكائها، فشعرت بمسحةِ كفٍّ حانيةٍ على وجهها المرهق، انتفضت فرأته أمامها، لم تصدق نفسَها أنه عاد، أنها بين يديه الآن، ارتمت في أحضانه وصرخت:

-خالد لا تتركني ثانيةً..

ثم ضربت على صدره بكلتا يديها وتابعت بعتاب:

-تركتني وكنت قاسياً جداً في هجرك وخصامك.

التفت بجانبها فلمح قميصه، فأمسكه ثم أشاحَ بوجهِه بعيداً عنها وهو يقول:

-عدت لأنه يتوجَّبُ عليَّ العودة، والدتي عادت من سفرِها ولا أحبُّ أن تعلمَ عن مشاكلنا شيئا، لذلك أنا مضطرٌ للمكوث هنا، إن كان هذا لا يزعجك...!

كانت الدموعُ تنساب على وجنتيها دون توقف، فعلى الرغم من أنه فشلَ في أن يقنعها بكلامِه، لكن مجرد جرأته على القول أحدثت هُوَّةً سحيقةً بداخلها، وحمَّتْ وطيس المعركةِ الدائرةِ بين قلبها وعقلها...!

حاولت أن تتحدث فخرج منها الكلامُ غيرَ مفهومٍ في البداية، وسرعان ما احترقت بنار كبريائها فهتفت مباغته:

-لا عليك يا سعادة وكيل النيابة.. يمكنك المكوثُ والذهاب أيضا متى شئت.....

هتف صوتٌ في نفسها قائلا:

- بما أن الذهابَ والعودةَ خاصٌّ بالمنزل فلتعد متى شئت، وأسأل الله أن يثبِّتَ مقامَك في قلبي...!

فرت من عينها دمعةٌ، شعرت للحظات أنه سيزيلها ولو بنظرة منه، لكنه بدلاً من ذلك قام من مكانه متوجِّهاً نحو الغرفةِ الأخرى وهو يقول:

- اطمئني.. فأنا لن أزعجَكِ ألبتة.. يمكنُك اعتباري ضيفاً أو مستأجراً، ولن أُقلقَ راحتك أبدا...!

سكب جرعةً مركَّزةً من السمِّ في كأسِها وأسقاها إياه بدون حولٍ منها ولا قوة..

أغلقت بابَ الغرفة وجلست خلفه تصرخُ بصمتٍ، وهي تضعُ كفَّتيها على فمها، لم يستطع أن يفهمَ ثرثرةَ قلبها ولم يعبأ بها، فقد عزمت على ألَّا تُريَهُ دموعَها بعد اليوم.

شعرت بأنَّ ذلك الخالد لم يدقَّ قلبُه لها يوماً، أزفتِ الأزفةُ فباتَ مألوفاً للعين، عدوَّاً لكبريائها...!

*****

صورةٌ مهترئةٌ لسيناريو يتكرر بين الفينة والأخرى لتستمر الحياةُ بوتيرتها المعقدةِ وتفاجئنا في مرحلةٍ خاطفةٍ ب كش ملك، تجرُّنا نحو الهاوية، تقذف بنا داخلها دون رحمة، يموت معظمنا والبقية تغوصُ في الظلمات تبحث عن بصيص ضوءٍ لمصباحٍ في يد وغدٍ يقايضُ به الحياة كما تقايضُ الكلابُ العظامَ بالنباح، هنا حيٌّ شعبيٌّ مزدحمٌ بالخلق، كلٌّ يبحث عن لقمة عيشه، الزحام يخنق الجميعَ كعصافيرَ جائعةٍ تركت السماء وتجمعت حول فتاتِ خبزٍ ثم جاء غرابٌ جائعٌ برفقة نسر مجنونٍ واتفقا على تفرقتهم.

سياراتٌ عسكريةٌ اقتحمت الشارع حتى أصبح بئرةً من فوضى عارمةٍ، الضجيجُ الصاخب تسلل إلى مسامع أسماء ومنال، فتحت منالُ بابَ المنزل، وقفت تراقبُ ما يحدث..

نزل حازمٌ وعناصره كقطيعٍ من الضباع الهائجة، انقضوا على عاصمٍ لينهشوه بأنيابهم الجبانة، كبَّلوا يديه خلف ظهره وطرحوه أرضاً ثم انهالوا عليه ضرباً بهراواتِهم، لم تحتمل منالُ ما شاهدت، ركضت مسرعةً نحو عاصمٍ وألقت بجسدِها فوقه لتفديه بنفسها، جاءتها ضربةُ هراوةٍ شجَّت رأسها ثم ركلَها حازمٌ بقدمه بعيداً عن عاصمٍ، عندما رأت أسماء صديقتها بهذا المنظر لم تتمالك أعصابها، هرعت نحوها كالمجنونة؛ أبعدت حازماً عنها، رمقها بنظرات تحدٍّ دون أن يتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ، اقترب أحد رجاله منها، أراد أن يذيقها ما ذاقت صديقتها، لكنَّ حازماً منعه، وكأنه أراد أن يقول لها-أريدك حية- ركضت هي نحو صديقتها، ضمت رأسها إلى صدرها ورمقت عاصماً بنظرةٍ حزينةٍ مليئةٍ بالقهر، لم يكن بمقدوره سوى أن يطمئنها بعينيه فالألم

الذي تعرَّض له كبَّلَ حتى فمَه، حملوه كما يَحملُ زبال سلته وألقوه داخل عربتهم ثم ذهبوا إلى جحيمِهم، هنا تجمَّعَ رجالٌ من الحيِّ على أسماء وصديقتِها ليساعداهما بعد أن فقدت منالُ وعيها، حملوها وذهبوا بها لأقرب صيدليةٍ، استقبلهم عند الباب الدكتور أمجد، وكان قد شاهد جزءاً مما حدث، أخذ يصيح بوابلٍ من الغضب على رأسِ حازمٍ وأعوانه، لكنَّ حازماً لم يسمع منه شيئاً فقد فر فرحاً بغنيمته....

التفت إليهم وطمأنهم ثم أستأذنهم أن ينصرفوا، فبقيت معها أسماء، استعادت منالُ وعيها بعد عِدَّةَ محاولاتٍ من أمجد، ثم عقَّمَ جرحها ولفَّه بضمادةٍ وابتسم في وجه أسماء ابتسامةً صافية، أراد أن يُخفِّفَ عنها وطأة ألمها رغم أنَّ قلبه ينزف ألماً لِمَا رأى، ثم أردف:

-هدِّئي من روعك ولا تقلقي.. الجرح ليس عميقا وستستردُّ عافيتها في أقرب وقت، فقط احضريها إلى هنا غداً لأطهره لها وأُبدل الضمادة.

تحدثت أسماء بصوتٍ منخفضٍ وقلقٍ، خرج من بين دموعها الكثيفة:

- هل تحتاج لأن نذهب للمشفى...؟

- لا يا سيدتي.. الجرح سطحيٌّ ولا تحتاج سوى للراحة فقط..

هدأت أسماءُ قليلاً، ثم نظرت لأمجد وشكرته بامتنانٍ وتساءلت:

-أنت تعملُ مع دكتور علاء أليس كذلك...؟ لكن أين هو...؟

ابتسم أمجد بعذوبةٍ، ثم ردَّ بإيجاز:

- أنا صديقٌ لعلاء، وسوف أباشرُ عمله هنا لعدةِ أيام....

أومأت برأسِها تفهما ثم انصرفت بصحبةِ منال، كان عقلها يعج بالكثير من الأسئلة التي تُفضي إلى طريقٍ واحدٍ؛ أنها كانت السبب فيما حدث لعاصم، لذلك كانت تتحاشى النظرَ لعين منال التي غلَّفها الحزنُ بردائه....

بعد صمتٍ دام لدقائقَ تحدثت أسماءُ بمزاحٍ في محاولةٍ منها لانتزاع الحزن من قلب صديقتها؛ فهي تعلم جيداً مدى عشقها لعاصمٍ:

-الدكتور الجديد كان قلقا عليك للغاية...

ابتسمت منال بانكسارٍ حين تذكرت ما حدث لعاصمٍ، وانفطر قلبُها بأسىً فتابعت أسماء بترددٍ:

-منال.. أتظنين أنَّ عاصماً قد.....

قاطعتها منالُ بثقةٍ:

- عاصمٌ لن يتحدثَ أبداً ولن يسمح لأحدٍ أن يؤذينا.. ثقي في ذلك..

*****

الحبّ ليس إلا عابرَ سبيلٍ يحملُ على ظهره كيساً مثقوباً، مع كلِّ مسيرٍ له يسقط كلّ ما جمعه من حصادٍ، فيعود خاويَ الوفاض، لا زرعَ فأثمرَ، ولا هو أطعمَ فأشبع، نصب لنا قضباناً، وأورثنا أشواكاً، تغتال نبضاتنا المُرفرفة وتُمزق أجنحتنا، أردنا أن نصولَ ونجول، ونغرِّدَ بلحنٍ شجيٍّ عذبِ الألحان، لكنَّ حناجرنَا دأبت على الخذلانِ وأصبحت صرخاتُها منهوبةٌ تُهشَّم الوجدان، واليوم مذعِنون للوهم حدّ الألم، ننسج من أعمارنا سّلماً موسيقيَّاً بين أحداثٍ ماضيةٍ غَصّة بالحنين، وشوقٍ مهزوم سلّم رايةَ الاستسلام، وربما نقتل أنفسنا بأيدينا إن لم نحظَ بمن نحب، أو يقطفُ أحدُنا أزهارَ شبابِ الآخر ويتركه جسداً بلا حياة كحالِ سعد، ويلهثُ في البحث عن فراشةٍ أخرى يمتصُّ رحيقَها كي يُرضي شبقَه كما تفعل ليلى، منذ أن هددت سعد وهي لا تجلسُ في البيت ساعةً واحدةً، بينما هو لا يترك سريره دقيقةً واحدة، هي تلهو في الخارج وهو يصارعُ القهرَ والموتَ في الداخل، والآن جاءَ موعدُ خروجها؛ فارتدت ملابسها الفاتنة التي تشعل نيران الشهوةِ في الرجال لمجردِ لمحةٍ لها، فستانٌ أحمرُ احمراراً قانياً مرصعاً بأحجارٍ برَّاقةٍ، كقوسِ قزحٍ يلمع في الظلام ، وضعت على وجهها الملائكيِّ مساحيقَ فاقعةِ اللون حولتها لنديمة إبليس، قبل أن تهمَّ بالذهاب تعطَّرت بعطر فواحٍ يُهيِّجُ الأنفاس والنفوس، أما ذاك العجوز الذي ينتظر قطارَ الموت فقد كان يراقبها بعينين جفَّ منهما الماء وتحولتا لصحراءَ بائسةٍ.

جسدُه الممددُ على سريره كشجرةِ توتٍ ماتت عروقُها وتحولت لحطبٍ لا حياةَ فيها تصلح للحرق فقط، حاول الحراك ليمنعَها ولكن يا للأسفِ فات أوانُ الشباب والقوة التي تردعُها منذ زمن..

بدأ بتجميع حروفه من حنجرته المتعفنةِ من رطوبةِ المرض، وبصوتٍ هزيلٍ منكسرٍ نطق:

-اليوم أيضا ستخرجين.. مثل كلِّ يوم...؟!

صوته أوقفها للحظات، ثمَّ استدارت برأسها ولم تتحدث بل اكتفت بنظرةِ اشمئزازٍ سريعة، كأنها تنظر لجيفةٍ قذرةٍ ماتت منذ أمدٍ بعيد، غادرت المنزلَ تاركةً خلفها سعداً هائماً بأوجاعِه وقهره..

كانت وجهتُها للملهى الليليِّ الذي اعتادت الذهابَ إليه لتفرغَ شحنتها المكبوتةَ وتعودَ لمنزلها منطفئةً بعد أن فشلت في الوصول إلى أمجد.

فتحت البار ودخلت.. الأضواءُ الحمراءُ تطغى على المكان حتى أصبح شبيهاً بوكرِ جانٍّ، في حفلةٍ أقامها لبنِي جنسِه احتفالاً بولادة جنِّيَةٍ عقيمةٍ بعد زواجها بخمسمائة عامٍ.

هذه الليلةَ تختلفُ كثيراً عن سابقاتها فمن الوهلةِ الأولى خطفت ليلى أنظارَ كلِّ الرجال بل خطفت ألبابهم أيضاً، دون أن تكترثَ لأحدٍ منهم، خلعت معطفها وضعته على كرسيٍّ وبدأت بالرقص الهستيري، في الركن الأيسر من القاعةِ فلمحها رجلان يشربان الخمر تحيطُهما بعضُ الفتيات من كلِّ جانبٍ، لكن من يرى ليلى لا يرى سواها..! عيونهما أكلت جسدها، ولعابهما سال عليها؛ فقرر أحدُهما أن يراهن الآخر، فوافق صديقُه وكان الرِّهانُ على أن يُقدِّمَ كلٌّ منهما لها كأس خمرٍ على شريطةِ أنْ يكونَ من ستأخذ كأسَه الفائز ...

تملَّك التعبُ من ليلى، جلست تلتقطُ أنفاسَها، اقترب النادلُ منها ووشوش لها في أذنها وهو يشير بإصبعه نحو طاولة الصديقين:

-هذانِ الرجلان يدعوانِكِ للجلوس معهما..

فلم تمانع، بل نهضت وتوجَّهت نحوهما بخصرها اللعوب وخطواتِها المغرية، شعرها الحريريُّ المتناغم على أصواتِ الموسيقى؛ بكلِّ خطوةٍ تقتربُ منهما يزيدُ نبضُ قلبيهما حتى وصلت إليهما، قام أحدُهما وأفرغَ مكانه لها، وبنبرةٍ مغازلةٍ تحدث:

-تفضلي؛ فالقمر لا يجوز أن يجلس وحيداً ما دامت النجوم حاضرة.

ابتسمت ثم جلست، فغمز المتحدثُ لصديقه بنصف عينه في إشارة منه لأن يبدأ في الرهان، ملأ كلٌّ منهما كأسه وقدَّمه لها، فضحكت بميوعةٍ وقبلت كأس الذي تنازل لها عن مقعده، فنهض الثاني بخزيٍ وقال بحزن:

-هنيئاً لك يا صديقي..

انغمست ليلى في السُّكر حتى أنَّ عقلها ذهب بعيداً وترك جسدها يتمرَّغُ في أحضان الرجل على سريره..

*****

على متن طرَّادٍ سريعٍ في منتصف البحر جلس الأميرُ مع اللواء رفعت القوصي يتجاذبان أطرافَ الحديث فيما بينهما حولَ مقتلِ الملازم سعيد، بدأ الحوارُ هادئاً حتى احتدم صدرُ اللواءِ وظهرت على ملامحه علاماتُ الغضب التي لم يستطع أن يكتمَها داخلَه فأخرجها عبر كلماتٍ قذفَها بحدَّةٍ في وجه الأمير:

-لماذا قتلتموه...؟ أو بالأحرى أردتم قتل حازم، رغم أنكم تعلمون أنه من رجالي والمسئولُ الأولُ عن العثور على الملف...؟

بابتسامةٍ باردةٍ أجابه:

-سيادةَ اللواء نحن لم نقتل أحداً، أمَّا الملفُّ فأنت المسئول عن ضياعه...! وبسبب إهمالك تعرضنا جميعاً للخطر ولا زلنا لا نعرف من أين ستأتينا الطعنةُ، وأظن أن هناك طرفاً آخرَ يعبث في مصالحنا، فلا تبحث عن

شماعةٍ تُعلّقُ عليها أخطاءك، ولا تظن أننا ممحاةٍ ستمسح تجاوزاتِك، فاحذر من سقطات لسانِك أمامنا، وبدلَ أن ترمينا بالاتهامات الباطلة، كثِّف جهودَك في الحصول على الملفِ فعثورُك عليه هو ممحاةٌ لذنوبك، واستقرارُك آمنًا فوق كرسيك..

نبضت عروقُ جبينِ اللواء بشدةٍ وتخشَّبت ملامحه وهتف متهكماً:

-إنِ اعتبرتُ هذا تهديداً واضحاً، فسأقلبُ الدفَّةَ على الجميع، فجميعُنا في مركبٍ واحد..

قال كلماته ونهض، فأمسكه الأميرُ من يده وتحدث إليه بهدوءٍ ممزوجٍ بالدهاء:

-اجلس يا رجل ولا تغضب؛ فحديثُنا لم يكن تهديداً ولن يكون...! فنحن لا نُهدِّدُ بالكلام، ولا نهددُ رجالنَا أو مَن تربطنا بهم علاقةٌ وطيدةٌ..

بعد دقائقَ من الشدِّ والجذبِ أخذ الحوار شكلاً آخر، بل عاد لهدوئه الأولِ كما بدأ، ثم استأذن اللواءُ في الانصراف بعد وعدٍ قطعه على نفسه أن يحصل على الملفِّ في أقرب وقتٍ ممكن..

أعطى اللواءُ إشارةً لسائق اليخت الذي حضر به أن يتقدم ليُصبحَ بمحاذاةِ يخت الأميرِ كي تتسنَّى له المغادرة، وحين ذهبَ اقترب سفيان من الأميرِ وابتسمَ في وجهه ثم تحدث مستهزئاً باللواء:

-كاد الرجلُ يبكي مثلما تبكي المرأةُ حين يغضبُ عليها زوجها..

ضحك الأمير ضحكةً عارمةً وردَّ بمرح:

-ومن قال لك إنه لم يبكِ حقاً، يا سفيان.. الرجالُ من هُم مِنَّا فقط...! وغير هذا؛ فالكلُّ عرائسُ خشبيةٌ نحركهم كيفما نشاء على مسرح الحياة وحين نزهد فيهم نحطمهم تحت أقدامنا..

تبادل الرجلانِ الضحكات وحين انتهيا، هتف سفيان مستفسرًا:

-لكن يا أميرُ أراك لا تشغل بالك بأمر هذا الملفِّ رغم أنني فهمت من حديثِكما أنه مادام خارجاً عن أيدينا فهو يُشكل خطراً علينا...!

قهقه الأمير بهستيريةٍ وأردف بدهاء:

-لازال أمامك الكثيرُ يا سفيان كي تُتقنَ أصولَ اللُّعبةِ، ويبدو أنك لم تفهم بعدُ ما قلته لك منذ قليل...! ولكن سأجيبك.. الملف بحوزتنا منذ أمدٍ.. أتظن أن جمالاً كان خائناً لنا...؟!

حكَّ سفيان جانبَ رأسه مُتفكِّراً ثمَّ تساءل:

-لا أفهمك يا أمير..

وضع الرجل ساقاً فوق أخرى وأردف موضِّحاً:

-هذه لعبةٌ اخترعناها كي نجعلَهم لا يهنئون بمناصبهم ويظلُّوا يلهثون وراء سرابٍ يُسمَّى الملف، وأيضاً لا نترك ثغرةً واحدة يتسلل من خلالها الخطر ليصل إلينا، رغم أننا حصلنا على الملف من جمال فورَ حصوله عليه من خزانة اللواء إلا أننا لا نستبعدُ أن تكون هناك نسخةٌ أخرى احتفظ بها ليؤمِّنَ نفسه..

أومأ سفيان برأسه في إشارةٍ إلى تفهُّمِه ورد بحنق:

-لكن جمال قُتل...؟

جاءه جواب الأمير سريعاً:

-لكن أسماء حيةٌ، ولا نستبعدَ أنْ يحتفظَ جمالٌ بنسخةٍ عندها، دعنا نراقبْهم في صمتٍ فإن ظهرت النسخةُ أخذناها وإن باخت اللعبة أنهيناها، وأخذنا بثأر جمال ...

*****

# الفصل الرابع عشر

كلنا نمكث داخل السجونِ رغم اختلافها، نجلدُ أنفسنا أو نُجلَدُ منها.. لا يهم، المهم أنَّ مصيرنا واحد لكن جلادينا وسجانينا مختلفون، أشدهم أثراً علينا هؤلاء الذين يجلدوننا من الداخل، وأولئك الذين يتحكَّمون في مصائرنا، وبجرةِ قلمٍ من أيديهم تحتفلُ المشانقُ بعناقِ رؤوسِنا وتشرب نخبَ أرواحنا بعد أن يستمتعوا هم بأنينها وتأوهاتِها كمثلِ ذاك الذي يصرخ الآن فيملأُ صراخه المكان، يداه مكبَّلتان خلف ظهره، معلَّقاً من ذراعيه في بابٍ خشبيٍّ، تكاد ذراعاه أن تنخلعا من ثقلِ جسده البدين، لكن لا أحدَ يأبه لحاله...! بل يزدادون عنفاً كلما تأوَّه فيضربونه ضرباً مبرحاً بِهراواتِهم على باطن قدميه، يغيب عن وعيه لدقائقَ فينضحونَه بالماء الباردِ ليعود لواقعهم كي يتسنَّى لهم التلذذُ والاستمتاع بصرخاته، ولا يطرحونَ عليه إلا سؤالاً واحداً لا ثانيَ له:

-لماذا قتلت الملازمَ سعيد...؟

لا إجابةَ لديه سوى توسلاته للموتِ ومناجاتِه له طالباً منه أن يحضرَ سريعاً لينقذَ روحاً مُوكَّلاً بها، ثم بعينين مقهورتين يخترق السقفَ ناظراً للأفقِ الأعلى، ربما يلمحُ ملكَ الموتِ على بساطِه يستعدُّ للهبوط أو التحليقِ في سماءِ روحِه، وسرعان ما سمعَ صوتاً يأتي من بعيدٍ مصدرُه الغرفةُ المجاورةُ:

-كفاكم أريده حياً..

دخل حازمٌ عليه، وفكَّ عصابةَ عينيه وحدَّقَ في وجهِه الدَّامي ثم تساءل بغضب:

-أخبرني أيها الوغدُ.. لماذا قتلتَ الملازمَ سعيد...؟ هيا.. أخبرني وإلا جعلتُك تشتهي الموتَ ولن تراه..

خرجت منه إجابةً نافيةً من بين صرخاته القاتلةِ، زادت من غضبِ حازمٍ أمام رجالِه فأعادوا ممارسةَ هوايتَهم المفضلةَ معه، ولكنَّ حازماً رفع يدَه في إشارةٍ منه تدعو للتوقفِ، ثم أمرهم أن يتركوه ويغادروا الغرفةَ، وما إن تأكَّدَ من مغادرتِهم حتى شبَّ على قدميه ليتسنَّى له الاقترابُ من أُذُنِه هامساً:

-خروجُك من هنا على قيدِ الحياة يتوقفُ على حصولي على الملف.. أعرف أنك كنت الصديقَ المقرَّبَ لجمال عز الدين، كما أني متأكدٌ من أنَّ الملفَ إما بحوزتِك أو بحوزةِ إحدَى العاهرتين..

قاطَعه عاصمٌ بركلةٍ قويةٍ سدَّدَها له أسفلَ بطنِه فتأوَّهَ بشدةٍ، ثمَّ صرخ في رجالِه فحضروا على الفورِ واستأنفوا عملَهم ثم غادر هو الغرفةَ واضعاً كلتا يديه على موضعِ الركلةِ، وحينَ وصل إلى مكتبِه جلس إلى أن دلفَ خلفَه سامحٌ، فألقى عليه التحيةَ وتابع متسائلاً:

-هل أُحررُ المحضر...؟

صمت حازمٌ قليلًا ثم نطق وهو يلفُّ بكرسيِّه حول نفسِه:

-لا.. الصبرَ يا سامح.. وجودُه أمامَ البنايةِ ليس دليلاً كافياً..

نهض سامحٌ عن مقعدِه وأردف:

-لكن.. يا حازم بك.. النيابة....

قاطعه حازمٌ بعصبيةٍ بالغةٍ:

-سامح.. قلت لك الصبرَ.. نفِّذْ الأمرَ يا حضرةَ الضابط.. ومضت دقائقُ على حازمٍ بعد خروجِ سامحٍ ولازال يدورُ حولَ نفسِه حتى اختمرت الفكرةُ داخلَ رأسِه، فَفزَّ واقفاً، وأخذ سلاحه وهرولَ نحو الخارج، وركب سيارتَه وانطلقَ، وأخذَ يزيد من سرعتها حتى أصبحت كطلقةٍ ناريةٍ خارجةٍ من فوهة بندقيةٍ متجهةٍ صوبَ منزلِ أسماء.

وصل إلى وجهتِه، طرقَ البابَ بقوةٍ كثورٍ هائجٍ، فهرولت أسماءُ نحو البابِ وفتحتْه وحين رأته أمامها تراجعت بخطواتِها للوراءِ، فدلفَ إلى الداخلِ دونَ إذنٍ، فلمح أمجدَ وهو يُضمِّدُ جرحَ منال، فابتسم بسخريةٍ قائلاً:

-يبدو أنني حضرتُ في توقيتٍ غيرِ مناسبٍ...! لكنني لم أكن أعرفُ أنكما من هواةِ الأطباء.

كلماتُه اخترقت أذنَي أمجد؛ فهبَّ عن مكانِه وتحرك نحوَ الخارجِ وهو يردُّ بغضبٍ:

-الأطباءُ يمارسون عملَهم بضميرٍ -أظنُّك لا تعرفُ عنه شيئاً-..

ضحك حازمٌ بهستيريةٍ شديدةٍ بعد أن رمقَ أمجداً بنظراتٍ ناقمةٍ وتحدثَ إليه بلجةٍ تحذيريةٍ:

-الضميرُ الذي تتحدثُ عنه لا علاقةَ له بأمنِ البلدِ واستقرارِها...! ومن عالج مُخرِّبٍ أصبح مثله...! فلا تجعلْني أُطلعُك على ضميري حين يصحو، فالأمر لن يعجبَك بالمرة...!

والتقتْ نظراتُهما في تحدٍّ.. فقطعتها أسماءُ بصوتٍ مبحوحٍ:

-أرجوكَ يا دكتور أمجد تفضل الآن..

قالت كلمتَها وتحركت نحو البابِ وأشارت له بالخروج، فتحرك نحو البابِ وهو لازال يرمقُ حازماً بنظراتٍ مخيفةٍ، غيرَ أنَّ حازماً ابتسم في نفسِه وحكَّ جانب أنفِه بغرورٍ ثم جلس على المقعدِ ووضع إحدَى ساقيه على الأخرَى، وانتظر حتى عادت إليه أسماءُ بعد أن أغلقت البابَ وراء أمجدٍ، وتحدثت إلى حازمٍ قائلةً بامتعاضٍ وكراهيةٍ باديةٍ:

-ماذا تريدُ حازم بك...؟ هل ملاحقتُك للنساءِ أمرٌ محببٌ إليك يُشعرك برجولتِك، أم أنَّ إلقاءَ القبضِ على الأبرياءِ شراب لذيذ لروحِك المتعطشةِ للظلم...؟!

نظر إليها بلا مبالاةٍ وردَّ ببرود:

-دعكِ من هذه الشعاراتِ التي لا تُجدي نفعاً، وأنصتِي لي جيدًا.. عاصمٌ متهمٌ بقتلِ ضابطِ شرطة، وحبلُ المشنقةِ يشتاقُ لعنقه، والعقدةُ بيدك إما أن تخنقيه بها وإما أن تُطلقي سراحَه..

قطَّبت بينَ جبينيها في إشارةٍ إلى عدمِ فهمِها وتساءلت:

-العقدةُ بيدي أنا.. كيف...؟ ِ

فأجابها موجِزاً:

-الملف..

ابتلعت ريقَها بصعوبةٍ بالغةٍ وأردفت بارتباكٍ:

-أيُّ ملفٍّ ما تتحدثُ عنه...؟

نهض عن مقعدِه وقبضَ على شعرِها بعنفٍ ثم جذبَه لأسفلَ ونظر في عينيها وهتف بغضب:

-الملف.. يا بنت العاهرة.. هل تظنين أنَّ مراوغتَكِ هذه ستجعلني أظن أنه ليس بحوزتِك، سأُمهِلُكِ أربعاً وعشرين ساعةً فقط، إما أن يكونَ الملف بحوزتي وإما أن يوضعَ حبلُ المشنقةِ على عنقِ عاصم..

ثم تحسَّسَ عُنقَها بيده الأخرى وتابع:

-وربما هذا العنقُ الجميلُ يحظى بمعانقةٍ لطيفةٍ تُرسلُكِ إلى الجحيمِ برفقة صديقك..

كانا يتبادلانِ أطرافَ الحديثِ فيما بينهما، إلَّا أنَّ منالَ كانت تُشاركُهما الاستماعَ إلى الحوار؛ يخترقُ كلَّ حرفٍ ينطقانِ به أذنيها، أما عيناها فكانت ترى رأسَ حبيبِها وهي تتدلَّى من حبلِ المشنقةِ، والصدمةُ تسيطر عليها تمنعُها حتى من إطلاقِ صراخِها حتى استطاعت صرخةٌ كانفجارِ بركانٍ أن تهربَ منها لتستقرَّ في قلبِ أسماء كرصاصةٍ غادرة..

إلى أن تنهدت عيناها بدمعٍ أرقَّ من الماءِ الزلالِ فأغرق محاجرَها، ثم هرولت نحو منال واحتضنتها وأردفت:

-اهدئي حبيبتي.. أعدُك أنه لن يمسَّه أحدٌ بسوء..

ابتسامةٌ ساخرةٌ ارتسمت على جانبِ فمِ حازمٍ، فرمقته أسماء بحيرةٍ، ثم عادت ببصرِها نحو صديقتِها والدموعُ تثقلُ مقلتيها، فتنهَّدت بأسيٍ وحدثت نفسَها بقهر:

-وحدي أنا من يمكنني فهمُ مشاعرَكِ الآن يا منال، فالنيرانُ المشتعلةُ بداخلِك تُلهبُ قلبي منذ أمدٍ بعيدٍ، منذ أن غاب جمالٌ عني بدون سابقِ إنذار.. إنني الآن أتلظَّى على جمرتين وليست واحدةً فما بين فقداني لجمالٍ ووعدي له، وبين الجحيمِ الذي تعيشين فيه أنتِ وعاصمٌ؛ أشعر أنني ألتقط أنفاسي برئةٍ مستأجرةٍ، تستنشق الهواءَ لتغذِّي به غيري!

مسحت دموعَها بكفَّتيها، واقتربت من حازمٍ ثم تحدثت بثقةٍ:

أنتَ تريدُ الملفَّ وأنا أريد عاصماً وجمالاً، وبعد أن أستعيدُهما لا شأنَ لي بك، لا يهمني أيُّ خطورةٍ يحملها الملفُّ بعدها، سيكون هديةً مني لك، سأبحث عنه بدون كللٍ وأعدُك أنني سأحصلُ عليه، لكن في الوقت ذاته لن تحصلَ أنت عليه قبل أن يعودَ إلينا جمالٌ وعاصمٌ.. اتفقنا...؟

كان حازمٌ يتابع حديثَها باهتمامٍ بالغ، فأردف بحماسٍ:

-ولِمَ لا نتفقُ...؟! سأنتظر الملفَّ ووقتَها فقط سأردُّ إليكما العاشقين..

*****

تنصَّتَتِ الشياطينُ لصراخِ الشرِّ في حناجرِ المذنبين، في النهار خصوصاً حين يلهثُ الطيبونَ وراءَ لُقمةِ عيشِهم، يُنبتُ القلقُ على وجوهِ المذبذبين وينفجرُّ الخوفُ داخلَهم مثل قنبلةٍ حاقدةٍ، منذُ صدرَ حكمُ المحكمة على الجاسوسِ "جون" لم يستطع العميدُ مصطفى أن يهنأَ بنومِه وكأن هذا الرجلَ هو ذنبه الأعظمُ الذي يُؤرِّقه ليلَ نهار، ويقف حارساً عند جفنيه مانعاً النومَ أن يقتربَ، حتى أنَّ العميدَ أضحى يُقدِمُ على فعلِ أيِّ شيءٍ كي لا يغتاله القلقُ، وتفضحَ الأسرارُ نفسَها وتُوزَّعَ الاعترافاتُ عليه لِيُفتضَحَ أمرُه، الأمرُ بات معقداً جداً، كلَّ ساعةٍ تمرُّ والرجلُ على قيدِ الحياةِ تنقضي من عمر العميد، كأنه قادمٌ على الإعدامِ بنفسِه، حياتُه أصبحت معلقةً برحيلِ هذا الرجلِ عن عالمنِا، أصبح في صراعٍ دائمٍ مع النفس، تهزمُه تارةً ويعقِدُ هُدنةً معها تارةً أخرى، حتى زفَّ إليه جلالٌ خبرَ تصديقِ رئيسِ الجمهوريةِ على حكمِ إعدامِ الجاسوس، لم

تسعه الدنيا من الفرحِ..! فقفز عالياً عدَّةَ مراتٍ كطفلٍ صغيرٍ زفَّ إليه والدُه خبرَ نجاحِه في الابتدائية، وهرول نحو الزنزانةِ آمرَاً السجَّانَ أن يفتحها ثم دلفَ وخلفه جلالٌ ليريا السجين مضطجعاً على جنبه الأيمنِ في زاويةٍ الزنزانة، فَهَمَّ به جلالٌ وركلَه بقدمه قائلاً بتوبيخ:

-انهض يا حقير..

خرجت ضحكةٌ ماكرةٌ من بين شفتَيِ العميدِ ثم تحدث بغرور:

-اتركه يا جلال.. دعه يستمتع بالحياة قبل أن يغادرها..

اعتدل الرجلُ في جلستِه وتحدث بغموض:

-الحياةُ ليست متاحةً للجميعِ أيها العميد.. هذا ما يعذبُنا.. هل تظن أنه حان دوري لأغادرَها أم أنه دورك...؟!

انقبضَ قلبُ العميد واكفهرَّت ملامحُه، لكنه استبدلها سريعاً وأردف مُدَّعياً الشموخَ:

-ينبغي أن تتمادى في ادِّعاءِ القوة.. هذا عزاؤك الوحيد للصمودِ، لكن يا عزيزي اعلم أنَّ ما يفصلُكَ عن الموتِ بضعةُ أيام، ثمَّ يأتيك من لا يرحم، ولكن دعني أزفَّ إليك خبراً ربما يُسعدُك، أُفكِّرُ أن أصنعَ لك تمثالًا كي لا يُؤلمني فراقُك..

ابتسم الرجلُ ابتسامةَ كبرياءٍ وأردف بسخرية:

-أراك الآن تملأ حقائبك حقداً، وتتنفسُ صرخاتك لتنعشَ اضطراباتِك، لكن أعدك أننا سنلتقي في آنٍ واحدٍ، في مكانٍ واحدٍ، أسفلَ شجرةٍ طلعُها رءوسُ الشياطين..

*****

كنت أتمنى أن نكونَ زوجاً من العصافيرِ بدلاً من أن نُصبحَ زوجاً من الغربانِ نُعلِّمُ قاتلاً مبتدأَ الدفنِ..

ألقى جملته على بابِ المنزلِ ثم دلف، جلس على أريكتِه المعتادةِ دون أن يتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ، حتى أنه لم ينطقِ السلامَ.

شعرت ريمُ بحضورِه، أنفاسُه تُنعشُها داخلَ مطبخِها، تركت ما بيدها وخرجت متلهفةً للقائه ثم هتفت بسعادةٍ:

-خالد..

خطف منها نظرةً سريعةً ثم أشاحَ بوجهِه بعيداً عنها، فتابعت بحزنٍ:

- دقائقَ وسيكونُ العشاءُ جاهزاً..

أتاها ردُّه بجمودٍ:

-لقد تناولت العشاءَ خارجاً..

عضَّت على شفتِها السفلى بحسرةٍ وتحدثت بقهرٍ:

-إذن: سأُعِدُّ لك القهوةَ..

تأفَّفَ قائلاً:

-لا أريدُ شيئاً..

تشابكت أنامِلُها حولَ بطنِها واقتربت منه.. وقد همَّت بالجلوس بجانبه على الأريكة ثم تساءلت:

-ما رأيُك في أن نتكلمَ...؟

لم يُكلِّف نفسَه إفراغَ مكاناً لها لتجلسَ بجانبه...! وبدونِ حتى أن ينظرَ إليها أجابها:

-لديَّ عملٌ غداً وأريد أن أغفوَ قليلاً..

حملت خيبتَها وحزنها وتحركت بهما نحو غرفتِها، وكانَ قد احترق قلبُها حتى أنَّ دُخانَه شكَّلَ غيومَ الألمِ في عينيها ليهطلَ الدمعُ بغزارة، فدخلت الغرفة وأغلقت الباب لتختَلِيَ بحزنها، واحتضنت ما تبقَّى من نفسِها المحطمة.. ونحيبها المنبعثُ من غرفتِها طرقَ بابَ قلبِ خالدٍ المتجمدِ رغم

حرارةِ نارِ الغضبِ المتَّقدةِ به، فنهض من مكانه وبدأ يتمشَّى يميناً ويساراً، الحيرةُ قد صدَّعت رأسه...! أَيَذهبُ لها ليَجبُرَ خاطرَها المنكسرَ، أم يبقى يستمعُ لبكائها الذي كاد أن يفتكَ بحنايا قلبِه...؟!

مدَّ يده نحوَ مِقبضِ البابِ ليفتحه ولكنَّ كبرياءَه المسيطرَ عليه والمتمكِّنَ من قلبه المُقيَّدِ في سراديبِ القسوةِ جعله يتراجعُ ليعودَ ويجلسَ على أريكته، ثمَّ شرعَ يُدخِّنُ السجائر واحدةً تلوَ أُخرى ويرمقُ بابَ الغرفةِ بنظراتٍ ضبابيةٍ، كمن يرى أمامَه سراباً ويعتقدُ أنَّهُ ماء من وحيِ خيالِه، ظلَّ على هذا الحالِ إلى أن طلع الصباحُ، وأشرقت الشمسُ، تسلَّلت بعضُ أشعَّتِها إلى قلبِه الباردِ حتى حرَّكت به النبضَ، فأيقظت حنينَه النائمَ وحطَّمت قيودَ القسوة، فتوجه ليفتحَ الباب، ليرى ملَكاً ترك مكانه في الجنة وغفا على سريرٍ مُبلَّلٍ بالدموع، فأقبل عليها بهدوءٍ خوفاً من أن يُوقظَها ولم يعلم أنها ليست نائمةً وإنما تتظاهر، فتأمَّلَ وجهَها الجميلَ الذي تُزيِّنُه دمعةٌ لا تزال على خدِّها تعاتبُه بصمتٍ، فكان اعتذارُه أن طبعَ قبلةً على جبينِها وغادر.. وهَمَّ بسيارتِه وركِبها وهو شاردُ الذهن.. صراعُ تساؤلاته التي لا يجدُ لها جواباً شتت أفكاره:

-أيعقلُ أنَّ ريمَ لم تكن تُحبني منذ البداية؛ أم أنها مصابةٌ بانفصام الشخصية...؟! لابد أن الخجل هو الذي يجعلُها تتصرَّفُ بهذه الطريقة..

خطوطٌ عريضةٌ من الأسئلةِ ليس لها نهايةٌ ولا قياساتٌ بأجوبةٍ منطقية، انتهى الطريقُ ولم يجد تفسيراً، وصل إلى وجهته؛ وإذ بحازمٍ كذلك كان قد وصل في نفس الوقتِ وكأنهما على موعدٍ سابق، فركنا السيارتين وجهاً لوجهٍ كأنهما في ساحةِ حربٍ ونظرةُ كلِّ واحدٍ منهما للآخرِ كانت هي رصاصةُ بدءِ المعركة، دخلا إلى مبنى المحكمة وتوجَّها نحو غرفةِ الاستراحة، وجلسا على مقعدين متوازيين كأنهما أسدانِ يتنافسانِ على لبؤةٍ واحدةٍ؛ فزلقَه خالدٌ بنظراتِ ريبةٍ واتِّهامٍ بَيِّنٍ، وأطال النظرَ في عينيه كمن يُنوِّمُ مريضاً تنويماً مغناطيسياً، رأى داخلهما السجينَ جمال عز الدين في حيِّزٍ مخنوقٍ في عربةٍ

محاطةٍ بالشكِّ يلوحُ له من خلفِ القضبانِ مستغيثاً به، طالباً مساعدته في إثباتِ براءتِه..!.

ازدادت نظراتُ خالدٍ حِدَّةً وارتياباً، بينما نظراتُ حازمٍ تحملُ له كرهاً دفيناً وبُغضاً، العيونُ أصبحت في معركةٍ داميةٍ، تحدٍّ رهيبٌ بينهما، لم يخفض أحدُهما عينيه عن الآخر حتى لا يعتبره الخصمُ مهزوماً منسحباً، لا زال خالدٌ يرى الرجل السجينَ في عيني حازمٍ يستغيث، أما حازمٌ فنظراتُه اخترقت عيونَ خالدٍ لترى الطريقَ بوضوحٍ وعربةُ المساجين تسيرُ بسرعةٍ فائقةٍ وخلفَها سيارةُ التأمين يقودُها السائقُ وبجواره الملازمُ سامح، ودَّ لو يصيحُ به ليصلَ في غضونِ ثوانٍ كي تنتهي تلك الحربُ المعربةُ، لكنه كتم صيحاتِه داخله كي لا يلفتَ انتباهَ خالدٍ لارتباكه الشديد، ومضت دقائقُ ولازالت معمعةُ النظراتِ مشتعلةً وكلٌّ منهما ينتظر حضورَ المتهم، كلٌّ منهما يتابعُه بطريقتِه، حتى أن عربةَ المساجينِ الآن اتخذت الطريقَ الزراعيَّ أمامها شاحنةُ بضائعٍ ضخمةٌ وخلفها عددٌ من السياراتِ الفاخرةِ، تخلَّفت سيارةُ التأمينِ عنها ببضعِ أمتارٍ لازدحامِ الطريقِ وضيقِه..وعربةُ المساجين تحاول التملُّصَ من الشاحنة، فجأة ظهرت في مؤخرتها نافذتان صغيرتان مفتوحتانِ؛ سريعاً ما بدت منهما قانصتان فوَّهتاهما وُجِّهتا ناحيةَ مقدمة العربة، خرجتا منهما رصاصتين اخترقتا الزجاجَ الأماميَّ للسيارة واستقرتا في جبين السائقِ ومن بجواره، اختلت السيارة في توازنها على الطريق، وتمايلت يمنةً ويسرةً ثم انحدرت ناحية اليمينِ واصطدمت بعمودٍ خرسانيٍّ ضخمٍ لأحدِ الكباري العلويةِ، داخل العربة ثلاثة رجالٍ، جنديان مكلفان بحراسةِ جمال المتهم، إثر اصطدامِ السيارة تكوَّم جسدَا الجنديين فوق جسد جمال، أحدُهما اصطدمت رأسُه بجدار العربة فشجت نصفين والآخر فقد وعيَه، أما السجين فكأنَّ شيئاً لم يحدث، كأنه كان نائماً وسقط من فوقِ سريره، حين رأى الرجلين هكذا وبابَ العربة الخلفيَّ مفتوحاً انتهزها فرصةً للهروب، وسارعَ بتفتيش جيوبهما وأخرج مفتاح الأساور الموضوعة في يده، وفكَّ قيده وقفز من السيارة راكضاً نحو الطريقِ

الزراعي، في هذا التوقيت وصلت سيارةُ التأمين ولمحَه سامحٌ وهو يركضُ فأمر السائق أن يقفَ بالسيارة، ثم ترجَّلَ عنها وبدأ بإطلاق النار على قدمَي السجين كي يُعرقلَ حركته، لازال الرجلُ يعدو كقطارٍ حديث الصنع، قفز الجنودُ من سيارةِ التأمين ووجهوا بنادقهم نحوه وأطلقوا الرصاصَ عليه بكثافةٍ حين صرخ أحدُهم، وكان قد هرولَ نحو عربةِ المساجين ليطمئنَّ على زملائه، صرخ حينَها قائلاً بغضب:

-إنهما قتلا..

صوتُه جعل الغضبَ يتملك من الجنودِ والملازمِ وبدأت الطلقاتُ تركض نحو جسدِ الرجل بالكامل، وأُغلِقَ الطريقُ ووقف الجميعُ يشاهد الأمرَ في ذهولٍ حتى أن هناك شاحنةً أخرى تجر خلفَها صندوقاً حديديَّاً مستطيلَ الشكل وضخماً، يبدو أنها تابعةٌ لتلك الشاحنةِ التي خرجت الطلقتان منها، حيث إنَّ السائقَ هتف بسعادةٍ في الرجلِ الجالس بجواره:

-رجال الشرطةِ يقومون بما كنا سنقوم به..

أجابه الآخرُ بسعادةٍ مماثلةٍ:

-دعنا نشاهدْ ما يحدث في صمت..

وجَّه الاثنان بصرهما تجاهَ الرجل الذي لا زال يركضُ والطلقاتُ تركض خلفه، الذهولُ الممزوجُ بالصدمةِ سيطر عليهما كما سيطر على الجنودِ حين لاحظوا أن الطلقاتِ تصطدم بجسدِ الرجلِ فتقعُ أرضاً دون اختراقِه، حتى هو نفسُه حين لاحظ هذا الأمرَ توقف عن الركضِ والتفت إليهم في ذهولٍ تامٍّ، تابعوا هم إطلاقَ الرصاصاتِ عليه، اصطدمت الطلقاتُ بصدره ورأسِه ولا زال واقفاً مكانه، كأنه تمثالٌ قُدَّ من حديدٍ، نفِدَت الذخيرةُ من بنادقِهم كما نَفِدَت عقولُهم من استيعابِ ما يحدث أمامَ أعينهم، حينها صرخ سامحٌ فيهم أنِ اركضوا نحوه واقبضوا عليه، خافَ الجنودُ أن يتحركوا، إنه ليس ببشرٍ..! كيفَ لذخيرةٍ كفيلةٍ أن تقضيَ على مدينةٍ بأكملها لم تخترق جسدَ رجلٍ واحدٍ...؟! كيف لا تستطيعُ اختراقَ جسدِه وهي القادرةُ على اختراقِ الصخرِ وتفتيتِه...؟!

حين لاحظَ سامحٌ تراجعَ الجنود عن العدوِ نحوه، ولاحظَ أيضاً أنْ بعضَهم قد باغتته المنيةُ من هولِ ما رأى، تحرَّك هو نحوه بحرصٍ شديد، حتى وصلَ إليه فرأى عينيه مفتوحتين تحدقان في العدم، وآثَارَ ندوبٍ على جبهته وجسدِه دونَ قطرةِ دمٍ واحدةٍ، مدَّ يده المرتعشةَ ليهزَّه، فلم يتحرك كأنه تمثالٌ من العصورِ الوسطى، صاح بجنودِه أن اقتربوا، ركضوا نحوه بعد أن استردُّوا شجاعتَهم الهاربةَ منهم وحملوا الرجلَ وتوجهوا به نحو سيارتهم..

ما زالت نظراتُ حازمٍ وخالدٍ تتسيدُ المكانَ...! والصمتُ رفيقُها المخلصُ حتى اغتاظت هواتفُهم من هذه الحالة المخيفةِ وأرادت أن تقطعها، رنَّ الهاتفان في آنٍ واحد، قبض كلٌّ منهما على هاتفه وأنصت للمتحدثِ بذهولٍ ثم أغلقا الهاتفين وهرولا نحو الخارجِ وصولاً إلى سيارتيهما، وأدارا سريعاً المحركين وانطلقا خلف بعضهما، كان يودُّ كلُّ واحدٍ منهما أن يدهسَ الآخر تحتَ عجلاتِ سيارته، لكنهما الآن في سباقٍ واحدٍ ينطلقان نحو موقعِ الجريمة، وكأنَّ الخيرَ والشرَ أخيراً جمعتهما نقطةٌ واحدةٌ ...

*****

عندما صار الغباءُ جمراً في الرؤوسِ ينثر شظاياه على عقولِ الرجالِ وهم مستمتعون، أصبح أشد خطراً علينا من سياطِ القمعِ التي تمزق الجلود.

قاعةٌ كبيرةٌ مزدحمةٌ بالرجال، في انتظارِ الأمير ومن ضِمنِهم أحمد.. ذاك الرجلُ الذي فاز بهدية الأمير التي يتمناها الجميع " زينب " صاحبةِ الحُسنِ والجمال، الفاتنةِ ساحرةِ القلوب، من ير عينيها تُطلَّانِ من السواد يُفتن...! فكيف الحالُ بِمَن سيرى وجهَها وجسدَها...؟! يا له من محظوظ...! حتى الأميرُ هو من سيعقدُ قرانه.. كلُّهم ينتظرون قدومه...! جالسونَ في القاعةِ المخصصة لمثل هذه الأمور، كلُّ رجلٍ يثرثر مع نفسه، قانطاً حاسداً لهذا الفتى المغمورِ لحُسنِ حظّه..

وصل الأمير، فوقفوا جميعاً واشرأبت أعناقُهم إليه، ثم خفضوا رؤوسَهم وطأطأوها للتراب كأنَّ الطيورَ فوقها.. عيونُهم جاحظةٌ تنظرُ للأرض كأنَّ صُحفَهم ستخرج منها.. تربَّع الرجلُ بين مِسندتين ثم اتَّكأ على أحدهما..

أمرهم بالجلوسِ ثم غمزَ لسفيانَ بعينه، ففهم الأخيرُ مقصدَه، ونادى على أحمد، فدلف وعيناه تراقب خطواتِه الخجلى، كلُّ قوتِه وشجاعتِه تبدَّلت لخجلِ فتاةٍ في خدرِها، أجلسه الأميرُ بجانبه، والدهشة سيطرت على الجميعِ، حتى سفيانُ نفسُه لم يحظَ من قبلُ بشرفِ الجلوسِ بجانبه..

بدأت مراسمُ عقد القران، تمنَّى كلُّ رجلٍ منهم في سريرةِ نفسِه أن يحلَّ مكانَ أحمد، أما هو فقد ظن نفسَه يحلم.

بعد الانتهاء من العقد، أتى صوتُ سفيان ليوقظَه من حلمه ويأمرَه بالذهابِ لعروسِه التي تنتظره في مخدعِها، مشى طِراداً كمن يحملُ فوق أكتافه أطناناً من الحديد، وفتح البابَ بيد مرتجفةٍ كمن يفتحُ باباً من المجهولِ لا يدري ما وراءه..

شاهد صاحبةَ الجمالِ التي يحلمُ بها كلُّ الرجال بعد وفاةِ زوجها بأحدِ المعارك، تجلس على سريرِها بفستانِها الأبيض كحوريةٍ هبطت من السماءِ وتنتظره، حينَ وقعت عيناها في عينيه شُلَّتْ حركتُه، وهي لم تصدق نفسها، هل هذا هو أحمد البطلُ المغوارُ الذي لا يهابُ الموتَ بل الموت يهاب من شجاعته، الخجلُ مسيطرَ على ملامحه...؟!

لازال يقفُ عند البابِ، لم يخط خطوةً واحدةً، وعلى الرغم أن الجمال الذي تراه عيناه لا يستطيع أحدٌ مقاومته؛ لم تنتظر زينب منه الحراك تركت سريرَها كملكةٍ تخلت عن عرشها واتجهت نحوه..

رفعت رأسه بيدها الناعمةِ ثم ابتسمت بشغفٍ هامسةً في أذنه بصوتٍ يجعلُ السمعَ يثمُل:

-تعالَ معي.. لِمَ أنت خجولٌ هكذا...؟

أنا الآن حلالُك، وسِتْرُك وشريكةُ حياتِك.. سأكونُ رفيقةَ دربك..

أخذت بيده وأجلسته على السرير.. أصبح كالدمية لا يتحرك إلا بيدها، في حين أنه ظن كونَها امرأةً ثيِّباً أي أنَّ الخجلَ عندها قد مات في زيجتها الأولى.

استأذنت منه دقائق لتبدلَ ملابسها ثم عادت مرتدية قميصاً ورديَّ اللون، حريريَّ الملمس، طولُه لا يتعدى الشبرين، مُفرَّغٌ من الصدر وشفافٌ من الظهر، بمجرد النظر إليها ينتشي الرجالُ؛ فكيف بهذا الخشبيِّ الجالسِ على السرير...! هل يشتعل ناراً ويتَّقدُ...؟! اقتربت منه وحاولت أن تثيره بلمساتِها على جسدِه، لو استطاع إنسانٌ أن يحرِّك غريزةَ دميةٍ قطنيةٍ لاستطاعت هي...!

ترجمت تذمُّرَها ببعض الكلمات النابية:

-هل يُعقل أنك لم تتأثر بكلِّ هذا الجمال، أم أنك أولَ مرةٍ في تاريخك ترى أنثى، أم أنك من الذين لا تستهويهم النساء...؟!

قاطعها بغضبٍ جمٍّ بعد أن تحوَّلَ عجزُه لشررٍ تُطلقه عيناه: اصمتي يا امرأةُ.. فَوالله لو لم تكوني هديةَ الأميرِ لوجَّهتُ لكِ ضربةً تُفقِدُك القدرةَ على الكلامِ طوالَ عمرك.

ومن ثَمَّ أدار وجهه عنها وأسلمها ظهره، في حين أن قلبه متوهجٌ كجمرةٍ شتويةٍ، ورغبتُه فيها تنهشُ عقله، لكنه يشعر أن جسدَه مقيد بسلاسلَ من نُحاسٍ مشتعل، لا شيء فيه ظاهرياً يستطيع إخمادَ نارِه الباطنة، حتى عيناه لم تستطع أن تُترجمَ إحساسه ولو على هيئةِ دموعٍ، كأنها بئرٌ جفَّ ماؤها منذ أمدٍ بعيد، لسانه يُحدِّث جوارَحه بذهول، وهي لا تسمعُ من حديثه إلا تمتماتٍ مبهمةً كأنه أعجميٌّ، ظلَّ هكذا حتى حضرَ النومُ أو استدعاه هو كي يخمد نيرانه أو ربما تظاهر به ليهربَ منها، ومرَّت سويعاتُ الليل وهو بينَ الحلم واليقظةِ يبحث عن سببٍ لِمَ يحدث له حتى حلَّ الصباحُ بضيائه وزقزقةِ عصافيره، فنهضت والغضبُ كاد أنْ يقتلَها؛ لكنها كتمته بداخلها فلديها هدفٌ يجب أن تحققه، خصوصاً أنها لم تفشل أبداً في مثل هذه المهماتِ التي قامت بها من

قبلُ، لكنَّ هذه المهمةَ مميزةٌ عن سابقاتها فلقد وعدَها الأميرُ أن يضمَّها لنسائه إن نجحت في مهمتها.

أعدَّت الطعامَ ثم أيقظته وجلست بقربه وأمسكت بيده، فربتَ عليها ثم هتفت بكيد:

- أنت أصبحت الآن زوجي وحبيبي ولباسي وستري، تعرفُ عني كلَّ شيءٍ ولا أعرفُ عنك شيئاً.. ما رأيُك أن تحدثني عن نفسك...؟!..

نظر إليها بعينين مقهورتين وردَّ بغموضٍ مغلَّفٍ باليقين:

-أنا لا شيءَ.. يابسٌ مثل الصوامِ من الأرض.. فارغٌ من الحياة.. أنا جرحٌ مفتوحٌ مرَّت عليه امرأةٌ كسبخةٍ من ملحٍ ولم أرتجف..

*****

# الفصل الخامس عشر

♆♆♆♆♆♆♆♆♆

لا يجدرُ بنا أن نظهر دائماً بمظهرِ الأبطال، نحن الجبناءَ الذين لا نجيدُ سوى تغييرِ حفاظاتِ الفشل، وممارسةِ الحبِّ في أبشع صورةٍ بعيداً عن مثاليةِ العشاق، لا يجدر بنا إلا أن نعترفَ بعجزِنا الكامل أمام حالةِ منال، كيف استطاعت أن تعشقَ عاصماً لهذه الدرجة التي جعلتها تُضربُ عن الطعام والشراب، كأنها تشاركه عناءَه، تسابقُ الموتَ للوصول قبلَه كي تنتظرَه هناك، في مكانٍ يُقدَّسُ فيه الحبُّ الطاهر، بعيدًا عن أعين الحاقدين ورجالِ الشرطة الملاعين، لكنَّ أسماء لم تنتظر أكثرَ من ذلك، لابد أن تتخذَ لها موقفاً تُنقذُ به حياةَ صديقتها، فالحبُّ باقٍ ويستحق الحرب من أجله.

صورةُ جمالٍ ترقصُ في عينيها، تتحولُ لحبلِ مشنقةٍ يلتفُّ حول عنقِ عاصمٍ، يهبطُ بصرُها أسفل قدميه.. تجد منالاً شاخصةَ العينين مستلقيةً على ظهرها بعد أن لفظت أنفاسها الأخيرة:

-لا.. لا يمكن أن يحدث هذا ..

صرخت وهرولت نحو منالٍ حاولت أن تحدثَها، لكنَّ الأخيرةَ لا تتكلم وكأنَّ الصدمةَ ابتلعت حروفها، ملامُحها الشاحبةُ مزقت قلبَ أسماء، لم تستطع النظرَ في وجهِها أكثر من دقيقتين، هرولت نحو غرفتِها ثم لفَّت الحجابَ حول رأسِها وخرجت.

توجهت إلى قسمِ الشرطة، عيناها تعرفان الطريقَ جيداً وقلبُها يسبقُها إلى هناك، أما عقلُها فكان في وادٍ آخر، يبحث عن نقطةِ خلاصٍ، عن حلٍّ يضمن لها الحفاظَ على حياةِ الأربعة، تزاحمت الأفكارُ في رأسها حتى اهتدت للفكرة الأهم:

-سأقول له إني عثرت على الملفِّ، لكنني لن أسلّمه لك قبل أن يخرجَ عاصمٌ ويعودَ إلى منزله.

عاصمٌ سيقولُ لي هل رأى جمال أو لا،

إن حدث ورآه فسأطلب من هذا الوغد أن يخرجَه وأعطي له الملف، وإن لم يكن جمالٌ في السجن فلابد أنه مختبئٌ في مكانٍ ما، سأهرب أنا ومنالُ وعاصمٌ وعند عودةِ جمالٍ سأعرف أنه من السهل أن يعثرَ علينا، حينها سأردُّ إليه أمانته يتصرَّفُ بها كما يشاء..

أخيراً وصلت إلى القسم، كأنها وصلت إلى أرضٍ قامت بها القيامةُ، فوضى عارمةٌ شبيهةٌ خليةِ نحلٍ اخترقَ أمنها دبورٌ، الدهشة جمدتها في مكانها، جنودٌ كُثُرٌ وأسلحةٌ وعرباتٌ مصفحةٌ، ورجالٌ لا ترى صورَهم إلا في التلفازِ فقط، وقفت مشدوهةً تحدق بعينيها المصدومتين من هول المنظر.. أفاقت من صدمتها على صوتِ جنديٍّ يسألُها: آنستي.. ماذا تفعلين هنا...؟ الأفضل أن تغادري هذا المكانَ بأقصى سرعةٍ حفاظاً على سلامتِك ...

صوتُ الجنديِّ كان يتخلله الخوفُ والقلق عليها، التفَتت له فاستشفت الطيبة من ملامحه فسألته:

-ماذا يحدث هنا...؟!

أجابها بهمسٍ:

-سجينٌ قتل جنديين وحاول الهربَ وتم إطلاقُ النار عليه وهو الآن في تعدادِ الأموات..

قلبُها نبض نبضةً شاذةً أشعلت نيرانُ قلقِها على جمالٍ وعاصمٍ، ثم تطلعت للجنديِّ مرة أخرى، ملامحه البريئةَ جعلتها تسأله:

-هل سمعت عن سجينٍ هنا يُدعى جمال عز الدين...؟

ما إن نطقت اسمه حتى انتفضَ الجنديُّ وتراجع خطوتين إلى الوراء، وتبدلت ملامحُه حتى أصبحت شبيهةً بليمونةٍ فاسدةٍ ثم تحدث برجفة:

- هو.. هو.. هو من قتل زملائي.. ابتعدي يا امرأة من هنا وإلا قتلتُك..

- لاااااااااااااااااا.... جمااال

صرخ قلبُها قبل لسانِها صرخةً صدَّعتِ السحبَ وأبكتِ السماءَ، صراخُها كان أقوى من صوتِ الفوضى العارمةِ، فاضت روحُها بسيلٍ من الدموع طفح من عينيها، حنجرتُها ترجمت قهرها بصراخٍ صدَّع قلبَها، قدماها لم تستطيعا حملَ جسدِها، سقطت على ركبتيها وأخذت تكيلُ الترابَ وتضعُه فوق رأسِها، فرقَّ قلبُ الجنديِّ تعاطفاً معها واقترب منها وبصوتٍ مرتجفٍ حدثها:

-آنستي.. أرجوكِ اذهبي من هنا الآن.. إن علموا أنكِ تعرفينه ستتعرضين للأذى وربما للاعتقال..

أومأت برأسِها اعتراضاً، وخرج صوتُها المبحوحُ من بين صرخاتها يقول:

-لن أذهبَ من هنا قبل أن أراه..

سقطت دمعةٌ من عين الرجلِ ثم تلفَّتَ حوله سريعاً وعاد إليها يقولُ بصوتٍ هامس:

-هو في المشفى العسكري.. أرجوكِ اذهبي من هنا الآن..

نهضت راكضةً كمن استدعت جِنِّياً يحملُها عن الأرض ويعدو بها راجيةً من الله أن يكونَ على قيد الحياة، وأوقفت سيارةَ أجرةٍ وصرخت مغرورقةً في دموعها في السائق:

-أرجوك.. أسرع إلى المشفى العسكري..

وصلت ولم يكن المشفى أقل ازدحاماً من القسم، رجالُ الصحافة والإعلامِ يتزاحمون في المكان، كلُّ واحدٍ منهم يأمل في سبقٍ صحفيٍّ عن السجين الذي لم تخترقِ الرصاصاتُ جسدَه، لكنَّ النائبَ العامَّ أطاح بأحلامِهم وأمر بعدمِ نشرِ أيِّ شيءٍ يخصُّ هذا السجينَ، وعلى الرغم من قرارِ عدمِ النشر إلا أنهم لازالوا يُصرُّون على الدخول، والجنودُ يمنعونهم بالقوة، وكأنَّ هذه الاشتباكاتِ كانت في مصلحةِ أسماء حيث تسللت من بينهم إلى أن وصلت للطرقةِ الواسعةِ بين غُرفِ المرضى، لمحها جنديان فهرولا نحوها وأمسكاها وحاولا

منعِها، فصرخت وسقطت أرضاً رافضةً الخروجَ، فجرَّاها من ذراعيها ولازالت تصرخ:

-اتركاني.. اتركاني.. لابد أن أراه..

صوتُها اخترقَ سمعَ خالدٍ بعد أن خرجَ من غرفةِ السجين برفقةِ الأطباء، فتتبَّع مصدرَ الصوتِ حتى رآها، فلم يعجبه ما يفعلانِه بها، صاح فيهما بغضب:

اتركاها..

فهرولت نحوه وقالت متوسلةً راجيةً:

-أرجوك.. أريدُ أن أراه..

فَرنَا إليها بنظرةِ عطفٍ وهتف:

-ممنوعٌ يا آنسة..

جثت على ركبتيها أرادت أن تُقبِّلَ قدميه فأمسكها من كتفها وأبعدَ عنها قدميه وتحدث إليها في خجلٍ:

-انهضي يا آنسة.. لا تفعلي هذا أبداً..

وهي لم تزل ترجوه بصوتها المبحوحِ وصرخاتِها ودموعِها حتى لانَ قلبُه والتفتَ للطبيبِ يستأذنه، ولكنَّ الطبيبَ أبى فأستسمحه خالدٌ ثانية:

-دكتور.. خمسَ دقائقَ فقط..

وافق الطبيبُ على مضضٍ، فنهضت عن الأرضِ وهرولت نحو الغرفةِ، فوقف حازمٌ أمامها مانعاً دخولها، فاقترب خالدٌ ودفع يدَه الممسكةَ بالمقبض، فصرخَ حازمٌ بغضب:

- هذا ضدَّ القانون يا خالد بك..
- لكنه مع الإنسانيةِ يا حازم بك.

تنحَّى حازمٌ جانباً ودلفت أسماء، لتراه ممدَّداً على السرير، والأجهزةُ الطبيةُ تحيطُ به من كلِّ جانبٍ، فحدقت في وجهه ثم صرخت صرخةً مرعبة:

-أين جمال.. هذا ليس هو...!

هرول الطبيبُ نحو الغرفةِ وكذلك خالدٌ ومن خلفِهما حازمٌ، رأوها كما هي تصرخ:

-أين جمال...؟!

تحدَّث حازمٌ غاضباً:

-هي مجنونةٌ.. إنها تهذي..

رمى جملته وخرجَ يصيحُ في جنودِه:

-أخرجوا هذه المجنونةَ من هنا..

هرول الجنودُ نحوها، فأمسكت كلَّ واحدٍ منهما من كتفيه وهزته وهي تسأله:

-أين جمالٌ.. ماذا فعلتم به...؟!

إلى أن وصلت لحازمٍ، فصرخت في وجهِه بغضبٍ:

-أين جمالٌ يا حازم بك...؟ دُلَّني عليه وسأعطيك الملفَّ..

لطمَها على وجهِها لطمةً قويةً وأمرَ جنودَه أن يلقوها خارجَ المبنى، ثم نظر لخالدٍ فرآه منشغلاً بهاتِفه، فتنفس ساعتَها الصُّعَدَاءَ وتمنى ألَّا يكونَ قد سمعها.

وجرَّها الجنودُ خلفهم كبهيمةٍ عجماءَ، ثم ألقوا بها خارجَ المشفى، فتكوَّرت على نفسِها لدقائقَ، ثم تذكرت أنَّ جمالاً على قيد الحياة؛ فضحكت بهستيريةٍ كالمجنونة ثم هتفت بصوتٍ مسموع:

-مجنونٌ يا جمال...! كيف استطعت أن تخدعني هذه المرةَ.. تعودتُ على حركاتك السخيفةِ هذه، لابد أنك الآن في المنزلِ تضحك بهستيريةٍ على ما فعلتَه بي...! وتنتظر أن ترى رِدَّةَ فِعلي.. والله لن أسامحَك أبداً، ولن أبكيَ بين أحضانك كما تعوَّدتُ أن أفعل بعد كلِّ مقلبٍ منك..

نهضت عن الأرضِ واستوقفت سيارةَ أجرةٍ وأمرت السائقَ فانطلق في سرعةٍ، وانطلقت خلفه سيارةٌ سوداءُ يقودُها شابٌّ أصلعُ الرأس، نحيفُ البدن يرتدي بذلةً سوداء ...

*****

العالمُ الآن عبارةٌ عن كُرةٍ من خيطٍ مطاطيٍّ، ونحن قِططٌ نلهثُ وراءها، ندحرجها أمامنا بأقدامنا حتى ينفلت خيطُها ولا ندري أننا ننسجُ منه شِباكاً نحبس أرواحنا داخلها حتى نختنق، لقد ركلَ أحدُهم الكرةَ حتى وصلت إلى بيتِ أسماء، ثم جلس في المقهى المجاورِ للبيتِ يراقبُ المنزلَ بدقة، وسرعان ما شاهدَ رجلاً يخرج منه، أخرج هاتفه ومرَّرَ الكرةَ لحازمٍ وهو يجلس خلف مكتبِه، فضغط الأخيرُ على زرِّ الاستقبال وأنصت:

- حازم بك.. خالد بك وكيلُ النائبِ العام خرج الآن من منزل أسماء..

خيوطُ الغضب التفَّتْ حول رأسِ حازم، بدَّلت ملامحَه حتى مالت للسواد، ثم أغلق الخطَّ دون أن ينبسَ ببنتِ شفةٍ، تلقَّى مكالمةً أخرى.. وأنصت للمتحدث:

-حازم بك.. العصفورةُ دخلت العشَّ وأظنُّها تبيض الآن..

جملةُ المتحدثِ كانت سِكِّيناً مزَّقت خيوطَ الغضب وأعادت إلى وجهِه الابتسامَ من جديد، حتى نبرةُ صوتِه كانت لا تقلُّ سعادةً عن ملامحه:

-عظيم يا كمال.. ابقَ مكانَك حتى أصلَ إليكَ..

أغلق الهاتفَ معه ونهضَ عن مقعدِه وهرول نحو الخارجِ وهو يصيحُ في أحد رجاله:

-أحضِر القوةَ يا بهاء..

صاحَ في رجاله ثم ركضَ نحو الخارج وهتف في نفسِه في سعادة بالغة:

-أودُّ أن أرى وجهَك الآن يا خالد..

وكأنه مرَّرَ الكرةَ لخالدٍ عبرَ حديثه مع نفسِه.

وترجل خالدٌ من سيارته، ثم استند على مقدِّمتِها بجذعه ورفع بصرَه لأعلى وصولاً إلى نافذةِ شقَّتِه، وتحدث مع نفسه بتأنيب:

-ريم لا تستحقُّ مني أن أعاملها هكذا...! خصوصاً أنها استغنت عن العالم كلِّه وتمسكت بي، فلا يجدرُ بي التجبُّرُ عليها، هي تحتاجُ للأمانِ أكثرَ من

الحبِّ.. تحتاج لأن تشعرَ باحتواءِ الأبِ أكثرَ من عشقِ الزوجِ.. لابد أن أكونَ لها كلَّ شيءٍ من الآن ...

كأنَّ حديثَه اخترق قلبَها ليتفجَّرَ الشوقُ إليه داخلها لتهتف بينها وبين نفسِها بلوم:

-ما ذنبُ خالدٍ فيما حدث...؟ فهو لا يستحقُّ مني كلَّ هذا الجفاءِ.. لابد أن أنهضَ الآن وأخلعَ عني رداءَ الرعبِ، وأرتدي لباسَ الأنوثةِ لأبدوَ له أنثاه التي لطالما كان يريدُها فهو الآن على وشكِ المجيءِ..

لازال خالدٌ يُحدِّقُ في النافذة، وفي الجهة الأخرى كان الرجلُ الأخيرُ الذي تحدث مع حازمٍ مُصوِّباً بصرَه إلى نافذةِ غرفةِ لإحدى الشققِ في الدورِ الثالث، يتمنَّى أن يكونَ من ضمنِ سكانِها، يرى خيالَ المصباحِ يتمايلُ فيترنَّح برأسِه، ناقماً على الرجالِ الذين يقطنون الشقة، فهُمُ الآن يتغزَّلُون في أجسادِ النساءِ اللواتي يتراقصنَ أمامهم، لكنه مهما شردَ بخيالِه؛ فلن يصلَ لأنوثةِ ليلى الطاغيةِ التي ترقصُ على أوتارِ القلوبِ حافيةَ القدمين، تتمايلُ بخصرِها يمينةً ويسرةً فتستفزُّ بأنوثتها رجولةَ من يجلس أمامها، حتى أنه لم يستطع الصبرَ على استفزازها أكثرَ من ذلك ونهضَ عن مقعدِه وحملها بين ذراعيه وألقى بها فوقَ الفراش، وجرَّدَها من ملابِسها وقبل أن يهم بها اقتحمت الشرطةُ الشقةَ، وانتشر رجالها في أنحاءِ غرفتِها، وقبضوا على الجميعِ عرايا كيومِ ولدتهم أمهاتُهم، مُتلبِّسين بالرذيلة، وأحضروهم أمام حازمٍ منكَّسِي الرؤوسِ، والعرقُ يتصبَّبُ من أجسادِهم بغزارة، فنظر إليهم حازمٌ بحقارةٍ ثم رفع بصره تجاه الكاميرات المزروعةِ في كلِّ زوايا الشقَّةِ وابتسم محدثاً نفسه:

-بات اللقاءُ قريباً يا خالد بك..

في هذه اللحظةِ كان الاعتذارُ بالقبلات خيرَ وسيلةٍ لمَ وردَ من أخطاءٍ في حقِّ الزوجين العاشقين، لكنَّ الهاتفَ اللعين أبى أن تتخطَّى علاقتُهما مرحلةَ الاعتذار، رنَّ عدةَ مراتٍ حتى التقطه خالدٌ بانزعاجٍ تامٍّ، وضع الهاتف على أُذنه وأنصت للمتحدث:

-خالد بك.. معك المقدم حازم سلطان.. أريدُك حالاً في مكتبي داخلَ القسم لأمرٍ هامٍّ يخصُّ زوجتَك الدكتورة ريم سعد..

فزَّ خالدٌ من فراشِه مفزوعاً، ارتدى ملابسَه في عجالةٍ ثم ركضَ نحو الخارج، ركب سيارته وانطلقَ بها، وزادَ من سرعتِها واخترقَ الطريقَ كمن يقودُ طائرةً حتى وصلَ إلى هناك، صعد الدرجَ بخفةٍ بالغةٍ وصولاً إلى مكتبِ المقدمِ حازم، وطرق البابَ ودخلَ فرأى حازماً يجلس خلفَ مكتبِه، وبجواره تقف ليلى مَطأطأةَ الرأس، تستُرُ جسدَها بملاءةِ سريرٍ، حين رآها خفض بصرَه أرضاً والتزمَ الصمتَ فدعاه حازمٌ للجلوسِ بعدَ أن رحَّبَ به:

-أهلا خالد بك.. تفضَّل اجلس..

جلس خالدٌ ولازالت نظراتُه تأكل ليلى غضباً فتابع حازمٌ بشماتة:

-أظنُّك تعرفُها خالد بك...؟

فهزَّ خالدٌ رأسه بأسفٍ وهتف بخجل:

-نعم.. أعرفها..

ابتسمَ حازمٌ ابتسامةَ انتصارٍ وهتف بدهاءٍ:

-خذها واذهب خالد بك، وأبلغ سلامي للمدام وللسيد سعد..

نهضَ خالدٌ عن مقعدِه بتثاقلٍ، ثم أشارَ لليلى أن تتحرك أمامَه فاستوقفهما حازمٌ قائلاً بدهاءٍ:

-انتظر خالد بك حتى تُبدِّلَ ملابسَها..

قال جملته ونهضَ عن مقعدِه، ثم ألقى بفستانٍ كان في يده أرضاً وتحرك نحو الخارجِ مصطحباً خالداً معه.

مرَّت دقائقُ وخرجت ليلى بكاملِ أناقتِها، وعيناها تَعدُّ خطواتِها الثقيلة، فسارت أمام خالدٍ حتى سيارتِه، وركبت بجوارِه دون حديثٍ وصولاً إلى منزلِها، فترجَّلت عن السيارةِ، فانطلقَ هو في طريقه إلى منزله ولم يلبث إلَّا دقائقَ حتى وصل، فطرق البابَ ففتحت له ريم فاتحةً ذراعيها لتستقبله فأطاح بها بعيداً

عنه، ثم دلف في سرعةٍ إلى غرفته وأغلق الباب خلفه، فأسرعت هي الأخرى نحو غرفتِها وألقت بنفسِها على فراشِها وغاصت في بكائِها المرير...

*****

منذ اعتقالِ عاصمٍ وحتى هذه اللحظةِ كلَّما افتقد منالَ تحسَّسَ وجهَه فشعرَ بالدفءِ وكأنها حقاً هنا إلى جانبه..

لكنه هناك إلى جانبِ الأموات، يُعزِّي نفسي والعالم.. لم يرَ الشمسَ إلى هذه اللحظة حين أخرجوه من زنزانته وسطَ حراسةٍ مكثفة ليعرضُوه على النيابةِ العامةِ، بعد أن حرروا له محضراً بقتل الملازمَ سعيداً بالاشتراك مع مجهولين آخرين.. الشمسُ تستطع في وجهِه فلا يستطيع فتحَ عينيه، يغمضهما كي لا يفقدَ بصرَه، يسيرُ خلف الجنودِ مكبَّلَ اليدين وصولاً إلى عربةِ المساجين، ألقَوه داخلَها وركبَ خمسةٌ منهم معه، ثم انطلقت أمامهما مُدرَّعتان وخلفهما واحدة، تحسُّباً لأيِّ مباغتةٍ من قِبَلِ المجهولين وحرصاً على وصولِ السجينِ للنيابة العامة بسلام.

وصلوا إلى هناك حيث مبنى النيابة، أنزلوه من السيارة وجرُّوه خلفهم كخروفٍ يُجَرُّ للأضحية، كان يرتجف بشدةٍ؛ فهو يعلم أنَّ هنا سيكتبُ مصيره بأيادي بشرٍ ماتت في قلوبِهم الإنسانية. تعمَّدَ حازمٌ أن يحضرَ التحقيقَ شاهدَ إثباتٍ، ليرى رِدَّةَ فعلِ خالدٍ معه، دلف إلى مكتب خالدٍ قبل أن تبدأ التحقيقاتُ، استقبله خالدٌ بحفاوة، ثم احتضنه كأبٍ يلتقي ابنه بعد غيابٍ طويلٍ، استقباله كان مبالغاً فيه حتى أنَّ حازماً نفسه دُهِش منه، لكن جلس على المقعد فارداً ذراعيه كطاووسٍ يستعرض مفاتنه في يومِ التزاوج، أمر خالدٌ الجنديَّ أن يُدخِلَ المتهمَ عليهما، فأدخلوه مغلولَ اليدين، رمقه خالدٌ بنظراتِ احتقارٍ، ثم أقدم الجنديُّ لفكِّ وثاقه فصاح فيه خالدٌ غاضباً:

-اتركه مقيداً كما هو.. فالكلابُ أمثالُه لا يستحقون معاملةَ البشر..

شعر حازمٌ بالانتصار داخلَ نفسه، كما أن الكاتب الذي يجلسُ عن يمينِ خالدٍ أخذته الدهشةُ وفغر فمَه؛ فهذه المرَّةُ الأولى التي يرى فيا خالداً قاسياً مع متهمٍ لدرجة أنه جعله واقفاً على قدمٍ واحدةٍ لمدةٍ لا تقلُّ عن ربع ساعةٍ قبل فتح التحقيق، مما جعل حازماً يبتسم في نفسه بسخريةٍ ويقول متوعِّداً:

-تريد أن تشتريَ سكوتي بما تفعلُه حتى أنك تظنُّ نفسك ضابطَ مباحثٍ، الصبرَ حتى أُفلت من تحتِ قبضتك وبعدها لن يبقَى واحدٌ على هذه الأرض وإلا ومتَّعَ بصرَه بالنظر إلى لحمِ السنيورة الرخيص. أيها الوكيل..

بدأ التحقيق بسؤالٍ وجَّهه خالدٌ للمتهم بعد أن أقرَّ باسمِه وسِنِّه وعنوانه:

- لماذا قتلت الملازم سعيد...؟

تلعثمت الكلمات في فمِ عاصمٍ؛ فهو لا يعرف عم يتحدثون، أخذ برهةً من الزمن ولم يجب.

كرر عليه السؤال:

- أيها الوغد لماذا لا تجيب...؟ أم أن القطَّ أكل لسانك ....

نطق بخوف:

-سيدي أنا لم أقتل أحداً، ولا أعرف عن ماذا تتحدث...؟

أدار له الحاسوبَ وقال بنبرةٍ يتخللها الغضبُ:

-انظر.. مَنْ هذا...؟

حدق عاصمٌ في الشاشة فرأى شابَّاً ملامحُه متحجرةٌ كصخورٍ تجمعت على قمة جبل، عيناه خاليتان من أيِّ رحمةٍ.. تلمعان حمرةً كعينَي ذئبٍ لحظةَ انقضاضه على فريستِه، حاجباه أسودان كثيفان كأجنحةِ الغراب متمركزان على سحنةٍ سمراءَ تظللها لحيةٌ سوداءُ يعلوها فَمٌ مهشمَ الفكين.. جسدُه نحيفٌ كسيفٍ مسمومٍ يفتك بكلِّ من يلمسه.

حدق فيه وأطال التحديقَ ثم تحدث مستنكرًا:

-لا أعرفه...؟

ضرب خالدٌ المكتب بقبضة يده وأردف بغضبٍ ممزوجٍ بالسخرية:

-كيف لا تعرفه وأنت كنت تراقبُ له الطريقَ أسفل البنايةِ...؟! أم أنك كنت تسمرُ تحتَ ضوء القمر...؟!

هذه الجملة جعلت حازماً يطلق ضحكاتٍ قذرة، اشمأزت منها الجدران، حتى قلمُ الكاتب كاد أن يتقيَّأَ حبرَه الذي يخط به مصائر الناس بلا رحمةٍ ولا شفقة ...

نظر خالدٌ إلى كاتبه وأردف:

-تمت مواجهةُ المتهم بالأدلة الثابتةِ لدينا وادَّعى الإنكار، وبناءً عليه قررنا نحن خالد الشناوي وكيلُ النائبِ العام اعتقالَ المتهم أربعةَ أيام على ذمَّة التحقيق مع مراعاةِ التجديد له في الموعد المحدد..

هنا وفي هذه اللحظةِ نهض حازمٌ عن مقعده ثم ابتسم في وجه خالدٍ، وتوجَّه نحو الخارج، مشى طِراداً، رافعاً رأسَه لأعلى كملكٍ منتصر

*****

انتبه لصوت مزلاج باب زنزانته الحديدي فارتعدت أوصالُه، وحدق في البابِ برعبٍ لتصطدمَ عيناه بوجهِ أحدِ الجنود ومن خلفه العميدُ مصطفى بملامحه الجامدةِ وشاربِه الكثِّ، فلم يُعِرْ له اهتماماً فقد تعود على هيئته، بل إنه تعمد أن يرعبَه كلَّما رآه، ولكن هذه المرةَ يملأُ الرعبُ قلبَه هو، فلقد مرَّ من أمامه شريطُ حياته السابقة، مُرَّاً مشوهاً كخرقة بالية كلُّها ذنوبٌ على هيئة ثقوبٍ واسعةٍ لا يُهندِمُها أيُّ خياطٍ ماهر، ولا تصلح حتى أن تستعمل مجدداً إلا وقوداً للنار، لأول مرةٍ منذ اعتقاله تذرف عيناه دمعاً حارقاً حفر لنفسه خندقاً في وجهه، حين رآه العميد منكفئاً على جسدِه اقترب منه وبنبرةٍ ساخرة حدثه:

-حرصْتُ على أن أحضرَ تشييعَك إلى مثواك الأخيرِ وجئتُ ومِن خلفي لجنةُ التنفيذ، هل تودُّ أن تقولَ لي شيئاً أُضيفه لصحيفةِ ذكرياتي معك أيها الثعلبُ الماكرُ...؟

ابتسم ابتسامةَ قهرٍ وردَّ عليه بجمودٍ ممزوجٍ بالتحدي:

-تذكَّر هذه الملامحَ جيداً فلن تنساها أبداً، ثم إنني أريد أن أبوحَ لك بسرٍ لا يعرفه غيري وغيرُك، وأظنكَ لا تودُّ أن يعرفَه أحدٌ سوانا، فهلَّا أعطيتني أذنيك...؟

اتسعت مقلتا العميد في دهشة ثم جلس أمامه مقرفصاً وأسلم له أذنه اليسرى فهمس الرجلُ فيها بكلامٍ غير مسموعٍ لثالثهما:

*****

تغيرت ملامحُ العميدِ وتجمَّدَ الدمُ في عروقه وفزَّ واقفاً ثم هوى بكفِّه الضخمِ على وجهه، وركله بقدمِه اليمنى عدَّةَ ركلات في بطنِه وهو يقولُ بغضب:

-حقير.. حيوان ...

كان الرجلُ يضحك بهستيريةٍ أثناء سب العميد له، مما دفع الأخيرَ إلى أن يهرولَ خارج الزنزانة وهو يقول لقائد لجنة الإعدام:

-نفذ عملك..

ماجت روحُه بين الرُّكامِ، انتشلها الحزنُ كخرقةٍ باليةٍ، قذفَ بها بعيداً فتعلقت في غصنٍ يابس لشجرةٍ كانت فيما مضى مثمرةً، الضجيجُ والسكونُ واللا مبالاةَ التي ركنَ إليها يوماً تنوءُ لا حدود للرثاء.. للبكاء الداخلي الممزق.. لا حدود للفراغِ الذي يملأُ روحَه.. ولأعقابِ الالام كلُّ الاحترامِ.. أقام وجهَه.. انتظر.. ترقَّبَ.. المجهولُ قادمٌ والصريرُ في أذنيه مآذنُ تُصدِّعُ بالرحيل.. دعوةٌ لخوضِ المستحيلِ بل أمنية غصن آخر.. لبَّي قلبُه.. عم سننتحبُ الليلةَ...؟! أم أنك بتَّ ناسياً.. تخشى ما تبقَّى...؟ وكلُّ قدمٍ تجرُّها إلى طريق، وكلُّ كفٍ

يشتعل به حريقٌ، وكلمّا فك قيداً ارتعشت.. انتحبت.. واختبأت خلف ظهره تصارعُ كالغريقِ لبَّيك عقلَه.. أيُّ التفاصيل عمقُها أبعد...؟! أيُّ الشعورِ فيها أقلُّ خطراً وأعمقُّ...؟! صوتُ الملائكة كبرياء، وهسهسةُ الشياطينِ عزاءٌ، وكأنها جنازةٌ مملوءةٌ عنفوانا، وألفُ ألفِ شامتٍ يدهسون جبينَه ويُهيلونَ عليه التراب.. ولا عزاء للخرْقةِ التي مزقها غصنُ الليمونِ حين كانت يوماً ما على ما تظن تصارع للبقاء...!

دلف جنديانِ إلى الزنزانة وأمسكاه من ذراعيه ورفعاه كي يستقيمَ بجسده ويسيرَ معهما، تجاوزا به الطرقةَ البالية حتى غرفةِ الإعدامِ، نظر إليها بعينين متجمدتين.. سقط على ركبتيه.. بكى بشدة.. جرَّه الجنديان ناحيةَ الغرفة.. ثبَّتَ قدميه في الجدارِ، وأبى أن يدخل.. هرول جنديان آخران.. انتزعا قدميه.. حملوه ودلفوا به عنوةً.. رأى المشنقةَ أمامه.. تتوقُ لعناقِ رقبته.. جفَّ ريقُه.. صرخ بأعلى صوته:

-أرجوكم.. أرجعونِ..

تقدموا به حتى أوقفوه على خشبةِ التنفيذ، قيَّدوه بالأحزمة كي يشلُّوا حركته.. حاول أن يصرخَ لكنَّ الصرخاتِ وقفت في حلقِه.. بلَّل ملابسَه من شدة الرعب.. نبضاتُه تضربُ صدرَه بعنف، تُمزِّق ضلوعه.. ركبتاه تتخبَّط تصارعا.. أنفاسُه تغيبُ لثوانٍ ثم تعود.. مِنصَّةُ الحكم بالإعدام أَصبحت جاهزةً.. الحبل ملفوفٌ حول عنقِه.. عيناه بارقتانِ.. الخوفُ من موتٍ محتومٍ جعل أَطرافهُ ترتعشُ؛ حتى خُيِّلَ لهُ أنهُ مات قبل أن يُوضع حبلُ المشنقةِ حوْلَ رقبتِه...! دخل في إغماءٍ، وكأنهُ يرِيدُ أن يمرَّ بسرعةٍ إلى ظلامٍ وسكونٍ أَبَدَيينِ، وُضِع على رأْسِه غطاءٌ أَسْودُ اللَّوْنِ، تمنَّى لدقيقةٍ أن يكونَ كابوساً مزعجاً سيستفيق منه، أو أنَّ أحداً ما يتدخل لإنقاذه من الموت.. فتح عينيه داخل الغطاء ظلامٌ دامسٌ لا يرى سواه.. هز رأسه.. حرَّك قدميه المكبلتين.. شعر بالحبل يضيق على عنقه.. عاد مسرعاً لسكون جسدِه خوفًاً أن يختنق، نهج بشدَّةٍ..

صرخ بينه وبين نفسِه: -أنقذوني- فُتحَتِ الطبليَّةُ أَسفلَ قدميه؛ فسقط في بئرٍ عمقُها أَربعةُ أمتارٍ.. احتقن وجهُه؛ حيثُ مال إلى اللون الأزرق، وبرز لسانُه، ولازال قلبُه يخفق بشدة.. حين أخرجوه لم ينتبهوا أنَّ قلبَه لازال ينبض، لفُّوه ببطانيةٍ ووضعوه خارجَ الغرفة، نظر إليه العميد مصطفى وتنفَّس الصُّعَدَاءَ رغم أنه ما زال يتساءل بذهولٍ:

-كيف عرف...؟

هكذا أرباب الفواحش يعرفون بعضهم البعض؛ وكأن بين جبينهم تكتب معاصيهم ليقرأها كل مبتلٍ بها. إنها الحقيقة التي يتغافل عنها أصحاب القلوب المريضة؛ فلا تظن نفسك قادرًا على إخفائها، فلولا ستر ربك لمَ استطعت أن تقيم ظهرك بعد انحنائه؛ ولمت اختناقا من رائحة ذنوبك النتنة...

أخرجه من شروده مساعدُه جلال حين همس له بسعادةٍ:

-مبارك يا مصطفى بك..

انتبه لحديثه وتنهَّدَ بحرقةٍ ثم ردَّ بقلق:

-أَجِّل هذه الكلمةُ يا جلالُ لحينِ الانتهاءِ من دفنِه، واسعَ في استخراج الأوراقِ اللازمة كي نستريحَ منه للأبد..

*****

# الفصل السادس عشر

♆♆♆♆♆♆♆♆♆

في ليلةٍ طاعنةٍ في اليأس، ظهر شبحُ النحس، وحلَّق في السماء معقعقاً كطائر العقعق، يبحث عن إناثٍ يصيبهم بنحسِه، وقعت عيناه على بقعةٍ من الأرض مثلَّثةَ الشكل، كلُّ ضلعٍ فيها يمثل بيتاً، تُميِّزُهم عن بقيةِ المنازل رائحةُ الحزن التي تفوح منهم، وقف في الهواء وحدق فيهم بحيرةٍ وأخيراً قرر أن يزورَ ثلاثتهم تباعاً، صفق بجناحيه استعداداً للهبوط، حطَّ على نافذةِ أوَّلِهم.. لمح بعينيه خالداً وهو يجلس على أريكته يشاهدُ التلفاز بتركيز.. توجَّه نحوه وعلى حين غِرَّةٍ منه نقره في رأسه فانفجرت التساؤلات داخلها مثل عبوةٍ ناسفة:

-هل يُعقل أن تكونَ العائلةُ كلها هكذا...؟

كيف استطاعت أن تخدعَني...؟!

وإلى متى سأظلُّ أكتم شكوكي داخلي دون مواجهةٍ...؟

ولماذا طلبت مني عدمَ حضورِ أهلِها زفافَنا...؟

بتُّ أشكُّ الآن في السبب الذي قاله لي والدُها، يبدو أنَّ هناك أمراً أخرَ تُخفيه عني، بل بتُّ أشكُّ في نفسي وفيها ولابدَّ أن أقطعَ الشكَّ باليقين..

أثناءَ ما كان يُحدِّثُ نفسه خرجت ريمُ من غرفتِها، وتنحنحت ثم سألته بحزنٍ ممزوجٍ بالخجل:

-إلى متى سنظلُّ غرباءَ ونحنُ نقبعُ تحت سقفٍ واحد، لا أعلمُ ما الذنبُ الذي اقترفته لتعاملَني هكذا...؟!

نظر إليها بعينٍ جامدةٍ وتحدث بنبرةٍ خشنة:

-الذنب ذنبي والخطأُ خطئي...! والحلُّ في يدي لكن بعدَ أنَّ أتأكَّدَ..

أجهشت بالبكاءِ وهتفت مصدومةً:

-تتأكد.. تتأكَّدُ من ماذا يا خالد...؟!

صمت ولم يجبها فرددت بنبرةٍ باكيةٍ ومرتفعةٍ:

-تتأكد من ماذا يا خالد...؟ أجبني..

ثبَّتَ بصره في عينيها الباكيتين وراوغَ متسائلاً:

-لماذا انفصلت أمُّكِ عن أبيك يا ريم...؟

انتفض قلبُها وتزايدت دقاتُه، وكاد يخرجُ من بين أضلعِها ليدفنَ نفسه في التراب وينتظر أن يلحقَ به جثمانُها كي لا تجيبَ على سؤاله، ودَّت لو أن تنشقَّ الأرضُ أسفلها قدميها لتبتلعها، وبلَّلَ العرقُ وجنتيها، واستحوذتِ الرعشةُ على جسدها، ثم التزمت الصمتَ فأعادَ عليها سؤاله:

-لماذا يا ريم...؟

أرغمت الإجابةَ على الخروج من بين شفتيها حتى أنها مزقت قلبها، وكأنَّ روحَها هي ما تخرج:

-توقَّفتِ الحياةُ بينهما عند هذا الحدِّ، ولم يعُد بإمكانِهما استكمالُ مسيرِهما معاً فيها...! ولا أعرف السببَ الحقيقيَّ ولا أودُّ أن أعرف..

ثعالبُ الشك تصارعت داخلَ رأسه، دفعته للنهوضِ عن مقعده، والاقترابِ منها ثم قبضَ بيدِه الضخمةِ على ذقنها ورفع وجهها في وجهِه وهتف بغضب:

-لكنني سأعرفُ.. حتماً سأعرف كلَّ شيءٍ..

تركها وتوجَّه نحو غرفتِه بعد أن قذف في وجهها كلماتِه القاتلةَ، فجثت على ركبتيها واحتضنت رأسَها بين كِفَّتيها، واستأنفت رحلَتها في البكاء الذي اعتادت عليه منذ زواجها ...

تأكَّد شبحُ النحس من أنَّه وشّمَ قلبيهما بوشمِهِ فطار حتى وصل إلى منزلِ زينب، ليراها تجلس على سريرها تنعي حالها، وبجوارها أحمدُ مستلقياً على ظهره متوسِّداً ذراعيه، غارقاً في شرودِه، مرهقٌ من عقله الفارغ الذي لا يحمل

شيئاً من مزايا ذكرياتِ البارحةِ ولا حتى مساوئها، مكسورٌ كرجلٍ كسرته الغربةُ وجعلته شبحاً لا يخرج سوى في الليل، جسدُه باردٌ وجافٌّ ومتيبِّسٌ كَغصنٍ حزينٍ كسرته عاصفةٌ، يحاولُ أن يَجرَّ حياتَه من شعرِها ويُجبِرُها أن تعود معه ليلقي بها في أحضانِ زينب، لكنها تأبَى الرجوعَ، فيرجِعُ أدراجَه محمَّلاً باليأس موسوماً بالنحس، مشتَّتاً وملعوناً يركض حافياً على زجاجِ اضطرابه، يتقلَّب في موقدِ الحسرات مثل جمرةٍ يائسةٍ ..

حالُهما لم يُكلِّف الشبحَ عناءَ التحليق فوق رأسيهما، ولا حتى التنقيبَ داخلَ قلبيهما.. فتركهما مغموسَيْنِ في بركةٍ من الخيبات وتوجَّه نحو منزلِ ليلى وحين وصل إلى هناك تسلَّلَ إلى قلبها شعورٌ سيِّءٌ لا يمكن وصفه، ضياعُ تربيةٍ تحت جلدِها، وفراغٌ قاتلٌ مستحوِذٌ على روحها، وصمتٌ رهيبٌ نما بحنجرتها كما تنمو السنابلُ في الحقولِ الشاسعةِ، الوحدةُ الممزوجةُ بطعم الفقدان تنامُ على كتفيها منذ ليالٍ خَلَتْ، وتجلس على سريرها محدقةً في السقف تلعنُ حظَّها العاثرَ تبتلعُ الأحقادَ كما الأقراص المُهدِّئة، وتتناولُ اللعناتُ بانتظامٍ وترتشف وراءها جرعات من غيظٍ ضخم:

-لماذا لا تكون ريم مثلي مزدحمةً ببشاعةِ العالم، محشورةً في زقاقٍ مظلمٍ عتى عليه الزمان...؟!

لماذا لا تكون منحوسةً ومضطربةً وشعرُها يتساقطُ كسنين عمري؟! دائماً كان جمالُها نعمةً وجمالي نقمةً، وكانت رشاقتُها كنزاً ورشاقتي شهوةً، حظُّها جنةٌ متمثِّلٌ في رجلٍ خالٍ من العيوب، وحظِّي جيفةٌ نتنةٌ أُدفن معها في قبرٍ واحدٍ...! وحين أردت الخروجَ منه لطَّختُ نفسي بالفضيحة أمامَها، رأتني عاريةً من كلِّ شيءٍ حتى عفَّتي التي كنتُ أتظاهرُ بها أمامها سقطت؛ ولكن من السببُ في كلِّ هذا...؟ وإلى متى سأظلُّ هكذا...؟ هذا المعتوه الذي ينامُ خارجاً هو سببُ كلِّ حسرةٍ وخيبةٍ لحقت بي..

عقبَ حديثِها مع نفسِها قرَّرت أن تواجَهه، فنهضت وسارت بخطواتٍ سريعةٍ نحو غرفتِه، دفعت البابَ بقوةٍ ودلفت إليه على عَجَلٍ؛ فانتبهت عيناه

لقدومِها وحاولَ أن يعتدلَ؛ إلَّا أنَّ المرضَ كان قد أثقلَ حِراكَه ومنعه منه؛ فلم يستطعِ النهوضَ، فتأوَّه بأنينٍ وحدَّثها بعينيه الذابلتين ببعضِ الكلماتِ المشوهةِ التي طارت أكثرُ حروفِها في الهواء:

-أ. أ. أ. أليسَ...

ففهمت ما يريدُ قولَه، ولكنَّها ليست هنا لتقفَ موقفَ التلميذِ الذي أرادَ مُعلِّمُه أن يُنزلَ به عقوبةً...! بل هي من جاءت لتُحاسبَه هو.. فكان لابد من أن تسألَه ويجيبَها...! وبالفعل تهكَّمت عليه:

-لا تهتمَّ لأمري، إن كان عندي موعدٌ الليلةَ أو لا...؟ ولا تهتمَّ لأن تسألَني في شيءٍ أصبح لا يخصُّك، فقط قُل لي لِمَ فعلتَ بي وبنفسِكَ ما فعلتَ...؟ لماذا قضيت علينا وعلى حياتِنا.. لماذا هدمت سعادتَنا.. قل لي ماذا أفعلُ أنا الآن...؟ هل أظلُّ بجانبك حتى تتركَني وحيدةً وتذهب دون رجعةٍ؟ ولكن بعد أن تقتلَ الأنثى التي بداخلي...؟

كلماتُها سقطت عليه كالسيفِ الصمصامِ مزقت قلبه المهترئَ، فحاول أن يقاطعَها فلم يُطعه لسانُه، بل إنه أيضاً تشقق من شدة المرض وأصبح بالياً، حاول أن يوقفَها بإشارةٍ من يده، فخانته أصابعُه.. حتى ملامحُه لم يستطعِ التعبيرَ بها عن غضبِه ممَّا تقولُ؛ فهي قد صارت مُترهِّلةً كأثداءِ امرأةٍ عجوزٍ تسعينيةٍ ماتت فيها عروقُ الانتصابِ، لقد ذهب وجهُه إلى الزوال، وبقيت عيناه المنطفئةُ مثل شمعةٍ كئيبةٍ تلومها.

أفرغت شحناتِ الغضبِ دَفْعَةً واحدةً في وجهِه ثم شيَّعت ظلَّه بنظراتِها الناقمةِ إلى الجحيم، وخرجت تبحثُ عن هاتفِها، قبضت عليه متلبساً بالوحدة، فتشته بشراهةٍ كفاشلٍ يُفتش عن طعام في ثلاجةٍ ليس بها إلا الماءُ منذ سنين، وقفت عند رقم أمجدَ، فتنهدت بحرقة ثم تحدثت بقهر:

-حتى أنت فضَّلتَ الهروبَ عند أوَّلِ عقبةٍ واجهتك.. كنت أتمنى أن تركضَ بداخلي وداخلك لتلملم زجاجَ أحلامنا.. كنت أتمنَّى ولازلت رغم خذلانك لي،

ولكنْ أعدُك حين تظهرُ لن يبقى حاجزٌ بيننا يمنعُني عنك حتى لو كلَّفني الأمرُ إرسالَ أحدِهم للجحيم..

حدثت الهاتف ثم ضغطت على زرِّ الاتصال على أملٍ أن تلتقط صوتَه لتُطعمَ روحها الجائعة، لكن هيهات.. هيهات:

الهاتف الذي طلبته غيرُ موجودٍ بالخدمة..

*****

في غرفةِ الإنعاش بالمستشفى العسكريِّ وقف الأطباءُ مُنكَّسِي الرؤوسِ عاجزين أمام تشخيصِ حالة السجين الذي لم تخترق الرصاصاتُ جسدَه لساعاتٍ طوالٍ من التوتُّرِ والقلق قضاها الأطباءُ بجواره، يحاولون تحديدَ الحياةَ من عدمِها لهذه الحالةِ الغريبةِ...! لقد فشلوا فشلاً ذريعاً، وتضاربت أقوالُهم، فبعضهم قال بأنه ماتَ، وبعضُهم قال بأنه فاقدٌ للوعي، ولكن حين ظلَّتِ الحالةُ في صمتها أكثرَ من يومين أصبح مذبذبا في رأيه وكاد أن يعلنَ فشله بامتياز، بينما قال آخرُ لقد مات إكلينيكياً، أما رابعُهم فقد ضرب بأقوالهم عرضَ الحائط مؤكداً أنه لا زال على قيد الحياة، مستنداً إلى خفقانِ قلبِه رغم أنَّ التنفسَ قد توقف، لكنَّ الأعضاءَ جميعَها تعملُ بانتظامٍ دون أن تحتاجَ لتنفسٍ اصطناعيٍّ، كذلك حدقةُ عينيه تستجيبُ للضوء، والجفنين كلما مرت عليهما قطعةٌ من القطن أُغلِقَا..!.

وسط هذا الجوِّ من الريبة قرَّرَ أحدُهم عملَ إنعاشٍ قلبيٍّ رئويٍّ لتلك الجثةِ النابضةِ.. ولكنَّ النتيجة كانت صادمةً أكثرَ.. جعلتهم يرتبكون كطائرٍ أراد التحليقَ عالياً فارتطمت رأسُه بالزجاجِ فسقط مغشياً عليه...

اضطربتِ الحقيقةُ.. تاهت.. عصفت.. تصحَّرت.. وبقي مكانٌ للصمتِ داخلَ جذورِ أفواهِهم، أصبحت أعينُهم مصوَّبةً نحو ذلك الجسدِ الذي يتحوَّلُ لونُه للزرقةِ حيناً، ثم ما يلبث أن يكتسي بلونِه الطبيعيِّ من جديد،

مغلقٌ العينين أشبهَ بنائمٍ تظهر علاماتُ الأسى جليةً على وجهِه.. هل يُعقلُ أنه يُحاسبُ الآن...؟! هل شياطين جهنمَ هي من تعبثُ به وبنا هكذا...؟!

كان هذا حديثَ أحدِ الأطباءِ مع نفسِه وهو يمسحُ نظارته بمنديلٍ ورقيٍّ، وما إن شرع في ارتدائها حتى قطعَ صمتَهم صوتُ ممرضةٍ بدينةٍ تُخبرهم بأنَّ المديرَ يريدُهم جميعاً في مكتبه، فأومأَ الجميعُ برأسِه بالموافقةِ وانصرفوا تِباعاً، وقبل أن يخرجَ آخرُهم من الغرفة اقترب منه الجنديُّ المُوكَّلُ بحراسةِ السجين المُسجَّى على سريرِه وهمس في أُذنه قائلاً بريبةٍ:

- دكتور.. هل هو من آكِلي لحومِ البشرِ...؟

ابتسم الطبيبُ للمرةِ الأولى ووضع يده على كتفِ الجنديِّ وهو يمازحه:

- لا أظنُّ أنه يأكلُ اللحوم.. ربما يكتفي بمضغِ القلب فقط...

ألقى بجملتِه الساخرةِ ثم لَحِقَ بزملائه...

والتفَّ الجميعُ حول الطاولة التي يترأَّسُها المديرُ الذي أخذ يتطلَّعُ إلى التقاريرِ التي كتبها الأطباءُ في ذهولٍ مختبئٍ خلف الصمت الذي عمَّ الغرفةَ حتى استطاع المديرُ أن يقتلعَ هذا الصمت ويهتف:

-إذن لا تشخيص لهذه الحالة أو لنقل تلك المعجزة، لابد أن يبقى الأمرُ طيَّ الكتمانِ على الأقل الآن...

قاطعه أحدُهم باستغرابٍ:

- هذه معجزةُ العصرِ وبدلاً من أن نُقيمَ المؤتمراتِ الطبيةَ الإعلاميةَ التي ستُدهِشُ العالم كلَّه، نضعُ النقابَ على الحالة بهذه الطريقة...!

استند المديرُ بكلتا يديه على الطاولةِ أمامه ووجَّه كلامَه مُوبِّخاً المتحدث:

-أنت لا تتحدثُ عن مراهقٍ ألقى بنفسِه من أعلى سطح إحدى البناياتِ.. نحن أمام سجينٍ متَّهمٍ في قتل أحدِ القيادات، ويقبعُ الآن تحت أيدينا بعدما أَطلَقت الشرطةُ عليه النار لمحاولتِه الهرب.. لا نستطيع الآن أن نكشفَ فشلَنا أمام المسئولين، ونريهم عجزنا التام في تقاريرنا عن حالته، لذا فلنضع له

الأجهزةَ التنفسيةَ ولنقل إنه مات إكلينيكياً لحين التوصُّلِ لحلٍّ لتلك المعضلة..

حين انتهى من حديثِه عادَ الصمت ثانيةً سيد المكان؛ فاتخاذُ قرارٍ صعبٍ كهذا يحتاج إلى تفكيرٍ عميقٍ، لقد شعر الجميعُ بالإعاقةِ الفكرية والجهلِ المزمنِ، ولم يتطرَّق أحدُهم لعدم اختراق الرصاصاتِ لجسدِه، بل إنهم تناسَوها تماماً وكأنها حدثٌ عاديٌّ، رغم أنَّ المعجزةَ الحقيقيةَ تكمن هنا...!

*****

سيارة حفظ الموتى، ومن خلفِها العميد مصطفى ومساعدُه جلال داخل سيارةٍ سوداءَ اللون فاخرة، وأخرى تحمل داخلَها بعضَ المُجنَّدين، في طريقِهم إلى المقابرِ كي يتخلصوا من جثةِ الجاسوس "جون أدريالكونور" بعد تنفيذِ حكمِ الإعدام، لم تمرَّ فترةٌ علي العميدِ أسوأ من هذه الفترة، فمن فترةِ عنادِه مع الجاسوس وهو لا يستطيع النومَ ساعةً كاملةً دون أن يراه في كوابيسه، تارة يضحكُ ساخراً منه، وأخرى يصفعُه على مؤخرةِ رأسِه ويركض، وثالثةً يفتح عليه الحمامَ وهو يقضي حاجتَه، حالةٌ من الرعبِ النفسيِّ أحدثها داخلَه، حتى بعد قتلِه لم يهنأْ له بال، ولهذا كانَ حريصاً على أن يراه والترابُ يواريه والأرضُ تحبسُه داخلَها.

وصلوا إلى هناك.. توقفت العرباتُ خلف بعضِها ثم ترجَّل العميد عن سيارتِه ورفيقِه.. أمر الأوَّلُ الجنودَ أن يفتحوا عربةَ الموتى ويخرجوه.. وحمل تابوتَه أربعةٌ على أكتافهم وتوجهوا به نحو حفرةٍ في باطن الأرضِ وسط المقابر، كان قد أعدَّها له مسئولُ المقابر.. ووضعوه أرضاً ثم طلب الأخيرُ منهم أن يساعدوه في إنزالِ التابوتِ داخلَ الحفرةِ، وبعدَ مرورِ بضعِ دقائقَ كان في باطنها، ابتسم العميد مصطفى الذي لم يُعطِ حُرمةً لميِّتٍ مخاطبا جلالاً:

- وأخيراً سنتخلَّص منه مثل جيفةٍ قذرةٍ، لكن أظنُّ أنَّ الدودَ لن تأكلَه بل ستتقزَّزُ منه كما تقزَّزتُ أنا...! تعالت الضحكاتُ حتى أنَّها عكَّرت صفوَ الراقدين تحتَ التراب.. ومن ثَمَّ بدأ الجنودُ يُهيلون عليه الترابَ حتى ساوَوا به الأرضَ، فهرولَ العميدُ نحو القبر، ووقف عليه بقدميه وبدأ يَدُكُّ الأرض كالمجنون، تبِعه على ذلك جلالٌ وفعل فعلته، بينما الجنود فقد كانوا في ذهولٍ مما يفعلانِه، لكنَّهم مغلوبون على أمرِهم، وبدأوا ينفضون الترابَ عن أكفِّهِم وهم يتوجهون نحو العرباتِ ومن خلفِهم العميدُ وجلالٌ، وما إن وصلوا إلى هناك حتى توقفَ العميدُ وألقى نظرةً شامتةً على بؤرةِ القبر، ثم استدارَ بوجهه ناحيةَ جنودِه وقبل أن يعطيَهم إشارةَ الصعودِ للسيارة، سمعوا جميعاً صوتَ انفجارٍ مرعبٍ كأنَّ قنبلةً قد انفجرت، فانبطحَ العميدُ أرضاً، بينما الجنود فقد صارت أبصارُهم شاخصةً، لقد طردتِ الأرضُ الجثةَ من باطنِها، وخرجت بكفنِها فقط دونَ التابوتِ لترقدَ فوقَ الأرض .

الرعبُ يُسيطرُ على الجميع، بل إنَّ قلوبَهم قد زُحزحت من صدورهم، وعقولُهم أصابتها جُنَّةٌ، لم يستطع أحدٌ منهم الاقترابَ من الجُثَّةِ، ولا حتى استطاعوا أن يأخذوا بيد عميدِهم المنبطحِ أرضاً، ومضت ربعُ الساعة وهم على حالِهم متسمِّرين في الأرضِ كتماثيلَ من صخرٍ واقفةٍ في العراءِ يظنهم المعاتيهُ آلهة، ولم يزل العميدُ منبطحاً على بطنه أمامهم.

ومن ثَمَّ التفت العميد بجانبِ رأسِه للوراء فارتعد حين رأى الجثةَ ترقدُ خلفه، فبال على نفسِه وترقرقت عيناه بالدموع، ثم تمتم برعبٍ:

-كنت أتوقَّع...! لقد رأيتك في منامي متمثِّلاً في دجاجةٍ مشويةٍ حين كنت جائعاً وأردت التهامَها وقبل أن أهمَّ بالقبضِ عليها فرَّت هاربةً...

هذيانُه جعلَ خفيرَ المقابر يعودُ من ذهولِه مهلِّلاً ومكبِّراً حتى صاحَ الجنودُ خلفه فعانقت أصواتُهم عنانَ السماء، ونبتَ نصفُ ثباتٍ داخلهم فتقدَّمَ نحو الجُثَّةِ اثنانِ، أوَّلُهما اقترب منها بيدين مرتجفتين كعجوزٍ نالَ منه الدهرُ، وثانيهما كان يُقَدِّمُ قدماً ويُؤخِّرُ أخرى محملقاً بعينيه فيها، وحملاها والرعبُ

يملأُ قلبيهما.. كانا يُحدقان بها وينتظرانِ أن يُشقَّقَ الكفنُ ويخرجَ عليهما مُخرجاً لسانه...! وسارا به حتى الحفرةِ، ولكنَّ الخفيرَ صاحَ بهما موجِّهاً بصره نحو العميد:

-إنَّ هذه الحفرةَ لا تصلح...! وربما يحدث ما حدث منذ قليلٍ.. بعد إذن سيادتِكم أرى أن ندفنَه في هذه المقبرة..

أشار بيده ناحيةَ مقبرةٍ لها سورٌ وبابٌ حديديٌّ تشبه الغرفة المنزلية، فابتلع العميدُ ريقَه بصعوبةٍ، وبإيماءةٍ من رأسِه وافق على اقتراحِه، وتوجَّه الجنديان به ناحيةَ ما أشار الرجلُ وسار خلفهم البقيةُ، ولمَّا أنزلوه في الغرفةِ تجويفِ المقبرةِ هرولوا خارجاً، وأغلق الخفيرُ البابَ عليه وأصفده بالسلاسل، ثم صعد الدرج وصولاً إلى سطح الأرض، ووقفوا دقيقةً وأجسادُهم ترتعدُ خوفاً.

السكونُ حلَّ على المكان، لكنَّ قلوبَهم تتفحَّمُ.. تنصهر داخلَهم.. يشمُّون رائحةَ شوائها.. يعتقدون أنَّ الجثةَ ستباغتُهم الآن من هولِ ما شاهدت أعينُهم، طال الصمتُ مع الوقوفِ أمام المقبرةِ كمن يقفون ساعةً حداداً على روح شهيدٍ، حتى صاح فيهم جلالٌ غاضباً: هيا.. لماذا تقفون هكذا...؟!

تحرَّكوا ببطءٍ حتى ابتعدوا عن المقبرةِ ما يقاربُ الثلاثةَ أمتار، ثم سقطوا جميعاً أرضاً، لقد اخترق الانفجارُ الثاني سمعهم وقوتَهم، فنظروا إلى الخلفِ في آنٍ واحد، فرأوا قطعاً من حديدٍ تتطايرُ في الهواء والجثةُ خارجَ المقبرةِ منزوعةَ الكفنِ عاريةَ الجسدِ.. لقدتقيَّأتها الأرضُ مرةً أخرى كمن يتقيَّأ كتلةً خبيثةً من جوفِه.

الرعبُ يستحوذُ على المكانِ، والصمتُ فرَّ هارباً حين بدأ العميدُ يصرخ بجنونٍ:

-أنا جون.. لا.. هو.. سأصنعُ له تمثالاً.. لا.. جثتُه تمثالٌ يودُّ قتلي.. أبعدوه عني.. اذبحوه.. أوقفوه لا تدعوه يقترب مني...!

حين رآه جلالٌ بهذه الحالةِ حملَ هاتفه بيدٍ مرتعشةٍ وأجرى مكالمةً دامت لخمسِ دقائقَ، ثم عاد ليشاهدَ العميدَ وهو يهذي..

نصفُ ساعةٍ مضت.. لا جديدَ سوى أنَّ العميد تركه عقلُه وذهبَ يستريحُ في مقبرةٍ ما من تلك المقابرِ تاركاً هذيانَه يُصدِّعُ المكان، حتى تضامنت مع صوتِ هذيانه أصواتُ محركاتِ عرباتِ الصحافةِ والإعلامِ التي جاءت لتغطِّيَ الحدثَ الأعظم في التاريخ.

الأرضُ ترفضُ احتواءَ جثةً ما في باطنها...!

*****

آهٍ من القدر الذي رمانا في أماكنَ لا تشبهنا...! أين أصبحنا نرى انعكاسَ وجوهنا في مرايا الخوف..

لم ترمِ أبداً حجراً في بئر لكنها ترجمُ الآن بالعذاباتِ والملل والحسرة والفراق، تراهم يقفون خلف ظلال أشجارٍ كثيرةٍ ويرمونها بالصياح.. كل شيءٍ حولها تغيَّر، الأبواب، النوافذ، بيوت الجيران، السطح، ديكور المنزل، الأثاث، غرفتها التي لا تعثر عليها أبداً رغم أنها تنامُ بها...! كلُّ شيءٍ تغيَّرَ ولا تعرف عن عاصمٍ الآن سوى أنه لا يزال يستيقظ في الليل يتفقدها رغم أنه يعلمُ أنها ليست بجواره، تماماً كما تفعل هي حينَ تشمُّ رائحته، تحدثه، يشاكسها، تداعبه، تنام على صدره كلَّ ليلةٍ، ثمَّ تصحو فزِعةً تصرخُ تنادي عليه، كأنه شبحٌ ينام في حضنها كلَّ ليلة ومع أولِ خيوط ضوءِ الصباح يتبخَّرُ دون أن تشعرَ به، مع هذا هي لا تملُّ من مراقبة أشيائه الثقيلة، أشياؤه التي تمشي وحدها في الليل في أزقَّةِ قلبها.

يبدو أنها لن تنعم حتى بوحدتها الكئيبة وفقدانه القاتل، فلقد حضر شياطينُ الليلِ مع كبيرهم، دفعوا البابَ بأكتافهم الضخمةِ فلم يصمد أمامهم طويلاً وانهار أرضاً محدِثاً صوتاً مرعباً جعل منالَ تنهضُ برأسها الثقيلة لتشاهدَ ما يحدثُ خارجاً، لم يكلفاها عناءُ التحديق كثيراً حيث اقتحموا غرفتها هي أيضاً، وقلبوها رأساً على عقبٍ يبحثون عن شيءٍ ما كقطيعِ ثيرانٍ هائجةٍ في حديقةٍ أسوارُها مطليةٌ بلون أزهارها الحمراء.

المنزلُ أصبح عبارةً عن كومةِ مخلفاتٍ قديمةٍ لا تصلح إلا أن يُقذفَ بها في مقالب الزبالة، لكنهم مستمرون في البحث عن ضالتهم بِنَهمٍ حتى حضرت أسماءُ، حين رأت المنزلَ هكذا صاحت غاضبةً في حازم:

-حازم بك.. ما تبحث عنه ليس هنا.. اجعل رجالك يُصلحون ما أفسدوه ودعنا نتفق بعدها.

التفتَ إليها فرآها تقف عند البابِ بشموخٍ، فاقترب منها وبلهجةٍ نابيةٍ تهكَّم:

-نعم يا بنت الـ...

قاطعته ثائرةً في وجهه:

-إياك وقذفَ أُمِّي، فوالله الذي خلقها لو تلفَّظتَ بلفظٍ واحدٍ تسبُّها به، أو أبيتَ أن يصلحَ رجالُك ما أفسدوه؛ فلن تنال ما تريده وإن أخذت روحي..

عقب تحذيرِها ارتسمت على شفتيه ابتسامةُ غيظٍ ممزوجةٍ بزفيرٍ حارٍّ، ثم قالَ بنبرةٍ هادئةٍ:

-حسنا.. حسنا..

وفي فترةٍ وجيزةٍ كان كلُّ شيءٍ في المنزل على ما يرامُ، ثم خرج الرجالُ وبقي حازمٌ مع أسماءَ، ومع اختفاءِ آخرِ رجلٍ منهم من أمام عينيها التفَّتْ لحازمٍ وقالت بحزمٍ:

-لدي مطلبانِ.. تنفذْهما أُسلِّمْك الملف..

أومأ برأسه عدَّةَ مرَّاتٍ وتحدث:

-ما هما...؟

تحدثت بنبرةٍ عاليةٍ كي يتسنَّى لمنالَ أن تسمعَ:

-خروجُ عاصمٍ من السجن ورؤيةُ جمالٍ..

صمتَ قليلاً ثم أجاب:

-أولاً: أنا لا أستطيع أن أُخرِجَ عاصماً؛ فقد انفلتَ أمرُه من قبضتي، حتى خالدٌ صديقك لن يستطيع..

ضيَّقتْ عينيها في دهشةٍ وتساءلت:

-خالدٌ.. من خالدٌ هذا...؟!

اقترب منها ونفخَ دخانَ سيجارتِه في وجهها حتى سعلت بشدةٍ وأزاحته براحتِها اليمنى ثم صمتت حتى تحدَّثَ هو بدهاءٍ:

-خالدٌ وكيلُ النائبِ العام..

فاصفر وجهُها عقبَ جملتِه ثم صمتَ فتابعَ هو:

-لا أستطيعُ إخراجَه من السجن الآن، ولكنَّني أستطيع مساعدتَه إن طلب مني تحرياتِ المباحثِ حول الواقعة.. أعدُكِ بهذا إن أعطتني الملف..

استغرقتْ دقيقةً في جولةٍ من التفكير داخل رأسِها ثم عادت لتحدثه قائلةً:

-إذن دع منالَ تراه وتطمئنَّ على صحتِه، ودعني أرى جمالاً..

اختلس نظرةً سريعةً من غرفةِ منالَ ثم وجَّه بصره لأسماءَ ثمَّ تحدث:

-اااه.. تستحقُّ أن ترى حبيبَ القلبِ عاصمٍ، وأنتِ أيضاً، لكن دعينا نتفق أوَّلاً: سأُريها عاصماً غداً، وبعد غدٍ نحدِّدُ موعداً في مكانٍ ما لتسلميني فيه الملفَّ، وسأكون كريماً معك...! سأسلِّمُك جمالاً نفسَه..

ابتسامةٌ ممزوجةٌ بالحنين طغت على وجنتيها حتى أصبحتا أشدَّ حمرةً من ثمرةِ الطماطم، ثم بإيماءةٍ من رأسها وافقت على عرضِه، فابتسم في وجهها ابتسامةً ماكرةً وسار نحو الخارج فتبعته حتى بابِ المنزل.. رأت حينها أمجدَ يقفُ بجوارِ المنزلِ يشاهدُ الأمرَ من بعيدٍ، وما إن غادر حازمٌ ورجالُه حتى اقتربَ أمجدُ منها وسألها بقلقٍ بالغ:

-مدام أسماء.. هل أنتِ بخيرٍ، وكذلك الآنسةُ منالُ.. كيف حالُها اليوم...؟

نظرت إليه أسماءُ واندفعت قائلةً بكيد:

-اتبعني للداخلِ يا دكتور.. منالُ في حالةٍ حرِجةٌ جداً..

*****

# الفصل السابع عشر

وهناك أرواحٌ لا تُقتلُ بالأسهم والسيوفِ والرماح ولا بالقنابل والرصاص...! وإنما تُقتلُ بحربِ المشاعر التي لا تنتهي، وأخرى يقتلها الشكُّ، يتغوَّلُ داخلها كمرضٍ عضالٍ لا يتركها إلا جثةً باليةً، وثالثةٌ تُقتلُ حين تقعُ - صدفةً- في يد أوغادٍ يريدون الحياةَ لأنفسهم فقط، ترقصُ أهواؤهم على جثثِ الضعفاءِ وتقرعُ الطبولَ طلباً للاستقرار والخلود..

هكذا فكَّرَ خالدٌ وهو على أعتاب بوابةِ مصلحةِ الأحوال المدنية، حين اتخذَ سبيلَه ليدلفَ إلى الداخل مستأذناً في الدخول إلى المدير..

استغرق من الوقت نصف ساعةٍ قضاها في مكتبِ المدير، كان قد أطلعه على أمرِ السجين جمال عز الدين، وحين ألمَّ الرجلُ بالأمر، رفع سماعةَ هاتفِ مكتبه، وطلب حضورَ الأستاذ حافظ، وفي غضونِ ثوانٍ كان الرجلُ واقفاً أمامهما، فأمره المديرُ أن يُنفِّذَ أوامرَ خالد بك دون اعتراضٍ، ونهض خالدٌ عن مقعده ثم صافح المديرَ وشكره وسار خلف "حافظٍ" وصولاً إلى مكتبه، فجلس الاثنان ثم أعطى خالدٌ لحافظٍ ورقةً صغيرةً أخرجها من جيبِه وتحدث بحزمٍ:

- أريد الاطِّلاعَ على بياناتِ هذا الرجل.

نظر حافظٌ في الورقة فابتلع ريقه بصعوبةٍ وأردف بارتباكٍ:

- لكن هذا ضدَّ القانون...

ابتسم خالدٌ في وجهه ابتسامةً صفراءَ، ثم ضغط على يده وتحدث بامتعاضٍ:

- أنا القانون...!

انتصبت عروقُ جبينه رُعباً وحدق في حاسوبه وهو يقول متلعثِماً:

- تحت أمرك يا فندم ...

دقائق وتصدَّرت البياناتُ شاشةَ الحاسوب، فحدَّقَ خالدٌ في الشاشةِ وأخذه الذهولُ حين رأى صورةَ السجين مرفقةً بالبيانات، وصمت قليلاً ثم طلب من حافظٍ استخراجَ شهادةِ ميلادٍ لهذا الرجل.

بعد أن حصل عليها وضعها في جيبه ونهض، وما إن تجاوز المكتبَ حتى أخرج حافظٌ هاتفه واتَّصل على شخصٍ ما ثم قصَّ عليه ما حدث..

وصل خالدٌ إلى سيارته، ففتحها وجلس خلفَ عجلةِ القيادة ثم أخرج هاتفه وضغط على زرِّ الاتصال، ومن ثَمَّ ظلَّ يتحدث عبرَ الهاتف مع شخصٍ مجهولٍ حتى أصبح أمام منزله.. ركن سيارته وترجَّلَ منها ثم دخل المنزل، وخلع سُترته وألقى بجسدِه على أريكته المعتادةِ، ووضع قدماً فوق أخرى وأسند رأسَه للمقعد، وقبل أن يغوصَ في شرودِه دقَّ جرسَ الباب، فنهض عن مقعده وتوجَّهَ إلى هناك، وريثما وصلَ فتح البابَ فأخذته الدهشةُ حين رأى حازماً أمامه مبتسماً في وجهه:

- هل تسمح لي بالدخول خالد بك...؟

تنحَّى خالدٌ جانباً ثم أشار له بيده أن يدخل، فتوجَّه حازمٌ ناحيةَ الصالون ثم جلس ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، ولازالت الدهشةُ مسيطرةً على وجهِ خالدٍ، وجرذانُ الريبةِ تعبثُ بصدرِه حتى تحدَّث حازمٌ ببرود:

- اجلس خالد بك.. فلن آخذَ من وقتك سوى بضعَ دقائق..

جلس خالدٌ وأنصتَ له؛ فتابع حازمٌ بتهديد:

-خالد بك.. لستَ ضابطَ مباحثٍ، ولا تصلحُ أن تكونَ...! دعنا نُسيِّرُ عملَنا بالطريقةِ التي تناسبُنا دون تدخل..

ضيَّقَ خالدٌ ما بين حاجبيه وردَّ مستفسراً:

- لا أفقه ما تقول...! هل جئت هنا لتعَلِّمَني ما أفعل أو لتضع لي خطوطاً لأسيرَ عليها...؟!

فقهقه حازمٌ باستفزازٍ، ثم وضع يده في جيبِه وأخرج ذاكرةَ هاتفٍ صغيرةٍ، ووضعها على الطاولةِ أمام خالدٍ ثم نهضَ وأردف بحدَّةٍ:

- خالد بك أنت تعي جيداً ما أقول، وتعلم أنَّ جميعنَا تضطرُّه الظروفُ أن يطأطئ رأسه في بعضِ الأحيان كي تمرَّ العاصفةُ، وأمس ليس ببعيدٍ ولن يموت...

قال كلماتِه وتحرك نحو البابِ وقبلَ أن يخرجَ استدارَ بجسده وأشارَ ناحيةِ ذاكرةِ الهاتف الموضوعةِ على الطاولةِ واستكمل حديثَه بنبرةٍ أشدَّ غِلظَةً:

- هذه الذاكرةُ بها ما يُجرِي الدمَ في عروقِكَ ويبهجُك أنتَ وزوجتُك.. لا تظنَّ نفسَك كالسوسِ سوف تنخرُ عظامي وتقضي عليّ...! في الحقيقة أنت تنخرُ عظامَ سمعتِك وسمعةَ الدكتورة ريم.. يا عزيزي شعبُنا يهوَى الفضائحَ ويُمتِّعُ نظره برؤيةِ الرذيلةِ وهي تلعقُ أجسادَ النساءِ الفاتنات..

رمى بسخافتِه في وجهِ خالدٍ وغادر المنزل، فهبط خالدٌ بجسدِه على المقعد وتنهَّدَ بحرقةٍ ثم توسَّدَ ذراعيه وتحدَّث مع نفسِه بغضب:

-دائما يا حازمُ تسبقني بخطوةٍ.. لكن لا بأس، فالأيام دولٌ والحربُ خدعةٌ، والفائزُ دائماً هو صاحبُ النَّفَسِ الطويل..

فأخرجه من شرودِه صوتُ هاتفه، فرمق الهاتفَ بحنقٍ وما إن لمح اسمَ المتصلِ حتى التقطه سريعاً وردَّ باهتمامٍ بالغ:

-هاا..

أثناء محادثته كانت ملامحُه تتبدَّلُ بين الفينةِ والأخرى وحين انتهى من المكالمة، رمي الهاتف بغضبٍ ثم أطاح بالطاولةِ وهو يصيح:

-لاا.. حتى الأُمُّ عاهرةٌ...!

نوبة من الجنون سيطرت عليه.. حطَّمَ كلَّ شيءٍ أمامه ثم خلعَ قميصَه وكذلك حزامَ بنطاله وهرولَ نحو غرفةِ ريم.. دفع البابَ بقوةٍ.. فزعت حين بدا أمامها كوحشٍ هاربٍ من محميةٍ طبيعيةٍ.. تكوَّرت على نفسِها وتحدثت برعب:

- خالد ما بك.. ماذا تريد...؟

كراتٌ ملتهبةٌ متوهجةٌ تتطايرُ من عينيه وهو ينظر إليها، مكوِّراً قبضةَ يدِه اليمنى يلكُم بها كفَّ يدِه اليسرى، مما زادها رعبًا:

- خـ.. خـ.. خالدُ.. ما بك...؟!

لم يجبها واقترب منها، ففزَّت من سريرها، فأتبعها قفزاً فوق السريرِ، فلمحتِ البابَ مفتوحاً فهرولت نحوه، فركض وأمسك بها من شعرِها ودفعها على السريرِ، فصرخت:

- خالد.. ماذا تريد...؟

ردَّ بغضبٍ وهو ينقضُّ عليها كأسدٍ جائعٍ:

- أريد أن أتأكد..

صرخت مرتعبةً وهي تركلُه بقدميها كي تبعدَه، ولكنَّه تداركَ هذا بأخذِ قدميها بين قدميه وضغط عليهما، ثم ثنَى ذراعيها أسفلَ ظهرِها، وأحكم قبضةَ يدِه اليُسرَى على معصميها، وباليد اليمنى مزَّقَ ثيابها.

شهقاتٌ ممتزجةٌ ببكاءٍ مريرٍ خرجت معلنةً عن رفضِها، لكنه لازال يسبحُ في بحرِ مفاتنها، فركضت في الظلام فركضَ خلفها، وتشبثت في ذيلِ حوتِ الماضي فارتطمت بحجرٍ صلبٍ من الواقع...! سال دمُها بغزارةٍ حتى لطَّخَ ملاءةَ السرير البيضاء، غابت عن وعيها فنهض عنها، وسار نحو الخارجِ يترنَّحُ كالملكِ الضعيفِ يتحسَّسُ الجدرانَ والأبواب والنوافذ..

دمعتانِ سقطتا من عينيه ندماً على ما فعلَه بها، رغم أنَّ قلبَه يرقصُ فرحاً في محكمةِ روحه، فرحاً ببراءتها من الدنس...

*****

تصدَّرت الصفحاتُ الأولى من الصحفِ الأمريكيةِ والمصريةِ صورةٌ لجثَّةِ الجاسوس التي نبذتها الأرضُ، كذلك معظمُ القنواتِ الفضائيةِ حتى أنَّ الأوضاعَ داخل مبنى وزارةِ الخارجيةِ باتت مضطربةً للغاية، الجميع في حالةِ قلقٍ وتوتُّرٍ بالغ، وجلالٌ قلبُه حائرٌ بين الفرحِ والرعب، فهو الآنَ المسئولُ الأولُ عن الحديثِ عن ماهيةِ الجاسوسِ ومُلابساتِ قضيته، وهو أيضاً من يعرفُ السرَّ وحده بعد أن فقد العميدُ مصطفى عقلَه، تتملَّكُه حالةٌ من الرعبِ كلَّما خلا إلى نفسِه وسوَّلت له للحظاتٍ أن سرَّ الجاسوسِ سينكشف..على الجهة الأخرى وفي ذاتِ المبنى داخل مكتبٍ صغيرٍ في نهايةِ الطرقةِ يجلس المتحدِّثُ الإعلاميُّ وأمامه عددٌ كبيرٌ من الجرائدِ الورقيةِ التي تناولت حالةَ الجاسوسِ الأمريكيِّ في الفترة الماضية، تنوعت العناوينُ وكلُّ كاتبٍ يُدلي بدلوه، وكلُّ جريدةٍ تنافس نظريتَها في السبقِ الصحفيِّ، فبعضُهم قال: إنَّ أرضَنا لا تحوِي في جوفِها سوى النبلاءِ والوطنيين وتساءل باستنكارٍ:

- كيف للحكومةِ أن تسمحَ بدفنِ جاسوسٍ في أرض طاهرة...؟!

جريدةٌ أخرى تتَّهمُ الدولةَ بالتقصير في مواكبةِ الطرقِ الأجنبية في الحفاظ على سلامةِ أبنائها وقال المتحدِّثُ باسمها:

-إنَّ الجاسوسَ لابد أن يكونَ قد ابتلعَ عقاراً ما أو أُحيطَ بتعويذةٍ هي ما تسببت في كلِّ هذا...

بينما أراد أحدُ الإعلاميين أن يكسبَ عامَّةَ الشعبِ لصفِّه، فأخذ يُردِّدُ عبرَ برنامجِه في إحدى القنوات:

- أن هذا الرجلَ ربما يكونُ وليَّاً من أولياءِ الله...!

وقد نال مرادَه بردِّ الأزهرِ عليه حتى وإن كان استنكاراً وتنديداً بما قاله هذا الإعلاميُّ...

ابتسم المتحدثُ الإعلاميُّ في نفسِه ثم تفقَّدَ مواقعَ التواصلِ الاجتماعيِّ ومنها انتقل إلى المنصاتِ الإعلامية في المجتمعِ الأمريكي والتي تعدَّدتْ مقالاتُها تحت عنوانٍ واحد:

- مصر ترفض تسليمَ جثةِ المواطنِ الأمريكيِّ، وأمريكا تحاول المساومةَ دون فائدة..

طرقاتٌ عاجلةٌ أتت من خلف بابِ غرفةِ مكتبِ المتحدثِ الرسميِّ، فأذن للطارقِ بالدخول، ظهر من خلف البابِ أحدُ الجنودِ يحمل في يدِه ورقةً مطويةً ومختومةً بختم وزارةِ الخارجية، أعطاه إياها ثم انصرف.. تفقَّدَ المتحدثُ الورقةَ بعينيه وقد اطمأنَّ أخيراً لهذا القرارِ الذي يجمعُ بين فريقٍ طبيٍّ أمريكيٍّ وأخرَ مصريٍّ لفحصِ هذه الحالةِ العجيبة.

*****

في طرقةِ المحكمةِ الابتدائية، صفوفٌ من الناس يجلسون بمحاذاةِ بعضِهم لبعضٍ، مغلولي الأيدي، ومن أمامِهم أناسٌ بزيٍّ أبيضَ اللونِ يقبضونَ على أسلحتِهم، يصوِّبونها نحو المتهمين وكأنَّهم زبانيةٌ من جهنمَ، كلُ مَنْ أمامَهم مجرمون لا يستحقون سوى العقابِ فقط...! حتى ملابسُهم ينظرون إليها إن استطاعوا انتزاعها منهم ما تردَّدوا لحظةً واحدةً كما فعلوا بنقودِهم. داخل القاعات حناجرُ تنطق بالحكم، منها ما يصيبُ ومنها ما يخيب، والخائبُ أكثرُ بكثيرٍ من الصائبِ، حان دورُ محاكمةِ عاصمٍ، منذ حضورِه وهو يُلوِّحُ بيديه للموجودين كلاعبِ كرةِ قدمٍ يُحيِّي جمهورَه، وحين سحبه الجنديُّ وراءه اعتلت وجهَه ابتسامةُ فرحٍ كأنه يُزفُّ لعروسِه.. دلف الجنديُّ إلى القاعة بعد أن طرقَ الباب برفقٍ، ألقى التحية على الحاضرين فأمره القاضي أن يفكَّ وثاقَ المتهم، فخفضَ الجنديُّ بصره وتحدث بأدب:

- سيادةَ القاضي أخاف أن يتهوَّرَ فهو تقريباً فاقدُ العقل..

قبل أن يُعلِّقَ القاضي على حديث الجنديِّ اندفع عاصمٌ بالحديث موجهاً كلامه للقاضي:

- ماذا تفعل هنا...؟! هل أُمُّك تركتك ولم تعد.. لا تحزن يا صغيري.. سوف آخذك معي عندما نذهب..

ابتسم القاضي رغماً عنه ثم نظر إلى خالدٍ الذي يجلس عن شماله، ووجَّه بصره للسكرتيرِ عن يمينه فرآهما يبتسمان في خجلٍ، فردَّ على المتهم بغضب:

- بل أنا هنا لأخطَّ إعدامَك بيدي..

قال جملته ثم صمت ليراقبَ ملامحَ عاصمٍ فرأى البلاهةَ تطغى عليها فانفجرت كلماتُه كالرصاصِ على صدرٍ عارٍ أعزلَ متسائلاً:

- لماذا قتلت الملازم سعيد...؟

قهقه عاصمٌ ثم تحدث:

- أنا كنت في حفلِ زفاف حِمارتِنا وليس لديَّ وقتٌ لأنني سأُزيِّنُ شعرها الآن، وإلا غضب علينا البغلُ زوجُها، وهي أيضاً ستغضب مني وتجعلُني أتزوجُها.. هل يُرضيك أن أتزوجَ حمارةً وأنا عاقدٌ لقراني على كلبةٍ جميلة...؟!

الحضور لم يتمالك نفسَه من الضحك، حتى الجنديُّ المكلفُ بحراسته، تصرفاتُه أثارت الشكَّ داخل قلبِ القاضي؛ فلا يمكن لعاقلٍ أن يتحدث هكذا، مما دفع الأخيرَ إلى تأجيلِ الجلسةِ ثلاثَةَ شهور، لإحالة المتهم إلى مشفى الأمراضِ النفسية والعصبية للتأكدِ من قواهُ العقليةِ..

انتهت الجلسةُ وعاد خالدٌ لمأساتِه، وكأنَّ ما فعله عاصمٌ كان أمنيةً أخيرةً لمحكومٍ عليه بالموت أرادَ أن يضحك من قلبه فأحضروا له مُهرِّجاً، وبعد أن انتهت فِقرتُه عاد ليقفَ أمام الموتِ وجهاً لوجهٍ، اختراقاتٌ من الندم تترصَّدُ بين أوردته، وأخرى تتصاعدُ على روحِه الجريحةِ، بخشونةٍ تُمزِّقُ الحدودَ التي تكشطُ جلدَه، فتتساقطُ مشاعرُه الناتئةُ بمحضِ الرُّكامِ من على أكتافِه، كشخصٍ يائسٍ يحاور خصلاتِه اليابسةَ الملتويةَ على معصمِه بغمغمةٍ لا يكاد يفقهُ منها شيئاً..

*****

أصبحت الجدرانُ تُحاكي أنينها بكلِّ شفقةٍ، والدموعُ قد حفرت مجرىً مالحاً في قلبِها حتى بات نحيبُها يخرجُ من كلِّ ضلعٍ فيها، رفعت ريمُ رأسها عن الوسادةِ وهي تُزيحُ خُصلةً من شعرها الناعمِ عن جبينها، قامت بتثاقلٍ وضعفٍ كمذنبٍ يجرُّوه إلى مثواه الأخيرِ، ارتكنت على الحائط، خوفاً من أن تقعَ أرضاً أو تقذفَ بالذكريات نحوه، نحو أمسٍ مضى وغدٍ خالٍ من كلِّ حياة، ملامحُها ثقيلةٌ كخطواتِها وبين جداولِ وجهها تسير قوافلُ الموتى، الطرقاتُ على الباب في تزايدٍ، كأنَّ صاحبَها مُصرَّاً على الدخولِ، والأرضُ تتموج تحت قدميها، عبثاً تحاولُ انتشالَ نفسِها من رمادها، تسكَّعت بين الجدرانِ حتى وصلت إلى بابِ الشقَّةِ، ففتحته وقد برز الجمودُ على ملامحها، وفوجئت برئيسِها في العملِ يقفُ أمامها برفقةِ زميلتها سوازن .. فابتسمت ريم بوهنٍ، ثم أشارت لهما بالدخول، وأغلقتِ البابَ خلفهما، وما إن دلفا إلى الصالون حتى تسمَّرَ ثلاثتُهم من حالته المُزرية، كلُّ شيءٍ فيه مقلوبٌ رأساً على عقب، فابتسمت سوزان في خجلٍ وطلبت من المدير أن يبقى في الشرفةِ الداخليةِ لخمسِ دقائقَ فقط، لحين الانتهاء من ترتيبِ الصالون، كانت ريمُ تجرُّ الحروفَ جراً وتحشدُها في حلقِها...! ربما تستطيع الحديث لكن دون فائدة، أما سوزان فكانت تُعيدُ كلَّ شيءٍ في مكانه الطبيعيِّ حتى لمحت بعينيها ذاكرةَ الهاتفِ أسفلَ إحدى المقاعد، فمدت يدها والتقطته ثم اقتربت من ريم وأعطتها إياه وهي تهمسُ في أذنها بمزاحٍ نسائيٍّ، احمرت وجنتا الأخيرةِ خجلاً، ثم هربت من مزاحِها ونادت على مديرها:

- تفضل يا دكتور.

خرج الرجلُ من الشرفةِ وجلس على المقعدِ، ثم بدأ حديثَه قائلاً:

- أتمنى أن تكونَ العروسُ قد استكفت من شهرِ العسلِ وأصبحت جاهزةً للخوض في مغامراتِ العمل..

ابتسمت ريمُ بمرارةٍ، فتابع المديرُ حديثَه بإيضاحٍ:

- أسندت وزارةُ الخارجيةِ إلينا مهمةً من نوعٍ خاصٍّ جداً سنقومُ بها بالتعاونِ مع فريقٍ طبيٍّ أمريكيٍّ، وقد اخترتُ لهذه المهمةِ ثلاثةً من مساعديَّ، وأنت بالطبعِ على رأسِهم..

في حينِ كانَ يتحدثُّ المديرُ كانت سوزان تتابعه بحماسٍ شديد، بينما ريمُ كانت شاردةً في عالمِها الخاص، وحين أنهى الرجلُ حديثه، صوَّبت بصرها تجاهَه وهي تفكِّرُ في حجمِ الخسائرِ التي جنتْها خلالَ حياتِها حتى زواجِها الذي كانت تظنُّه جنَّةً؛ ولكنَّه تحوَّلَ إلى جحيم، لذا تحمَّست جداً لخوضِ تلك المغامرةِ فهي الطريقةُ الوحيدة للهروب من جحيم حياتِها، ولأنَّ عملَها هو الشيءُ الوحيدُ الذي لم يجرؤ على إهانتِها يوماً....

أومأت برأسِها ثم قالت:

- حسناً سيدي.. أنا ممتنَّةٌ جداً لاختيارِك لي، وأنا على أتمِّ الاستعداد لخوضِ تلك التجربةِ...

ابتسامةُ رضاً علتْ وجهَ كُلٍّ من المديرِ وسوزان، ثم همَّا بالانصراف، ففتحت ريمُ لهما البابَ فاصطدمت بخالدٍ يحملُ في يده باقةً من الوردِ الجوريِّ، فتراجعت ريمُ بخطواتِها ليظهرَ أمامهما، وحين لمحته سوزانُ غمزت لريمَ بعينها وابتسمت، وسلَّمَ خالدٌ عليهما ودعاهما لتناولِ الغداءِ معه، لكنهما اعتذرا...

عقب خروجِهما من الباب أسرعت ريمُ نحو غرفتِها ثم صفعت البابَ خلفها قاطعةً أيَّ حديثٍ يمكن لخالدٍ أن يبدأ به...

*****

# الفصل الثامن عشر

بين رفوفِ الأدويةِ والجدران المتخمةِ من رائحةِ الموادِّ الكيميائية، جلس أمجدُ يتأملُ باب الصيدليةِ الذي لا يفتحه إلا المريضُ المحتاجُ لعلاجٍ يُسكِّنُ آلامه، أما مَن فتحت بابَ قلبه وكانت بلسمَ جراحِه وشفاءَ روحه العليلةِ فهي بعيدةٌ عنه، بين الحين والآخر يُهيَّأُ له أنها تدخل عليه فاتحةً ذراعيها لاحتضانه، لتخففَ عن وطأةَ الألمِ الذي يسكنُه، لتكونَ العلاجَ لوجعٍ لم يجد له مسكناً وسط كلِّ هذه الأدوية، يبيع للناسِ شفاءهم ويُشخِّص حالتهم ولا يستطيع أن يكون سبباً في شفاء نفسِه من داء عشقها العضال.

ها هو البابُ يفتح، هل من المعقول أن تكونَ هي أم مريضٌ جديدٌ...؟! ظهرت ملامحُ الزائر.. إنه علاءٌ صديقُه وصاحب هذا المكان، نهضَ أمجدُ من مقعده ودون أن ينبسَ ببنتِ شفةٍ، ارتمى بين ذراعيه المفتوحتين، وكأنه أراد أن يستنشقَ رائحةَ الأحباب الذين يقطنون هناك.

انفك العناق بعدما دام دقائقَ ثم ربت علاءُ على كتفه وهتف بشوقٍ:

-كيف حالُك يا رجل...؟ أتيتُ للاطمئنان عليك، ويبدو لي أنك بحالةٍ جيدة والحمد لله...؟

ابتسم أمجدُ في وجه صديقِه وأردف:

-أنا على ما يرام يا صديقي العزيز.. لا تقلق علي..

قهقه علاءٌ وتحدث ممازحاً:

-وكيف أقلقُ عليك ونساءُ هذا الحيِّ إن نظرن لقبرِ ميتٍ رددنَ إليه روحَه، فما بالُ رجلٍ مثلك.. ماذا يفعلن به...؟

خرجت ضحكةٌ حزينة من ثغر أمجد، ودَّت عيناه لو تطوقها بدمعتين ليكتشف صديقه إلى أيِّ حدٍ بلغ من الحزن، وبالفعل لقد استشفَّ علاء هذا وتحدث بجدية:

-أمجد هل تريدُ أن تخبرني شيئاً ما...؟

تنهد بعمقٍ وأسند رأسه للمقعد ثم نظر بعينيه في السقفِ خشيةَ أن تسقطَ دموعَه فيراها صديقُه ثم تحدث بألم:

-يا صديقي ليت حالَ القلبِ كحالِ الوجه نجبره على الابتسام فيطيع...! أصبحنا نرتدي قناعَ الابتسامة المزيفة كأننا نرتدي نعالنا...! ليت القلوب لها حناجرُ لتخبرَ الأحبةَ عن حالها بفراقهم، ولكن كلمةُ - يا ليت - خرساء لا يتخطَّى صداها ضلوعَنا، سأفرغ لك حمولةَ صدري التي أثقلتني هموماً.. اجلس وأنصت لكن أتمنى منك ألَّا تقاطعني..

بدأ بسردِ قصته مع ليلى؛ أنصت علاءٌ بعقلِه وليس بأذنيه، ولم يقاطعْه..

مر الوقتُ.. إلى أن أسدلت عيناه الستارَ بدمعةٍ حارَّةٍ، اصطبر عليه علاء حتى هدأ ثم تساءل:

- أيمكنني التحدُّثُ الآنَ...؟

هزَّ رأسه معلناً عن موافقتِه، فتابع علاء حديثه بحكمةٍ:

-سأقول لك كلمتين فقط يا صديقي: تأكد أنَّ القلوبَ الصادقةَ بالحب لا يخذلها ربُّها،

فالله أرحمُ من أن يُبقِي حالَ قلبك بحزنٍ دائمٍ.. لكنه يختبر صبرَك وتعلُّقَك به ويحبُّ أن يسمعَ مناجاتَك وتأكد بأنَّ النورَ يُولدُ من رحمِ الظلامِ والعسرُ يتبعُه يسر.. الصبرَ يا صديقي.. الصبرَ والآن سأودِّعُك ولكن لي عودة..

خرج علاء وترك خلفه صدى كلماته.

كلماتُه التي كانت كماءٍ باردٍ هبط على قلبه الملتهب..

ليخمدَ ناره ويطبطبَ عليه كأمٍّ حانيةٍ، طمأنينةُ الكلمات جعلته يسافرُ بسفينةِ الشوق، ليبحرَ بخيالِه مع ليلى.. تفاصيلُ جسدِها وملامحُها ترسم له

السعادةَ على ثغرِ قلبِه يريد أن يخبرها: أنه لم يهرب ولم يكن يوماً جباناً؛ لكن خوفه عليها من سخطِ سعدٍ، هو سبب مغادرتِه المكان..

رنَّ الهاتف ليلتقطه من الغرقِ في بحر الخيالِ ويقذفَ به على شاطئِ الواقع..

التقط الهاتفَ وأنصت للمتحدثِ بتركيزٍ ممزوجٍ بالدهشة حتى صمت الصوتُ، أغلق الهاتف ومن ثمَّ الصيدليةَ، وتوجَّه نحو الحديقةِ المجاورةِ كما طلبَ منه في الاتصال، جال بعينيه بحثاً عن محدِّثِه، لمحَ من بعيدٍ رجلاً يجلس على أريكةٍ، تبدو على ملامحِه الهيبةُ والوقار، تحرك نحوه ثم جلسَ بجوارِه فقال الرجلُ دون أن يلتفتَ إليه:

-أَبلغ أسماءَ أننا نعلمُ كلَّ شيءٍ وقريباً جداً سنقطع الأيادي الآثمةَ ونعثرُ على المفقود، لكنها عليها أن تساعدَنا وتعثرَ على الملفِّ في أقصى وقتٍ ممكن.

ردَّ أمجدُ بنبرةٍ خافتةٍ:

-كما أبلغتكم من قبل، هي تبحث عن الملفِّ وتريد منكم معرفةَ مكانِ جمالٍ، وهذا كان اتفاقنا..

التفت الرجلُ إليه وتحدث بنبرةٍ جادةٍ وحازمة:

- لو أعطتنا الملفَّ سنعرفُ الجُناةَ الحقيقيين ولن يفلت منَّا أحدٌ، وبالتأكيد سنضغط عليهم ويعترفون بمكانِ جمال..

*****

غرفةٌ باردةٌ مخيفةٌ رائحةُ الموتِ تفوحُ بأرجائها، يقف خارجها أطباءُ تعلو أجسادُهم أرديةٌ بيضاءُ وكفوفٌ تغطِّي أياديهم التي تسيلُ لعابها لتشريحِ الجسدِ الذي رفضته الأرضُ وأجهضته خارجَ رحمِها المرةَ تلو الأخرى، كفتاة تعقرُ بطنَها لتتخلص من عارها وترمي به في غيابات الموت، في حضنِ الغرفة جسدٌ مجردٌ من الملابس مغطًّى بإزارٍ أبيض، ممددٌ فوقَ طاولةِ التشريح، أعضاؤه باردةٌ كأرضٍ لم تطلع عليها شمسٌ قط.

رجلٌ مجردٌ من كلِّ شيءٍ حتى من الحياة، شيءٌ واحدٌ فقط لم يجرد منه، وهو الاسم الذي كُتِبَ ببطاقةٍ معلقةٍ بإبهام قدمِه اليسرى.. الجاسوس "جون أدريالكونور"...

انتهزت ريم فرصةَ انشغالِ الأطباءِ بالتعارف ودفعها شغفُها للدخول عليه، اقتربت منه وهمَّت برفع الغطاءِ عن وجهه، خُيَّلَ لها أنَّ أباها هو من يرقد، ملامحه، لحيتُه البيضاء، عيناه، الندبة المحفورةُ في خدِّه الأيمن، فزعت وصرخت:

-يا إلهي.. ما هذا...؟!

سمعت صراخَها صديقتُها سوزان.. هرعت إليها وتساءلت بقلقٍ:

-ريم.. ما الخطب ...؟

سؤالُ صديقتِها أعاد إليها وعيها، عادت لتنظر إلى الجثة، وجهٌ أصفرُ شاحبٌ وعينان مقفلتانِ كأنهما صندوقان يخبِّئان بداخلهما أسرارَ الكون منذُ بداية الخليقة ...

شفتان خاليتان من اللون كزهرتين خانتا الربيعَ.. نبتتا في الشتاء فسرق البردُ لونهما جزاءَ الخيانة.

قطعت سوزان حبلَ تأمُّلِها في وجه الرجلِ وأعادت عليها سؤالها:

-ريم ماذا رأيت جعلك تصرخين...؟

-لا شيءَ يا سوزان لا شيء..

خرجت الإجابةُ مقتضبةً، فاقتربت سوزانُ منها وبنبرةٍ مرتجفةٍ تساءلت:

-سمعت أنَّ هذا هو المسيخُ الدجالُ، وأنه سيعود للحياة قريباً ويقتصُّ من الجميع، وسمعت أيضاً أنه رجلٌ ظُلم، وكان بينه وبين الجنِّ نسبٌ فأبت الجنُّ أن يُدفّنَ جثمانُه قبلَ أن يقتصُّوا له..

ابتسمت ريمُ رغماً عنها وقبل أن تردَّ على سخافةِ صديقتها، دلف الأطباءُ إلى الغرفةِ والتفُّوا حولَ الجثةِ وبدأوا يحملقون بها حتى تحدث أحدُ الأطباءِ الأمريكان قاطعاً بحديثه حاجزَ الصمتِ السائدِ في المكان:

-قيل إنَّ الرجلَ أُعِدَمَ شنقاً.. إذن: لماذا لا نرى لسانَه خارجَ فمِه، ولِمَ لم يتوشَّحْ بِزُرقةِ اللونِ كسائر الذين يموتون شنقا...؟!...

نظرت ريمُ إلى رئيسها فأذنَ لها بالحديث فقالت:

- فعلا وأنا اطَّلعتُ على الفحوصاتِ التي أُجريت عليه، وأصابتني الدهشةُ حين علمتُ أنَّ عنقَه أيضاً لم ينكسر، وعروقَ رقبته لازالت سليمةً، رغم أنَّ مُنفِّذي الحكمِ فيه قالوا إنَّ لسانه كان بارزاً ورقبتَه كانت مطويةً على صدرِه أثناء استخراجِه من غرفةِ الإعدامِ، وأزيدُكم من الشعرِ بيتاً لتزدادَ معه دهشتُكم: لا يزال ينبضُ، وأنا بصفتي الطبيبَ المسئولَ عن الفحوصاتِ التي أُجريت للجثةِ أقول علينا القيامُ بالتشريحِ لنخمدَ حيرةَ عقولِنا وشكَّ قلوبنا ...

اعترض كبيرُ الأطباءِ الأمريكان على تشريحِ الجثة قبل أن يتمَّ فحصُها مجدداً، وبعد مناقشاتٍ دامت لنصف ساعةٍ تقريباً، بدأ الأطباءُ بفحصِ الجلد وبيانِ ما إذا كانت هناك كدماتٌ أو جروحٌ غائرةٌ أو حتى أثرٌ لأيِّ محقنٍ، كان الفحص دقيقاً للغايةِ، وأجرى الفريقُ المشرفُ على العملية مسحاً بالأشعَّةِ السينيةِ لكشفِ ما إذا كانت هناك إصاباتٌ داخليةٌ أو نزيفٌ غير ظاهرٍ، لكن باءت كلُّ محاولاتِهم بالفشل، نظرت ريمُ لرئيسِها وكأنها أعطته إشارةَ الحديثِ فتكلم موجهاً حديثَه للطبيبِ الأمريكيِّ الذي اعترض على التشريح:

-هل لازلتَ معترضاً على تشريحِ الجثة...؟

لوَّحَ الرجلُ بيده ورأسِه معتذراً عن إهدارِ الوقتِ فاستأنفَ رئيسُ الأطباءِ حديثَه معطياً الأمرَ لريم أن تبدأ في التشريح، وكأنه أعطاها إذنَ إعدامٍ مَن قتلَ أُمَّها، استلَّتْ مشرطَ التشريحِ وقبضت عليه بقوة، ثم نظرت في الجثةِ بتركيزٍ وكأنَّ داخل عينيها قنبلةً موقوتةً ستنفجرُ الآن، وضعت المشرط بثقة على صدره الأيسر، وكأنَّ الذي أمامها بطيخةٌ حمراءُ تريد تقطيعها، ضغطت على المشرطَ لتغرسه في جلدِ الرجل، لكن هيهات.. هيهات وكأنها تريد أن تشقَّ الحديدَ بحديدٍ، استجمعت كلَّ قواها وضغطت مرةً أخرى ليسيلَ الدمُ من يدها بغزارةٍ، لقد جرحت يدُها وسقطَ المشرطُ منها.. رجعت بجسدها إلى

الوراء، حالةٌ من الذهول سيطرت على ملامحِ الجميع.. اقترب الطبيبُ المشرفُ وأخذ مشرطاً جديداً وأعاد الكرَّةَ ظنَّاً منه بأنه رجلٌ ويده ستكون أقوى وأقسى من يد ريم ...

دنا من صدرِ الجثةِ العاري، وتحسَّسَ بيده أرقَّ موضعٍ فيه ومرَّرَ المشرطَ عليه.. ولكن هذه المرةَ انكسر المشرطُ ولم ينشقَّ الصدرُ.. مجردُ خدشٍ بسيطٍ كالذي تخدشه قطةٌ في يدِ رجل، كأن الجثةَ من فولاذٍ، وكأن الذي أمامهم ليس بشراً بل حجرا، ولكنَّ الحجرَ يشقُّه الحديد، إنه حديدٌ حقاً ولا يشقُّه إلا مثله، أمسك أحدُ الأطباءِ الأمريكان المنشارَ الكهربائيَّ واقترب من رقبتِه واضعاً المنشار فوقها، اقتلعت أنوفَهم رائحةُ احتراقِ محركاتِ المنشار، الدخانُ كاد أن يخنقَهم، سعلوا جميعاً وسكت صوتُ المنشار.

عقولُهم تلبَّدت فيها غيومُ الحيرة، أجسادُهم كساها رداءُ القشعريرة، والألبابُ تُخاطبُ نبضَها:

-ما هذا...؟ إنها معجزةٌ بحقِّ ربِّ السماءِ...؟! ...

*****

وجهٌ بضٌّ.. من يراه من بعيدٍ يحسبه القمرَ يسير على قدمين في ليلةٍ حالكةِ السواد.. هالتُه تجذب الجميعَ، حتى الحجرُ يُغرمُ بها، جاءت صاحبتُه زينبُ بأمرٍ من الأميرِ.. جلست تنتظره في مخدعِه.. حزينةٌ، بائسةٌ، غاضبةٌ، قلقةٌ، تفكرُ فيما سيقالُ لها، وهل ستنال القربَ من الأمير أم لا...؟! بعد فشلها مع أحمد...

دخل عليها الرجلُ، فنهضت من مجلسِها خافضةً بصرَها أرضاً، تُمثِّلُ الحياءَ ببراعةٍ.. اتَّكأَ الأميرُ على مجلسِه ثم أمرها بالجلوسِ وخاطبها بدلالٍ:

ها يا صاحبةَ الحُسنِ والجمال.. ماذا وراءَك...؟ وهل نجحتِ في تنفيذِ ما طلبناه منك...؟

تلعثمت بكلماتِها كمن يتعثَّرُ بخطاه؛ فهي لم تكن تملك سوى الإجابةِ بما أراده منها، وإلا ستكون خسارتُها فادحةً، ستخسر وصالَ الأميرِ ورأسَها أيضا:

-لا أدري ماذا أقول.. والله كأنَّ جوارحَه مصنوعةٌ من نُحاسٍ وقلبَه صُبَّ به رصاصٌ.. لا يتأثَّرُ بما يراه رغمَ أني حاولت جاهدةً بشتَّى الطرقِ ...

نظرُه لا يرتفعُ عن موضعِ سجودِه وجسدُه لا يتحرَّك إلا لصلاتِه، يصومُ نهارَه ويقوم ليلَه، فأين ليَ السبيلُ لمثلِ هذا الجماد...؟!

وأثناء حديثِهما طرقَ سفيانُ البابَ ثم دلفَ قاطعاً حديثَهما:

-عذراً أيها الأميرُ؛ ولكنَّ الأمرَ مهمٌّ جداً..

فنظر إليه الرجلُ باهتمامٍ ثم قال:

-هاا.. هاتِ ما عندك ...

وخرجتِ الكلماتُ حزينةً من بين شفتيه:

-الكاميراتُ رصدت أحمدَ وهو يقومُ بتنفيذِ العمليةِ التي وُكِّلتْ إليه.. لقد نزع اللثامَ عن وجهِه في غرفةِ القتيل..

فاعتدل الأميرُ في جلستِه وصاح غاضباً:

-إذن: أصبح أمرُه مكشوفاً واحترقت ورقتُه، فهزَّ سفيانُ رأسَه بخجلٍ ثم طأطأها أرضاً وصمت، فنهض الأميرُ من جلستِه وشبَّكَ أناملَه خلفَ ظَهره وبدأ يدور في المخدعِ ذهاباً وإياباً يبحث عن حلٍّ، فلقد اغتصب الغضبُ بناتِ أفكاره، وأعصابُه رفعت راياتِ الاستنفارِ، وطبولُ الامتعاضِ تدقُّ قلبَه، واعتلى السخطُ وجهه، حتى أنَّ أدراجَ خزانةِ عقلِه امتلأت عن آخرها بالخوفِ، ولكنْ هناك درجٌ واحدٌ لا زال يحتفظ بكمِّياتٍ هائلةٍ من الدهاء.. بحث داخله حتى رأى فكرةً شيطانيةً ترقصُ أمامه معلنةً عن نفسِها، فاحتضنها وشرَدَ في تفاصيلها حتى أعلنت الاستسلامَ أمامه، فرفع نظرَه المشتعلَ غيظاً ووجَّه كلامَه لسفيان:

-اسمع.. سنتخلَّصُ من رمادِ تلك الورقةِ ونذروها لرياحِ الموت.. موعدُنا يومُ الزينةِ قبل الميلادِ بيوم.

هدأت نبضاتُ قلبِ سفيانَ ورفع بصرَه لينظرَ للأميرِ وهو يقولُ بإيجاز:

-حسناً مولانا الأمير..
اقترب الرجلُ منه وربتَ على كتفِه ثم تحدث ناصِحاً:
-عليك توخِّي الحذرِ يا سفيانُ واتخاذُّ الحيطةِ..

*****

كعادةِ عم محمود عاملِ البوفيه في كلِّ صباحٍ عندما يلمح خالداً يقترب من مكتبه يبتسم في نفسه ويقول بصوتٍ مسموع:
-كنت أتمنى أن يصبحَ لي ولدي مثلَك، لكنْ رؤيتُك كلَّ يومٍ تُشعرني بالأبوة، بارك الله في عمرك..
يقول كلماته محدثَاً بها نفسه ثم يحمل فنجانَ القهوة وبعضَ الجرائد ذاهباً إليه وبطيبة الرجلِ البسيط وابتسامتِه الخالية من الخبث، وآثارِ الزمانِ المرسومة على وجهه يُلقي تحية الصباح:
-صباحك فل يا خالد بك، هذه قهوتك والجرائد كالعادة طازجةٌ من المطبعة إلى يدك..
نظر إليه خالدٌ متأملاً تجاعيد وجهه ثم بابتسامة صافيةٍ رد:
- شكراً يا عم محمود ...
خرج الرجلُ ثم فتح خالدٌ أولَ جريدة ليتصفَّحها؛ العناوين التي تصدرتها وفرت عليه عناءَ البحث، أمسك الجريدةَ باهتمامٍ بالغ وقرأ بجوارحِه مع عينيه:
-الجثة التي لفظتها الأرض؛ والتي لم يخترقها مشرطُ الطبيبة "ريم سعد" والعلماء لم يجدوا تفسيراً علميَّاً إلى الآن؛ فنطق بصوتٍ عالٍ محدثَاً نفسَه مندهشاً:
-ريم، كيف لم يخطر ببالي هذا...؟!

أخرج هاتفه واتصل عليها؛ فلم تجبه، فعاود الاتصال مرةً فأخرى دون فائدةٍ، فأخذَ نفساً عميقاً وطردَه بحرقة، ثم باشر عملَه حتى قضى يومه ثم حملَ جسده وانطلق مسرعاً باتِّجاه المنزل.

حين أحسَّت ريمُ بمقبض الباب يدور ركضت نحو غرفتِها وأغلقت الباب، فتح هو بابَ الشقةِ وسار نحو غرفتِها، طرق الباب ثم دخل فصاحت فيه غاضبة:

-لو سمحت اخرج..

اقترب منها فهرولت نحو الباب ووقفت عنده بكلِّ شموخٍ وأشارت بيدها نحو الخارج وصرخت بتهكُّم:

-إلى أين تظنُّ نفسك داخلاً...؟ ألم يكفِكَ ما فعلت...؟! إذا سمحت تفضل وإلا خرجتُ أنا..

كتم غيظه داخله، وكذلك حُبَّه، وربما اعتذاره فما يشغله أعظم من حياته الشخصية، لذا تحدث بحزم:

-لست هنا لأصالحك أو أستسمحك أو حتى أعاتبك، أنا أُحدِّثُك من أجل العمل، فلو تكرمتِ ضعي خلافاتِنا جانباً ودعينا نتحدث كشخصين يشغلهما أمرٌ واحد..

رفعت حاجباً وخفضت الآخر وردت بسخرية:

-عمل، هل تركت سيادتك وزارة العدل والتحقت بكلية الطب، أم أنني أصبحت متَّهمةً وتريد استجوابي...؟!

ردَّ عليها بنبرةٍ خشنة وجاحدة:

ريم، لا وقت للسخرية من حديثي، أريد أن نتحدث بخصوصِ الجاسوس..

عندما علمت أن الأمرَ يتعلق بالجاسوس كسرت صليبَ عنادِها، وطلبت منه بعض الوقت لتغير ملابسها، ثوانٍ وخرجت عليه بعباءةٍ طويلةٍ سوداءَ اللونِ وحجابٍ بُنِّي وكأنها في موعدِ عملٍ مع رجل غريب، نظر إليها بتمعن وهتف في نفسه مغازلاً لها:

-لله درُّكِ...! حتى في الأسود تبدين ملكةً تَنازل الليلُ لكِ عن عرشِه، لكونك تحملين القمرَ في وجهك طوال العام.

جلست بعيداً عنه وبنبرةٍ جادةٍ نطقت:

-تفضل حضرة الوكيل، كُلِّي آذان مُصغية ...

لهجتُها الحادةُ جعلته يود مشاكستها، التقط وسادةً صغيرةً من جانبه، وقبل أن يقذفها بها لمحها تنهضُ فتراجع سريعاً واضعاً الوسادة على ركبتيه، مرتكزاً عليها بكوعيه، محتضناً وجهه بين كفيه، هاتفاً بحزم:

-أريد أن أعرف ماذا حدث معكم عند تشريح جثة الجاسوس "جونأدريالكونور"...؟

تنهدت بعمق وأردفت:

- نحن لم نشرِّح الجثةَ ولم نستطع حتى خدش الجلد، حاولنا جاهدين، ولكن كأننا كنا ننحت في الصخر بأظافرنا.

كوَّر قبضةَ يدِه اليمنى ونفثَ فيها زفيره ثم تساءل:

-هل ما نقلته وسائل الإعلام المرئية والمسموعة عن رفضِ الأرض لجثته حقيقةٌ...؟

وضعت ساقاً فوق أخرى وردت بغرور:

-خالد بك، سيادتك لو لم ترفضه الأرض لما حدثت كلُّ هذه الزوبعةِ وما كنا لنلجأ لتشريحه.

لم يعقِّب على كلامها، بل فزَّ واقفاً مكانه ثم تحرك نحوها وقبضَ على معصمها، وقال بلهفة:

-ريم...هيا بنا أريدك أن تأتي معي..

خُيِّلَ لها أنه يريدها في الفراش فرمقته بنظرةٍ مطولةٍ من رأسه إلى أخمص قدميه ثم وجَّهت بصرها نحو غرفةِ النوم وانتزعت يدها بقوةٍ وتحدثت بغضب:

-اتركني لا أريد الذهاب معك ولا أريدك أن تقترب مني..

قهقه عالياً، فأثار إعصارَ غضبِها ثم تحدث بمزاح:

-يبدو أن شيطانك يريد الرذيلة، لكن لا وقت لدينا سنذهب لمكان ربما أساعدك في عملك أو تساعديني.. لا فرق.

حرَّكت فمها يميناً وشمالاً معبِّرةً بصمت عن حنقها، ليزيدَ من سخطها ويقول:

-هل تقولين شيئاً...؟

لطمت الأرض بقدمها وغمغمت بكلمات غيرِ مفهومةٍ وهي تتجهُ نحو غرفةِ النوم كي تبدِّلَ ملابسها وتحضر حقيبتها...

لم تكن المسافةُ بين منزلهما والمستشفى العسكري طويلةً، بل بضعَ كيلو مترات قطعتها السيارةُ في عشرِ دقائقَ فقط، وصلا إلى هناك، وتوجَّه الاثنان إلى غرفة الإنعاش حيث السجينُ الذي لم تخترق الرصاصاتُ جسده، حين رأته ريم أصابها الرعب ،كأنها ترى وجه أبيها أيضاً في هذا الرجل، لكن هذه المرة تمالكت نفسَها ولم تترك العنانَ لصوتِها كي يرسم صرخاته في الأرجاء، أحست حينها ببرودةٍ شديدةٍ كاد جسدها أن يتجمد، ودت لو يحتضنها خالدٌ، ولكنَّ صوته فعلَ ذلك وبثَّ إلى جسدها حرارةً ممزوجةً بالطمأنينة حين تحدث إليها:

-ريم.. هذا الرجل لم يخترق جسدَه الرصاصُ..

تأملت ملامحه، جسَّت نبضه، وضعت أذنها على قلبه وتحدثت بذهول:

-خالد نفس حالة الجاسوس، كلتا العينين، ولون الوجه، ونبضات القلب...

أثناء حديثهما دخل عليهما الطبيبُ المشرف وبنبرةٍ حادةٍ وحازمة تساءل:

-من أعطى لكما الإذنَ بالدخول إلى هنا...؟

التفت إليه خالدٌ وردَّ بحزم:

-أنا من أعطي الإذن هنا ولست بحاجةٍ لأطلب إذنَ أحد، أنا وكيل النائب العام "خالد الشناوي: وهذه هي الدكتور "ريم سعد" الطبيب الشرعي..

طأطأ الدكتور رأسه في خجلٍ وقال معتذراً:

-معذرة خالد بك، لم أكن أعرف.. أهلاً يا دكتور ريم.. شرفٌ لي رؤيتُكِ..

ردت ريمُ بابتسامة خفيفة:

-مرحباً يا دكتور.. هل يمكنني الاطلاع على تقارير هذه الحالة...؟

أضمر الطبيب عن الكلام قليلاً ثم تحدث:

-نحن قمنا بعمل الفحوصات اللازمة وللأسف لقد مات الرجل إكلينيكياً.

انتابها الغضبُ وبلهجةٍ حادةٍ ردت:

- ومن قال لكم إنه مات إكلينيكياً...؟! أريد الاطلاع على الملف حالاً..

في غضونِ دقائقَ كانت قد اطَّلعت على التقارير الخاصة بحالةِ السجين ثم أخذت منها نسخةً للدراسة..

خرج الاثنان من المشفى، فَفتح خالدٌ لها بابَ السيارةِ لتركب، صعدت ووجهُها جافٌّ خالٍ من المشاعر، انطلق بالسيارة وبين الفينة والأخرى كان خالدٌ يختلس النظر إليها عبر مرآته، لم تكن بالساذجة التي تَحُوْلُ دونَ ملاحظتِها تلكَ النظرات...! لكنها تجاهلتها ببراعةٍ تامة، إلى أن انسلخ من صمته قائلاً بأسف:

-ريم أنا أود الاعتذار منكِ ....

قاطعته بحدةٍ:

-خالد أقسم بالله لو أكملت حديثك سوف ألقي بنفسي من السيارة.

فتحت البابَ وهمَّت أن تفعلها، لكنه أمسك يدها مسرعاً ثم أغلقَ البابَ وتحدث بذهول

-يا مجنونة.. ماذا تفعلين ؟

لم تكترث لما يقول بل حدثته بلهجةٍ مليئةٍ بالتكبر والعظمة:

-إذَن: اصمت إلى أن نصل.. وإلا...!

احتجز الكلامَ داخله مرغماً إلى أن مرَّ الوقتُ سريعاً وحين وقفت السيارةُ أمام المنزل تحدث خالد:

-ريم.. ادخلي أنت الآن وسألحق بكِ بعد ساعة، لدي ...

فتحت الباب ونزلت دون أن تجعله يكمل حديثه، فابتسم في نفسه وانطلق بالسيارة...

وصل إلى منزل حازمٍ، صعد الدرج بخفةٍ ثم دقَّ باب الشقة وانتظر أن يفتح له.

ما فتئ حازمٌ يرتعُ في غيابةِ النوم، طرقاتُ الباب عكَّرت صفو أحلامه، أيقظته من سُباته، فنهض بتكاسلٍ حاملاً في يده مسدسِه، متوعداً الطارقَ بلكمةٍ تمحو خارطة وجهه، وفتح الباب، فَفُوجئ بخالدٍ، فَفرك عينيه ثم أعاد النظر لمظنَّةِ أنَّه يحلم، ولكنْ خاب ظنُّه حين تحدثَ خالدٌ طالباً الدخول:

-أيمكنني الدخولُ حازم بك...؟

ردَّ بارتباك:

-تفضل خالد بك، لكن ما سببُ هذه الزيارة المفاجئة...؟

ابتسم خالدٌ وهو يتجول في الشقة متأملاً محتوياتها القديمة ثم قال بدهاء:

-نحن أهل كرمٍ وردُّ الزيارة واجبٌ يا حازم بك.

ابتلع حازمٌ ريقه بصعوبةٍ، ومرر يده على وجهه، كي يستفيق وفكَّرَ مع نفسه:

- يبدو أن خالداً يحمل لي كوارثَ من نوعٍ خاص، قد تُنهي حياتي، أو ربما حصل على الملفِّ من أسماء وجاء..

لا.. لا.. ليس مهمَّتَه القبضُ عليّ ثم إنه جاء بمفرده لنرى ما في جعبته..

أثناء حديثه مع نفسِه كان خالدٌ متصدِّراً على الأريكة فارداً ذراعيه كطائرٍ مغرور، يراقب ملامحه الصفراءَ بتشفٍّ وسرور، مستمتعاً بحيرته الظاهرة على وجهه، ثم تحدث بمكر:

-ما رأيك يا حازم أن نكشفَ أوراقَنا ونضع اللفَّ والدورانَ جانباً فنحن لسنا دبابير...؟

الغيظ يتدفقُ من رأسِ حازمٍ يريد أن يُمزِّقَ خالداً إرْبا، ولكن ما باليد حيلة.

هز رأسه بعدم فهمٍ وتساءل:

-ماذا تقصد خالد بك...؟

قهقه خالد وأردف:

-حازم بك كنت أظنّك أدهى من ذلك بكثير..

تأفَّفَ حازمٌ وقال بنفاذ صبرٍ:

-خالد بك لنبدأ اللعبةَ، اكشف ورقك هيا..

بابتسامةٍ ماكرةٍ أردف:

فلنعتبر أنفسَنا فريقَ كرةِ قدمٍ مكونٍ من أحدَ عشرَ لاعباً، كعدد رصيدك في البنوك السويسرية، أنت مسئولٌ عن سبعةٍ غيرك وأنا عن اثنين..

لم يستطع حازم أن يمتلك غضبه، ففزَّ واقفاً كمن جلس على نبتةِ صبارٍ ثم صاح بغضب:

-هل جئت هنا لتبتزَّني...؟!

وضع خالدٌ قدماً فوق أخرى وتحدث ببرود:

-اجلس يا حازم ودعنا نتفق.. فعلى حدِّ علمي أنك مجرد موظف، مرتبك الشهري عاقٌّ لك.. لا يمكنه مطاوعتُك لشهر كامل، والعائلة الكريمة تاريخها كلُّه تحت قبضتي، ليس فيهم من يملك حملَ بعير، شكوى بسيطة من مجهول لمباحثِ الأموال العامة وأنت تعرف الباقي..

من أين لك هذا...؟

تلقى حازمٌ كلمات خالدٍ برعبٍ حتى تفصد جبينه عرقاً، وحين انتهى خالدٌ من حديثه، خرج حازمٌ عن سكوته وتساءل:

-ما المطلوب...؟

ردَّ خالدٌ بإيجاز:

-ثلاثة ملايين فقط..

ردَّ حازمٌ بمرارةٍ مستفسراً:

-ومن يضمن لي سكوتك..

ضحك خالدٌ بهستيرية ثم نهض عن مقعده وأخرج ورقةً من جيبه، وضعها أمامه على الطاولة وأردف:

-عادتك لم تتغير أبداً، دائماً يسبق كلامُك تفكيرَك، هذه الورقةُ بها رقمُ حساب، رجاءً يتم التحويل قبل العاشرة صباحاً، وضع في الحسبان أنَّ السجين الذي لم يكن سجيناً حالته مشابهةٌ لحالة الجاسوس إن كنت سمعت عنه، فإن تمَّ تحويلُ المبلغ دُفن السجين ودُفنت معه أسرارُه وقضية العقيد مدحت..

ضحك حازم بمرارةٍ وهو يحدق في الورقة ثم تحدث بدهاء:

-سيتم تحويل المبلغ غداً في العاشرة صباحاً، لكن ليس على هذا الحساب، سيتم التحويل لحسابك الشخصي خالد بك..

صفق خالدٌ له ثم نطق:

-تحياتي حازم بك، أصبحنا شركاء وهكذا تضمن سكوتي للأبد..

ثمَّ أخرج خالدٌ من جيبه قلماً وكتب رقم حسابه على ظهر الورقة ثم تحرك نحو الباب وقبل أن يخرج التفت بجسده ناحية حازمٍ وتحدث بتحذير:

-حازم بك، لدي شريكان فلا يغرنك شيطانُك فتُفكِّرَ أن تُرسلني للتحقيق مع الملازم سعيد في قبره، تأكَّد إن حدث هذا فلن يكفيهما عمرك وعمر عائلتك الكريمة، وتذكر جيداً.. شعبنُا يهوى الفضائحَ يا عزيزي، وما أجمل الرقصَ على سمعة ضباطِ الشرطة، وجاء الوقتُ لتطأطئ رأسك كي تمرَّ العاصفة بسلام.. أليس هذا كلامَك...؟

هبط حازمٌ على المقعدِ بينما خالدٌ خرج من الباب ثم عاد واقترب منه هامساً في أذنه:

-حازم بك.. هل أصلحُ أن أكون ضابط مباحث...؟

قال جملته وانطلق مغادراً الشقة ليترك حازماً يدور برأسه في دوامةِ الغضب كإعصارٍ هائجٍ لا يُبقي ولا يذر، يُطيح بكلِّ شيءٍ حوله باحثاً عن هاتفه، حتى عثر عليه، ضغط على شاشته بعصبيةٍ بالغة كاد أن يُهشِّمَها من شدة الغضب ثم وضع الهاتف على أُذنه وحين أجابت أسماء:

-مرحباً حازم بك..

قابل ردَّها بقذائفَ من الغضب:

-لا أهلاً ولا سهلاً.. لقد نفَّذتُ الشرطَ الأول بزيارةِ منالَ لعاصمٍ.. ومعك مهلةُ فقط لغد، فإن لَّم يكن الملفُّ بحوزتي، قسماً بربي.. سأُقَطِّعُ حبيب القلب إرباً وأجعله طعاماً للكلاب الضالة..

رمى قنبلته بوجهها ثم أغلق الخطَّ وأسند يده على الطاولةِ محدثاً نفسه:

-مسكينٌ يا خالد.. أتظنُّ نفسك ذكيا...؟!

لقد وضعت رقبتك أسفل قدمي.. نعم الثمنُ باهظٌ، لكن لا بأس.. فقد ضمنت سكوتك للأبد.. وعندما أحصل على الملفِّ سيتضاعف رصيدي أضعافاً مضاعفةً..

*****

# الفصل التاسع عشر

مستلقيةٌ على سريرِها تتأمل سقفَ الغرفة، الملل جعلها تعدُّ دورانَ المروحةِ إلى أن أصابها الدوار، فاعتدلت بجسدها، وقررت أن تخرجَ من المنزل لعلَّ طيفَ المللِ يغادرُ رأسها، جهزت نفسها على أكملِ وجهٍ، لازال الدوارُ يلاحقُها، اعتقدت بأنه تأثيرُ التحديق بالمروحة.. لم تهتمَّ وسارت نحو الصوان الموضوع بجوار سريرها أخذت مفاتيحَها وما إن خطتْ بضع خطواتٍ حتى شعرت بغثيانٍ وترنحت بجسدها كأرجوحة مهجورةٍ ركلَها طفلٌ بقدمِه ورحل، كادت أن تسقط أرضاً لولا أنها استندت على الحائط، أحَّست بآلامٍ في رقبتها، وكذلك في عينيها حتى أن الرؤيةَ أصبحت أمامها مشوشةً، وصداعُ رأسها كاد أن يقتلها، وسكاكينُ حادةٌ تُمزِّقُ أحشاءها، الغثيان جعلها تمهك إلى الحمام لتخرجَ البلاءَ القاطنَ في جوفِها، وتقيّأت بألمٍ ثم غسلت وجهها ومن ثم تأمَّلته في المرآة، فلاحظت وجودَ طفحٍ جلديٍّ بجوار شفتِها، جست جبينها فانتفضت من ارتفاع حرارتها فجأةً وكأن جهنَّمَ استقرت ببدنها .. رغم كل هذا أصرت على الخروج.

هبطت الدرج ببطءٍ كطفلٍ لم يتعلَّم الخُطى، مشت رغم تعبِها وتعثُّرِها المتكرر، وجسدِها الذي يغلي من شدةِ الحرارة حتى وصلت إلى وجهتِها، حين لمحت أبواب الصيدليةِ مفتوحةً على مصراعيها، هلَّلَ قلبُها فرحاً كعروسٍ تُزفُّ لحبيبها، دخلت إلى الصيدلية، سيطرت الصدمةُ على ملامحِها حين رأت علاءً، تراجعت بجسدها لكنه لمحَها وتساءل:

-ماذا تريدين يا آنسة...؟

ردت بارتباك:

-أريد الدكتور أمجد..

ردَّ بسؤالٍ:

-ومن تكونين...؟

خفضت بصرها وأجابت:

-أنا ليلى ...

أطرق برأسه قليلاً باحثاً في ذاكرتِه عن هذا الاسمِ فلقد سمعه قريباً، تذكَّر ما قصَّه عليه أمجدُ وعلمَ أنها هي، فكَّر قليلاً قبل أن يجيبَها، وقارن بين حالةِ صديقِه قبل وبعدَ عملِه في صيدلته واختار له وضعه الحاليِّ ثم تحدث بإيجازٍ:

- أمجد في بعثةٍ إلى فرنسا لثلاثِ سنوات..

خارت قواها، أمَّا قلبُها الذي كان يُهلِّهلُ من الفرح فقد أصبح ينوحُ كأرملةٍ رماها القدرُ في بئر الحرمان، خرجت دون أن تنطق بحرفٍ واحد..

في هذه اللحظة لم تتمنَّ سوى أن تبتلعَها الأرضُ وتختفي عن الوجود..

مرضُها الذي قاومته لتصلَ به إلى هنا استسلمت له حتى كاد أن يفتكَ بها.

*****

محاولةٌ أخرى فاشلةٌ في تشريح جثةِ الجاسوس، وشبيهه السجين جمال عز الدين، بعد أن أعلنت الأرضُ أيضاً إضرابها عن مواراةِ سوءته، لم يكن فشلُ الفريقِ الطبيِّ للمرةِ الثانية طامَّةً كبرى إلا على ريم فقط، فالجميع يشغله أمرُ كشف سرِّ هاتين الجثتين، لكن ما يشغلها رؤيةُ وجهِ والدها على ملامح الحالتين، تلك الملامحُ التي حطت على قلبها كبدينةٍ سقطت على جسد رجلٍ نحيف، قلبُها اليومَ ثقيلٌ، ثقيلٌ كجبلٍ يائس، لم تسأم يوماً من الوجوه التي تتكرر بصورةٍ بشعة، لم تسأم من الوجودِ الذي لا تفهمه، مثلما سئمت من وجه أبيها في هذا اليوم، لقد باتت قانطةً من نفسِها، من بشريتِها، من عبقريةِ هذا المجهولِ الذي يتوغَّلُ عميقاً في خلايا دماغها.

دمعة سقطت من عينيها تواسيها فمسحتها براحتها وحدثت نفسَها بتمنٍّ:

-كنت أريد أن أكونَ شخصاً آخر لا يسأل عن شيءٍ...! أمرُّ عليه فلا يُناديني.. أصغي لسكونه بداخلي ثم أنام هادئةً كأيِّ إنسانٍ آخر طبيعيٍّ جداً.. لا تطعنه الكوابيس ولا يجافيه النعاس..

لا بأس.. سأعود للبيت الآن وأنا أسمعُ كلَّ هذه الأصواتَ التي تأتي من بعيد، وأرى الكثيرين يَعبُرون أمامي يبتسمون، وبعضُهم يُسلِّم عليَّ.. أعرفُهم جميعاً لكنني أشك أنهم يُحبُّونني أو أنني أحبُّهم، البشر أشرارٌ وأنا مثلهم..

همت بالنهوضِ لكنها لمحت صديقتَها سوزان تقتربُ من بابِ المكتب، عادت لمقعدها وانتظرت حتى دلفت وسلَّمت عليها ثم سألتها مرةً أخرى عن سرِّ صراخها عند رؤية جثةِ الجاسوسِ لأولِ مرةٍ...؟ غابت ريمُ عن الكلام لبضعِ ثوانٍ ثم ردت:

-سوزان.. لقد رأيتُ وجهَ أبي فيه، وعندما ذهبت مع خالدٍ لرؤية الحالة الثانيةِ تكرَّرَ نفسُ الشيء، واليومَ كانت ملامحُه على وجهيهما ولا أعرف السبب..

اتَّسعت مُقلتا سوزان في دهشةٍ وتحدثت بذهول:

-كيف هذا...؟

ترقرقت الدموعُ في عيني ريم وأجابت:

-لا أعرفُ يا سوزان، لكن هذا ما حدث..

تأمَّلت سوزان ملامحَها جيداً، فأحسَّت أنَّ بشرتَها منطفئةٌ، والهالاتُ السوداءُ تكونت أسفل عينيها، فأردفت بقلق:

-ريم يبدو عليكِ الإرهاق.. لابد أن تأخذي قسطاً من الراحة..

ابتسمت ريم بمرارةٍ وردت بقهرٍ:

-أيُّ راحةٍ...؟! الراحة التي لا أعرف طعمها منذ فاقَ عمري العشرَ سنوات، عمري الذي تلطَّخَ بالخوف والتشرُّدِ والمآسي...!

كلماتها مزقت قلب صديقتِها قلقًا عليها، بل إنَّ لسانها تلجَّمَ أيضاً وتوشَّحَ بالحزن الصامت، وعيناها ذرفت دمعاً تضامناً معها.

الصمتُ القاتلُ نام على شفتيهما، حتى هرب منه سؤالٌ قذفته ريم في الهواء:

-لماذا أرى وجهَهُ على الجثث.. لماذا...؟

ردَّت بتخمينٍ: أعتقد يا ريمُ أنه لا يوجد تفسيرٌ لما يحدثُ معكِ سوى أنَّ والدَكِ غاضبٌ عليك لعدمِ زيارتكِ له...! والحلُّ أن تذهبي إليه في أقرب وقتٍ...

تفسيرٌها فتحَ بداخلها ثقباً أسودَ جاهزاً لابتلاع الكونِ بأكمله، لكنَّه عجز أن يبتلعَ شعورَ الخوف الذي تملَّك منها، بل وجعلها ترتجف بشدةٍ.

الخوف الذي لا يمنعها من أن ترتكب ذنوبا، لكنه يحولُ بينها وبين الاستمتاعِ بها، فمنذ أن تركت شقَّةَ والدِها لم تهنأ بالراحة أبداً، لقد نما الفزعُ داخلها وتوغَّل، الفزع الذي يجعلُها ثملةً بقوةٍ دون أن تسكر، كمن تنتقم من نفسِها ثم تُحطِّمُ المرايا والطاولات والكراسي وتترنَّحُ بوجعٍ غير مفهومٍ...! تراهم جميعاً يضحكون، لكنَّهم لم يكتشفوا الحقيقة مثلها، بينما هي تعرف الكثير.. الكثير الذي لا يمكنها قوله، تتوجس خيفةً من اعترافها، من انتمائها لهذا النوعِ من البشرِ الذي يشعر دائماً أن قيامته تقوم كل ليلة..

تقوم بداخلِه فقط ثم يصحو صباحاً ببرودٍ ورجفةٍ في الروح ليعودَ لعاداته السيئة، لطبيعتِه الحقيرة، دون أن يستمتعَ بشيءٍ، لكنَّه يقتلُ غيره، يقتله عمداً دون أن يعرفَه، فهل يُعقل أنهم مثله...؟

*****

قطعةُ تراثٍ على هيئة قصرٍ موحشٍ خالٍ من الأرواح محاطٌ بأشجارٍ السروِ من كلِّ الجهات، كأنها حراسٌ لسورٍ من أسفلت تعلوه أسلاكٌ شائكةٌ موصولةٌ بتيارٍ كهربائيٍّ إنِ اقتربت منه ذبابةٌ صَعِقتْ، يتوسَّطُ السورَ بابٌ أسودُ اللونِ، يضمُّ داخله حديقةً فائقةَ الجمالِ، تحتشدُ زهورُها الخلابةُ البريئةُ حولَ حمامِ سباحةٍ، مياهُه الزرقاءُ تخطف الألبابَ، تُطلُّ عليه شُرفاتُ غرفِ النومِ في الطابق العلويِّ، وبابٌ في المنتصف يقف عليه تمثالان من نُحاسٍ يُحرسانِ قاعةً كبيرةً مُزينةً بلوحاتٍ مثيرة، ملفوفةٍ بإطاراتٍ من ذهبٍ، بجوارهما تقفُ التُّحفُ الأثريةُ معلنةً عن ذاتِها، تسحبُ الأبصارَ لعالم الخيال، على حينِ لا تنطقُ الألبابُ إلا بالتغني لروعتِها، وخاصةً هذينِ القطَّينِ الأسودينِ الموضوعين على جانبي بابٍ خشبيٍّ كبيرٍ وفخمٍ مرصَّعٍ بزخارفَ هندسيةٍ دقيقةٍ، و وراءَ هذا البابِ تُحاكُ المؤامراتُ ويتمُّ عقدُ صفقاتِ الموتِ، كما يحدث الآن فَ "رفعت القوصي" جالساً يحيكُ تفاصيلَ مؤامرةٍ جديدةٍ كما يقولُ لمالكِ هذا القصرِ الجالسِ خلفَ مكتبِهِ الفارِهِ مُمسكاً بسيجارته الفاحشةِ كأفعى نادرةٍ يُنصتُ لِمَا يقول رفعت:

-إنها صفقةُ العمرِ، بل أيضاً خلاصاً لنا من هؤلاء الحمقَى..

ردَّ عليه بهدوءٍ بالغٍ وبلهجةٍ يعلوها الوقارُ والهيبةُ:

-رفعت.. أنت هنا لتنفِّذَ أوامري فقط، لا لِأن تقترحَ ورطةً جديدة.. دعك من كلِّ هذا وقل لي أين الملفُّ...؟

حوَّل رفعتٌ رأسه بعيداً وكذلك عينيه، وباعد ما بين قدميه، وكأنَّ الإجابة ستأتيه من أسفل، ثم ردَّ بارتباكٍ:

-لا تقلق سيادتك.. قريباً سينتهي هذا الكابوس..

اتَّسعت عينا الرجلِ في غضبٍ وضمَّ ذراعيه إلى صدره ثم دارَ بكرسيِّهِ حول نفسِه وهتف بامتعاضٍ:

-قريباً سينتهي.. سمعتُها كثيراً دون فائدةٍ، لم يعد لدينا خياراتٌ كثيرةٌ يا رفعت ولا نملك الكثيرَ من الوقتِ وإن لَّم نحصل على ما نريدُ اليومَ قبلَ غدٍ، فستحصدُ أرواحَنا بمناجلِ الغباء، وكُلتُ لك الأمرَ سابقاً، وقلت لك: احرق..

دمر.. اقتل.. افعل أيَّ شيءٍ كي تحصلَ على الملفِّ، ثم كانت النتيجةُ أني اعتمدتُ على ضابطٍ فاشل، قتل جمال واستبدلَه بشخصٍ آخرَ أشدَّ خطراً علينا.. لا نعرف إلى أيِّ مدى سينتهي أمرُه..

قال كلماتِه ثم نهض عن مقعدِه وتحرك نحو رفعت، فقام هو الآخرُ عن كرسيِّهِ، وخفضَ بصره أرضاً، ثم شبَّك يديه حول بطنِه، فاقترب الرجلُ منه ووضع يده فوق كتفِه وتابع:

-أمامك ثلاثةُ أيامٍ فقط لإحضارِ الملف.. نصيحةٌ يا رفعت.. المهلةُ معي لن تتكرر...!

*****

أمامَ منزِله يركنُ سيارتَه ويترجَّلُ منها متبختراً كنعامةٍ منتفخةِ الريش، واتَّجه نحو البنايةِ، وقبل أن يصعدَ درجاتِها الأولى انقضَّ عليه خمسةُ رجالٍ ملثمين، وفي لمحِ البصرِ قيَّدوه من الخلفِ ووضع أحدُهم فوَّهَةَ سلاحٍ على رأسِه، فاهتزَّ جسدُه في محاولةٍ منه للمقاومةِ فجاءته ضربةٌ على مؤخرةِ رأسه أفقدته الوعيَ، وحملوه ثم ألقَوا به داخل حقيبةِ سيارتِهم وانطلقوا بها، وقطعوا الطريقَ في لمحِ البصرِ حتى وصلوا إلى إحدى البنايات، ثمَّ أنزلوه من السيارةِ معصوبَ العينين، وساروا به في سردابٍ ضيِّقٍ إلى أن وصلوا لصالةٍ كبيرةٍ بباطنِ الأرضِ معلَّقًا بسقفِها خطاطيفُ صَدِأةٌ، أحدُها مُلطَّخاً بالدماءِ، والآخرون شاهدون على موتِ بطيء بلا رحمةٍ .. كلُّ شيءٍ فيها مغتصبٌ منَ العفونةِ ومقيدٌ بالرطوبةِ إلا الجرذانَ...! فقد كانت تسرحُ وتمرحُ كأنها في قصرٍ مات به الملكُ..

اقترب جُرذٌ وقضمَ قدمَ حازمٍ فاستيقظ مرعوباً ظنَّ نفسَه في كابوسٍ مرعبٍ، صرخَ لعلَّه يستفيقُ منه، لكن للآسفِ.. الصراخُ لم يجدِ نفعاً؛ بل زاد الأمرَ سوءاً، أتى الرجالُ على صوته.. سكبوا عليه دلواً من الماء، ثم خاطبه أحدُهم:

-هذا لتتأكدَ من أنك لست في كابوسٍ

جاء صوتُ حازمٍ مختنقاً مرعوباً:

من أنتم.. وماذا تريدون مني ...؟

أتاه صوتٌ من منطقةٍ مظلمةٍ من المكانِ:

-اللعبةُ انتهت يا حازمُ، وأيامُك أصبحت معدودةً.. أين الملفُّ.. دُلَّنَا عليه وإلا سنجعلُك تتمنى الموتَ ولن تراه...!

تظاهر حازمٌ بقوةٍ زائفةٍ وردَّ بتماسكٍ – على الرغمِ من أنَّ قلبَه يرتجفُ رعباً:

-أخبروا رفعت بك ألَّا أحدَ يستطيعُ أن يُحضرَ له الملفَّ سواي، ولكن لنتفق أولاً..

وكانَ قد تذكَّرَ حديثَ خالدٍ معه فاقتبسه وتابع:

-لا يهمُّ أن أموتَ، ولكن ليكن في علمكِم أنني لست وحدي وإن حدث لي مكروهٌ فستلحقون بي مع التصاقِ الفضائحِ بكم وبأبنائكم مدى الحياة..

ظهر الصوتُ من الظلام على هيئةِ رجلٍ طويلٍ القامة عريضِ المنكبين، وجهُه مخيفٌ لدرجةِ أنها تُجهضُ ذاتَ الحملِ حملَها إن رأته، ذو لسانٍ قبيحٍ ويدان ضخمتان.. ظهر متسائلاً بغضب:

-من رفعت...؟!

أبطأَ حازمٌ الردَّ داخله بينما قلبُه فقد كان يستغيث، بل وأعضاؤه أيضاً تطلب العونَ لنجاته، ولكن من سينقذُه وهو يعرف تلك اللعبةَ جيداً، الخاسرُ فيها طعامٌ للدود...! فأخرجه من شرودِه صوتُ مجرَّةِ مسدسٍ تُشدُّ للوراء، وصوتٌ مكتومٌ لطلقتين تسابقتا معاً، أيتها تسكنُ جسدَه قبل الأخرى، لقد سقط قلبُه أسفلَ قدميه وظن أنَّ الرصاصتين سترسلانه إلى الجحيمِ الآن، لكن لازال هناك أملٌ لبقائه حياً، حيث تحدث الرجلُ قائلاً بتحذير:

-أنقذ نفسَك يا حازمُ.. هاتان الرصاصتان سكنتا جسدَ خائنٍ لنا.. قل لنا أين الملف وسنتركك...؟

تجمدَ حازمٌ من الخوف، وعرقُه تصبَّبَ من جبينه بغزارةٍ، عقلِه توقَّف عن التفكير، وفرائصُه لازالت ترتعد، أما لسانُه فقد ظلَّ يردد:

-رفعت بك.. لا أحدَ يستطيعُ العثورَ على الملفِّ غيري.. أمهلني يوماً واحداً.. واحداً فقط.. وبعدها افعل ما شئت.

*****

استسلمت عيناها للنومِ أخيراً، لكنَّها باتت كطائرٍ مهاجرٍ تُوقظه كلَّ نسمةِ هواءِ تداعبُ جناحيه، لكن ما أيقظ أسماءَ الآن لم تكن نسمةٌ هواء؛ بل عاصفةٌ عاتيةٌ، انتفضت من سريرِها فزعاً وهي تقبضُ على ملابسِها مستترةً بها، خرجت للصالةِ في ترقُّبٍ وحذرٍ لم يُجديا، فلقد أمسكتْ بها يدٌ قويةٌ وكمَّمت فمها، عيناها تحدقُّ في الفراغِ بينما تحاولُ نزعَ اليدِ الحديديةِ من على فمِها، وفجأةً تبدَّلَ الفراغُ برجلٍ يخرج من غرفةِ منالَ، وأتت صرخاتُ منالُ لتواسي آهاتٍ صديقتِها، كان الرجلُ يُمسك بشعر الأولى ويجرُّها خلفه على الأرضية، وجهُه المُلثَّمُ لم ينجح في إخفاء نظراتِ التلذذِ برؤيةِ نيرانِ الخوفِ تشتعلُ في ملامحِ الصديقتين، سالت دموعُ أسماء بغزارةٍ ولا زالت تلك اليدُ تمسك بها وتعيقُ حركتَها، خرج رجلانِ آخران بنفسِ الهيئةِ من غرفةِ منال وأشارا لكبيرِهما أنهما لم يجدا شيئاً، فأتت إشارةٌ أخرى سريعةٌ منه تأمرُهما بتفتيشِ المنزلِ بالكامل، أصبحت الشقةُ عبارةً عن فوضى تنبئُ بحالِ صاحبتِها، اقترب الرجلُ من أسماء وأشار لرفيقِه بأن ينزعَ يده من على فمِها، ثم قال لها بنبرةٍ مستفزةٍ:

-كنتُ أودُّ ألَّا أُكلِّفَك عناءَ ترتيبِ الشقةِ من جديدٍ، لكنكِ أنتِ من دفعتينا لفعل لذلك..!

أشاحت أسماءُ بوجهِها بعيداً عنه فتبسَّمَ الرجلُ بدهاءٍ، مرَّتْ دقائقُ قليلةٌ جداً وخرج بعدها الرجلان مشيرين إلى أنهما لم يعودا سوى بخُفَّي حُنينٍ، تبدَّلت ملامحُ الرجل وأمسك بشعرِ أسماء واقترب من أُذنيها وهو يقول:

-سنستعير منك صديقتَكِ ريثما تعودين إلينا بالملف..

صرخت أسماءُ برعبٍ حينَ رأتهم يأخذون منالَ التي كان نُواحُها غير مسموعٍ بعد أن نخرَ المرضُ جدار عزيمتها، ولكنْ عينيها كانتا مثبَّتتينِ على أسماء تستجديها... ظلت أسماءُ تصرخ وتصرخ حتى ذاب قلبًها وسقطت مغشياً عليها، وخرج الرجالُ الملثمون من المنزل وهم يصطحبون معهم منالَ وبعدما انطلقوا بسيارتهم ظهر شخصٌ من خلفِ الجدارِ ورفعَ هاتفَه على أذنيه...!

*****

# الفصل العشرون

وجهٌ تملَّك منه الدهرُ ووضع بصماتِه عليه، ملامحُ قهرت قسوةَ الأيامِ وجسدٌ أنهكته الحياةُ شقاوة، تخطَّى عمرُه الخمسين عاماً، لكنْ قلبُه لازال شابَّاً لم يتأثر بعلامة الدهرِ ولم تزدهُ السنونَ إلا جسارةً وقوةً وصلابةً تفوقُ الجبال، ملامحُ بسيطةٌ تحملُ بين طياتِها حكايةً أيامٍ عتيقةٍ تروي أحداثَها عيناه الواسعتان وجسدُه النحيفُ، يقايضُ الدنيا بعددِ نسائه، يتمنى طفلاً وإن أفنَى من أجله ماله، يجلس في مخدعه شاردَ الذهن يُفكِّرُ فيما هو آت، ينتظر صوتَ رضيعٍ يعيد إليه الإنسانَ بداخله، يختصر لحظاتِ سنينه في صوتِ بكائه، يَشيدُ له حضاراتِ العالمِ جميعاً ويُنصِّبُه ملكاً على عرشه القائم، ثم يطرده الطفلُ ليسكنَ الكهوفَ وعندما تضيق به يصعد إلى قمةٍ جبليةٍ محاولاً اقتباس قبضةٍ من تلك القُبَّةِ الزرقاء، يصنع من عروقِ الشجر سفناً يسبح بها في البِحارِ ويعبرُ المحيطاتِ والأنهارَ، ليصلَ أخيراً إلى طفلِه الذي طردَه ولم يكبر بعد في عينيه، يُجلِسُه على فخِذَيه ويُقَبِّلُ جبينَه ثم يطالب ملكَ الموت بالحضورِ ليقبضَ روحَه، تاركاً الدنيا لولدٍ من صُلبِه يعبثُ بها كيفما يشاء.. سالت الدموعُ على خديه بانتظامٍ كالجنود في طابورِهم الصباحيِّ، ثم أخرجَه من شرودِه صوتُ أتاه من بعيدٍ، دفعه لأن يفتحَ عينيه ويرى مصدرَه:

-السلام عليكم أيها الأمير..

بلهجةٍ متقطعةٍ ردَّ:

- ماذا وراءَك...؟ فأنت لا تأتي إلا ومعك مصيبةٌ ما..

فضحك سفيانُ قائلاً:

-سامحك اللهُ ولكن هذا عملي.. لقد أصبح كلُّ شيءٍ على ما يرام، ولكن هناك وغدٌ ما أودُّ أن أستأذنك في إرسالِه إلى الجحيم..

بصوتٍ جهوريٍّ صاح في سفيانَ:

-نفِّذْ يا سفيانُ دون أن ترجعَ لي.. منذ متى وأنت تستشيرني في أمرِ الأوغادِ هؤلاءِ...؟!

بثقةٍ بالغةٍ ردَّ سفيانُ:

-عذراً أيها الأمير، أردت فقط أن تعرفَ أنَّ تنفيذَ العمليتين سيكون في آنٍ واحدٍ، وأردتُ إخبارَك.. ربما يكون لك رأيٌ آخر..

أومأ الرجلُ برأسِه تفهُّماً وتحدث بإيجاز:

-لا تشغلني بمثل هذه التفاهاتِ مرةً أخرى.. هيا اذهب واتركني..

تراجعَ سفيانُ بخطواته، وقبل أن يخرجَ استوقفه صوتُ الأمير:

-مَن هذا الوغدُ يا سفيانُ..

جاءه الردُّ سريعاً:

-وكيلُ النائبِ العامِّ "خالد الشناوي".

اندفع الأميرُ رافضاً الأمرَ:

-لاااا.. انتظر يا سفيانُ.. اصطبر عليه الآن، وبعد انتهاءِ عمليةِ غدٍ سأنظرُ أنا في أمره..

سيطرت الدهشةُ على ملامحِ سفيانَ ثم ردَّ بتبريرٍ:

-لكن يا أميرُ.. إنه يُشكِّلُ خطراً علينا...! وأعينُنا المزروعةُ هناك أبلغتني أنَّ الأمورَ تسوءُ أكثرَ، وبات أمرُنا على وشكِ أن يُفتضحَ.. لذلك...

اجتاحته عبرةٌ خانقةٌ كالحممِ البركانيةِ فانفجرَ في وجهِ سفيانَ قاطعاً حديثَه:

-منذ متى وأنتَ تعارضني يا سفيانَ، قلتُ لك اترك لي أمرَ هذا الوكيل، ولا تفعل شيئاً بعد الآن ولا تتخذ قراراً دون الرجوعِ لي أولاً، والآن اذهب وأحضر لي أحمدَ هنا لأجسَّ نبضَه..

تغيَّبَ سفيانُ ثوانٍ ثمَّ عاد ومن ورائه أحمد.. رمقه الأميرُ بنظرةِ رضا مصطنعةٍ ثم تحدث:

-اقترب يا بنيَّ بارك الله في شبابك.. اليومُ يومُك المنشودُ.. يومُك الموعودُ.. اليومُ الذي وُلدَتْ له روحُك السجينةُ في جسدِك.. ستنطلق فيه كالأسود، أراد اللهُ أن يختارَك لهذا الهدفِ العظيم.. اختارك لتكونَ شهيدَ أُمتِك وتقومَ بالتنفيذِ بين ظهرَيِ المشركين، فهل أنت مستعدٌ لهذا الحدثِ العظيمِ...؟

دون تفكيرٍ كان الجوابُ.. بلى:

نعم يا أمير، أنا على أتمِّ الاستعداد.. الآن فقط علمت لماذا خُلقتُ في هذه الدنيا..

ربت الأميرُ على كتفه، ثم لانَ وجهُه بابتسامةٍ خفيفة وقال:

-اذهب الآن إلى زوجِكَ ودِّعها وعِدْها أنك ستنتظرها في الجنة، وأنا أعدك أنها ستكونُ لك؛ فلن يمسَّها رجلٌ من بعدك..

أحسَّ أحمدُ بوخزةٍ قويةٍ في قلبه عقبَ حديثِ الرجل، وكأنه وضع على جُرحِه حبة ملحٍ وغمسها فيه، فصرخ بأنينٍ داخله ثم نهض واستأذن الأميرَ في الانصراف، هرول نحو غرفتِه، رغبةٌ غريبةٌ تجتاحه في مضاجعةِ زوجته.. كلُّ شيءٍ فيه انتصب في هذه اللحظة، فولجَ من باب الغرفةِ فوجدها مستلقيةً على ظهرها، فهمَّ بجذبِها من قدمِها حتى انتصبَ عودُها، وضمها إليه بعنفٍ فسكت ما كان يصرخ رغبةً فيها منذُ قليل، وكأنه طفلٌ صغيرٌ بكى لفقدان أُمِّه، وحين عثر عليها وضمته إلى صدرِها أطْرَقَ رأسه..

انتزع نفسه من بين أحضانِها، ليذهبَ إلى الحمام حتى إذا بلغَه أغلق الباب خلفه وظل يبكي إلى أن نادت عليه زينب:

-أحمد لماذا تأخرتَ هكذا...؟

خرج بعد أن توضأ ثم سحبَ سجادته وانكفأ عليها وظل ساجداً حتى الهزيعِ الأخير من الليل، ثم قام وتوجَّه نحو الخارج، فرأى سفيانَ في انتظاره ومعه ثلاثةُ رجال، فابتسم في وجوهِهم وتحدث بإيجازٍ:

-أنا على أُهبةِ الاستعداد..

تحرك الرجالُ وخلفهم أحمد، وودعته زينبُ بدموعٍ انهالت من عينيها بغزارةٍ كمطرٍ صُبَّ على قومٍ غَضِبَ اللهُ عليهم، وهي لا تعلَم لماذا تبكي...؟ هل أحبته، أو أنَّ فشلها في اختراق أسرارِه هو ما دفعها للبكاء...؟!

*****

خيوطُ الضوءِ تنسج نفسَها في السماء معلنةً عن قدومِ نهارٍ جديد، وشمسُ هذا اليومِ حضرت مبكراً؛ لكنها حزينةٌ تُطل على الأرض بردائها الأصفرِ ثم تغيب لثوانٍ.. يبدو أنها لا تودُّ أن يرى أحدٌ دموعها، حتى السُّحُبُ تبكي بشدةٍ وكأنها تودِّعُ أرواحاً بريئةٍ، وتطهِّرُ الأرضَ من قذارةِ الآخرين، وأحمد ينظرُ للسماء بعينين جاحدتين وكأنه يمقتها، بينما ارتدى رفقاؤه لباسَ السكونِ طيلة طريقهم، يودون أن يطيرَ الوقت بجناحيه ليجذبَ إليهم ليلاً جديداً بانتصارٍ عظيم، ولمَّا وصلوا أخيراً إلى وجهتهم، ضربوا كتفَ أحمدَ برفقٍ ليشدُّوا من أزره وبصوتِ رجلٍ واحدٍ هتفوا:

-هنيئا لك يا بطلُ الحورُ العينُ..

تبسَّم في وجوههم بمرارةٍ ثم ترجَّل عن السيارة وأدارَ عينيه في المكان

وإذا بمنازلَ بيضاءَ وأبوابٍ خشبيةٍ محفورةٍ بزخارفَ تخطفُ النظرَ من شدةِ روعتها وجمالِها، أمام كلِّ بابٍ قصيصٌ من الأزهار الملونة؛ عبقها يفوحُ في كلِّ صباح عندما تسقي سيداتُ البيوتِ الورودَ بالماء ثم يَرشُّون ماءَ الزهر على الأرض والأبواب لتفوحَ رائحةٌ تُنعش القلبَ والروح، وكعادة أهلِ الحيِّ يتبادلون أحواضَ الأزهارِ قبل الذهاب إلى الكنيسةِ التي تبعد عنهم بخطواتٍ

بسيطة، لقد بدأت أجراسُها تصيح في المكان، والناسُ يهرولون نحوها بوجوهٍ بشوشةٍ مفعمةٍ بالحياة، فهذه الكنيسةُ الأكبرُ بين نظيراتِها في المنطقة والأجملُ، مطليةٌ من الخارج باللون الذهبيِّ الأخَّاذِ، يعلوها صليبٌ محفورٌ من خشبِ الزان مُغطًّى بأوراقِ وأغصانِ الزيتون، تصاعدت أجراسُ الكنيسة، واحتشد الخلقُ من بينهم أحمد؛ فلقد حانت فرصتُه بعد تأمِلِه المكان

لقد جاءت لحظةُ تحريرِ روحِه المقيدةِ، شخصت عيناه وتجمدت الحياةُ بقلبه، وقد ضُبطَ عقلُه على تمام الساعة التاسعة، وروحُه تتوق إلى التحررِ من عبوديةِ الجسد، وموعدُه مع الحورِ العين يزيد من إصراره على تحقيقِ هدفه، دقَّت التاسعةُ وحان وقتُ التحرك، فبدأ يمشي خطوةً خطوةً، كان أشبهَ برجلٍ آليٍّ يتحرك ثابتَ الرأسِ، جسدُه صلبٌ كفولاذ، يتوسطه حزامٌ ناسفٌ كفيلٌ بدكِّ الحيِّ بأكمله، وكان قد وصل إلى البوابةِ التي سيغادر منها هذا العالمَ ومع دقةِ الجرس الأخيرة كبس الزنادَ وفتح باباً من جهنَّمَ فأحرقَ الأخضرَ واليابس واشتعل المكانُ وتحول إلى دَرَكٍ من السعير، وتفجرت أشلاؤه وتطايرت هنا وهناك، وتحوَّلَ جسدُه الفولاذيُّ إلى فتاتٍ؛ كلُّ ذرةٍ منه اشتعلت ناراً وانتثرت على أسطح المباني المجاورة، وتطايرتِ الأشلاءُ في كلِّ مكانٍ كنيازك تخرُّ من السماء، كبالوناتِ أطفالٍ تعساءَ، وبدتِ الجثثُ متفحمةً.. الدماءُ لطخت الشجرَ والحجرَ.. الأرضُ أصابها الغثيانُ من كثرةِ الدماء التي ابتلعتها.. المدينةُ كلُّها اهتزت وارتجت وانقلبت رأساً على عقب.. ألسنةُ اللهب كادت تعانقُ السماء.. الدخانُ الأسودُ حوَّلَ النهارَ إلى ليلٍ كئيبٍ وخانق.. أقاصيصُ الزهور تفحمت كأصحابها، وماءُ الزهر تبدَّلَ إلى دماء الضحايا.. قلوبُ الأطفالِ في المنازل تجمدت من الرعب.. الأمهاتُ حائراتٌ ليسَ من شيءٍ يسوقُهنَّ إلى الهدوء النفسيِّ إلَّا ويعقبُه ما يُثيرُ في قلوبهنَّ الرعبَ من جديدٍ على أنفسِهنَّ وعلى أطفالهنَّ.. الرجالُ في المدينة هرعوا لمكان الحادثة.. سياراتُ الإسعاف تدوي في المكانِ بحثاً عن أُناسٍ لم تغادرهم الروح بعد..

رجالُ الأمن ينتشرون في المكان يبحثون عن أثرٍ للإرهابيِّ الذي نفَّذَ العملية، وفي وسطِ هذه الملحمة بدت أبصارُ الناس شاخصةً للسماءِ يُشيرونَ بأصابعهم إليها ويصيحون بفزع:

-يا إلهي.. ما هذا.. أشلاءُ جثةٍ تتجمع وسط السماءِ بعد أن تمزقت إرباً.. تتجمع من كلِّ حدبٍ وصوبٍ كأنها طيرُ إبراهيم حين ناداهم.. تجمعت واستقرت على الأرض.. لحيتُه وهيأته وملابسُه تشير إلى أنه الفاعل ...

الجميع أصيب بالذهول.. أهي معجزة...؟! أين إبراهيم؟!

*****

الأيامُ دائماً متشابهةٌ لا تختلف إلا في المصائبِ فقط فكلُّ مصيبةٍ حين وقوعها تكونُ أصعبَ من سابقاتها؛ وإن بدا ظاهرُها عكسَ ذلك، أمَّا السعادةُ فلحظاتٌ نسبيةٌ لا نشعر بها إلا حين نُعايشها، تمرُّ سريعاً علينا كالبرق، ولكنها تُبقِي أثراً داخلنا ربما نحيا به عمراً كاملاً، كما هو حالُ خالدٍ الآن...! يتذكر لحظاتِه السعيدةَ مع ريم، تلك اللحظاتُ التي جعلته يبتسم رغماً عنه ولا ينتبه للعم محمود وهو يضع أمامه فنجانَ قهوتِه الصباحية، وجرعَةً من الجرائد التي يتناولُ قراءتها يومياً عند كلِّ صباح. صوتَها وهي تنطق – أحبك- شقاوتَها وهي تقفز عن الأرضِ مراتٍ عديدةٍ كطفلةٍ صغيرة، عنادَها، حتى دموعَها وهي تعاتبه، كلَّ أفعالِها دون استثناءٍ جعلته يبتسمُ ويتنهدُ بعمقٍ حتى أخرجه من شروده صوتُ كريمٍ كاتبِه:

-خالد بك.. هل علمت بما حدثَ أمسِ في كنيسة العذراءِ...؟ وكيف أنَّ الفاعلَ تجمعت أشلاؤه مرةً أخرى...؟!

التفت إليه خالدٌ ثم اعتدل في جِلسَتِه وهتف باهتمامٍ بالغٍ مستفسراً:

- تجمعت أشلاؤه...؟! كيف ذلك...؟

- هذا ما تداولتهُ الصحفُ العربيةُ ووسائلُ الإعلام..

لم يُكمل كريمٌ حديثه حتى التقط خالدٌ الجرائدَ الموضوعةَ أمامه، وفتش داخلها بنهمٍ عن أخبار تلك الحادثة، فوقعت عيناه على صورةِ مُنفِّذِ العمليةِ وهو مُلقىً على الأرض كنائمٍ في وسطِ مخلَّفاتِ الحربِ العالمية الثانية، دقَّقَ النظرَ في الصورةِ وهو يرفع فنجانَ قهوتِه إلى فمِه، وسرعان ما سقط الفنجانُ من يده على صفحةِ الجريدة، فخضَّبتِ القهوةُ هذه الصفحة، وكأنها دماءُ الرجل التي لم تسِلْ قبلُ، لقد أخذه الذهولُ في جولةٍ ماضيةٍ، وتركه داخل شقةِ الملازمِ سعيد وقت مصرِعه، تحديداً عندما نزع الجاني اللثامَ عن وجهه:

-معقول...؟! إنه الشخصُ نفسُه..

تحدث خالدٌ مع نفسِه بذهولٍ وهو يمهكُ في السيرِ نحو الخارجِ فاصطدمَ بعم محمود، فسقط الرجلُ أرضاً من قوةِ الصدمة، ثم ارتكزَ على ذراعيه ونهض وهو يتابع بعينيه ركضَ خالد، حين اختفى من أمامه.. دخل الرجلُ إلى مكتبِه ورأى القهوةَ تُلطِّخ المكتبَ والجريدةَ، فنظف المكتبَ ثم خرج ليبحثَ عن جريدةٍ أخرى لنفس المصدرِ، ثم تصفح الصفحةَ الملطخة في السابقة، فعلم سببَ الذعرِ الذي كان فيه خالدٌ، فتنهَّدَ بحرقةٍ ووضع يدَه على قلبِه وغمغم بصوتٍ مسموع:

-وفأرٍ أرادَ الحياةَ لنفسِه فجعلَ من القطِّ حارسًا له...! وغزالٍ لسعته قسوةُ البرودةِ فنام في حضنِ أسدٍ جائع.

شق خالدٌ طريقه في اتِّجاه مبنى الأمن الوطني، وهو يتخلَّله شعورٌ أنه من قومِ موسى، وهذا الطريقُ الذي يسير فيه هو في الأساسِ باطنُ البحر..

في بعض الأحيان يُسيطر عليه شعورُ الغرق، ينقبض قلبُه وتضيق أنفاسُه وسرعان ما يعود فاتحاً صدره للحياة.. لقد قطع الكثيرَ منه.. ها هو الآن في نهايتِه وبين يديه أطرافُ خيوطِ المعضلة.

ترجَّل من سيارته ثم وقف أمام المبنى، وأخرج هاتفَه واتصل بأحدِهم، ثم انتظر لثوانٍ حتى جاء رجلٌ من داخل المبنى ضخم البنيان؛ فأشار له بالاقترابِ

ثم سار أمامه إلى أن وصلا إلى مكتبِ المدير، ودلف خالدٌ فاستقبله الرجلُ بحفاوةٍ بالغةٍ ثم هتف:

-خالد بك.. تفضل.. سعيد جداً بزيارتك..

ابتسم خالدٌ في وجهِه وردَّ بسعادةٍ:

-وأنا أيضاً سعيدٌ جدا لرؤيتِكَ..

ضغط الرجلُ على زرٍّ بجانبه فحضر جنديٌّ على الفور؛ فتحدث الرجلُ بتساؤل:

-خالد بك.. هل تناولتَ قهوتك الصباحيةَ أو أنكَ تودُّ مشاركتي فيها...؟

تحدث خالدٌ بأسى:

-للأسف.. شرِبتْها صورةُ الإرهابيِّ..

طلب الرجلُ من الجنديِّ أن يُحضرَ لهما فنجانين من القهوةِ وحين غادرَ الجنديُّ تساءل الرجل:

-قلتَ: "صورةُ الإرهابيِّ".. ماذا وراءَ جُملتِكَ هذي...؟

نظر إليه خالدٌ وأردف موضِّحاً:

-الإرهابيُّ الذي فجَّرَ نفسَه أمسِ هو نفسُه القاتلُ المجهولُ الذي نفَّذَ عمليةَ اغتيالِ الملازم سعيد الألفي..

اعتدل الرجلُ في جلسته وتابع حديثَ خالدٍ باهتمامٍ بالغٍ وتركيز، إلى أن وصل لنقطةِ أنَّ هناك شيئاً ما يربط بين الثلاثة:

-السجين جمال عز الدين، أو البديل لجمال عز الدين، وبين الجاسوس جون أدريالكونور، والإرهابي مجهول الهوية...

ضيَّقَ الرجلُ ما بين حاجبيه وتحدث بدهشةٍ متسائلاً:

-ما الشيءُ الذي يربط بينهم...؟

أكمل خالدٌ حديثه بإيضاحٍ:

-فلنبدأْ بالسجين.. سيادتك تأكدت بنفسِك أنَّ هذا الرجلَ مجهولُ الهوية، ولم نجد شيئاً يدلُّ على هويته..

قاطعه الرجلُ مُكْمِلاً حديثه: كما أنَّ الإرهابيَّ لم نعثر على دليلٍ واحدٍ لمعرفةِ هويته، لكنَّ الجاسوسَ أمريكيُّ الجنسيةِ، وهذا أمرٌ ينفي وجودَ صلةٍ بينهم..

تحدَّثَ خالدٌ بريبةٍ:

-بِتُّ أشكُّ أنَّ الجاسوسَ من أصلٍ أمريكيٍّ..

فَغفغَرَ الرجلُ فمَه وتحدث بذهولٍ:

-أوضِحْ يا خالدُ.. ماذا تقصد...؟

تحدث خالدٌ بثقةٍ:

-الجاسوسُ نبذته الأرضُ وكذلك السجينُ، أمَّا الإرهابيُّ فقد تجمعت أشلاؤه بعد تفتيتها، وأنا على يقينٍ أنَّ الأرضَ ستنبذه كما فعلت مع رفيقيه..

أخذ الرجل نفساً عميقا وزفرَه في عُجالةٍ وأنصت، ليتابعَ خالدٌ حديثه قائلاً باستفاضةٍ أكبر:

-هؤلاء الثلاثةُ ربما يكونون أبناءَ دولةٍ واحدةٍ أو منظمةٍ واحدةٍ، لكنها منظمةٌ عالميةٌ وخطيرةٌ لا تعلَمُ أجهزةَ المخابراتِ عنها شيئاً ولا حتى الإنتربول الدوليُّ ولا أستبعدُ أن يكونَ من ضمن أعضائها علماءُ عباقرةٌ استطاعوا اختراعَ جهازٍ ما يعجزُ الطبُّ أمامَه عند وقوعِ أحدِهم تحتِ مشارطِ أطبائِه، أو عقارٍ ما يبتلعونه؛ فترفضُ الأرضُ احتضانَ أجسادهم..

فأومأ الرجلُ برأسِه عدةّ مراتٍ وهتف:

-تحليلٌ منطقيٌّ يا خالد، وتصديقاً لمنطقك سأصدرُ قراراً بدفنِ جثة الإرهابيِّ لنرى هل ستنبذه الأرضُ أم لا، لكن إن حدث هذا فهل تظن أن الملفَّ المفقودَ إن عثرنا عليه فسنحل المعضلة...؟

أجاب خالد بثقةٍ بالغة:

-بالتأكيد سيادتك..

ارتسمت على ملامح الرجلِ ابتسامةٌ خفيفةٌ وأردف:

-أبشر يا خالد.. فقريباً سينتهي هذا الكابوس، نجحت خطة اختطافِنا لحازمٍ في كشف هوية من وراءه، وكذلك ساعدتنا الظروفُ بخطف منال صديقةِ أسماء...

علامات الدهشة اجتاحت ملامحَ خالدٍ وتساءل:

-منال.. لِمَ...؟!

ردَّ الرجلُ بطمأنينة:

-يبدو أنهم فقدوا الأملَ في حازمٍ فتحركوا هم بأنفسِهم وقاموا باختطافِ منال كوسيلةٍ للضغط على أسماءَ، وهذا في مصلحتِنا نحن، فكلُّهم بلا استثناءٍ تحت أعينِنا.. لا تقلق سيادة الوكيل ...

قريباً ستظهر الحقيقةُ واضحةً وكأنها الشمسُ، والغموضُ سيغمض عينيه للأبد، والشرُّ سيفقدُ أثرَه وهو مبصرٌ، يرمق بعينيه الحاقدتين الخيرَ وهو سابحٌ ليأخذَ أشكالاً هلاميةً ترسمُ للإنسانِ ما تبقَّى له من أملٍ في حياةٍ وأملٍ في سعادة..

*****

حلَّت نسماتُ المساءِ مداعبةً أحاسيسها، وأحضرت فنجاناً من القهوة؛ رائحتُها أنعشت أفكارَها الخاملة؛ فاحتضنت الفنجانَ بأناملِها كمن يحتضن يدَ محبوبة وذهبت لتجلسَ أمام الطاولةِ التي يعلوها الحاسوبُ.. فكَّرت كثيراً من أين ستبدأ، فكرت مليَّاً ثم فتحت حاسوبَها كأنها تفتحُ بوابةَ العالم..

قررت أن تبدأَ بالبحثِ عن الحالاتِ المشابهة التي ظهرت مؤخراً، بحثت كثيراً فوجدت الحالاتِ نفسَها في كثيرٍ من أنحاء العالم؛ وجدت أبحاثاً لأطباءَ أوربيين ومن بينهم طبيبٌ يُدعى "دانيال" بَشَّ وجهُها وحمِدَتْ ربَّها حين رأت وسيلةَ تواصلٍ معه، دفعها شغفُها إلى أن تنسخَ بريدَه الإلكترونيَّ ومن ثمَّ تواصلت معه:

- مرحبا دكتور دنيال.. أنا الطبيبةُ الشرعيةُ "ريم سعد" أراسلك بخصوص تلك الحالاتِ التي تقومُ بأبحاث عنها الآن، وسبق وقد أجريت كثيراً من الأبحاث هنا في مصر على ثلاثِ حالاتٍ، ولا زلنا في صدد البحث عن ماهيتِها، وأريد التواصلَ معك لتبادلِ المعلوماتِ حولَ هذه المعضلة..

- انتظرتُ قرابةَ الربعِ ساعةٍ ولم يأتها جوابٌ، تابعت البحثَ عبرَ وسائل التواصل الاجتماعيِّ حتى جاءها ردُّ الطبيبِ الأوربيِّ، فتحت الرسالة بلهفةٍ:

- نحن في صددِ مشروعٍ علميٍّ كبيرٍ عبارةٍ عن متحفٍ علميٍّ يضمُّ جميعَ الجثثَ من هذا النوع، وهذا المتحفُ سيكونُ مركزَ أبحاثٍ علميَّاً وسيُشرفُ عليه أفضلُ الأطباءِ في العالم، وسيُقام مؤتمر عما قريبٍ لمناقشة هذا الأمر عالمياً..

ريم كانت تقرأُ رسائلَه بكلِّ شغفٍ واهتمام، كلامُه أخذها لعالمٍ من الغموض، مليءٍ بالأفكارِ والتساؤلاتِ التي أثقلت عقلها، أرسلت إليه بلهفة بالغة:

- هل يمكنني حضورُ هذا المؤتمرِ العلميِّ، خصوصاً أنني كنتُ من الأطباء الذين أجرَوا عدةَ فحوصاتٍ على الجاسوسِ الأمريكيِّ الذي أُعدِم في مصر...؟

جوابه جاء سريعاً:

-بالطبع يا سيدتي.. سوف تصلُكم دعواتُ الحضورِ بمجردِ تحديدِ موعدِ المؤتمر؛ فنحن نحرص على حضورِ كلِّ طبيبٍ أشرف على حالة ...

وبينما هي منغمسةٌ في الحديث معه، أتتها لفحةٌ من الذاكرةِ على غيرِ موعدٍ، تذكرت سوزان حين أعطتها ذاكرةً صغيرةً أثناء تنظيفهما الردهةَ، أنهت الحديثَ مع الرجلِ وهرولت نحو غرفتِها، وضعت أصبعها في فمِها ودارت ببصرِها في الغرفةِ تبحث عن "البيجامةَ" التي كانت ترتديها آنذاك، وحينَ رأتها معلقةً على الشماعة هرولت نحوها ووضعت يدها في جيبِها وأخرجت الذاكرةَ، ثم عادت إلى جهازها.. نبضاتُ قلبها تسارعت.. إحساسُها كان يخبرها أنَّ هناك أمراً غير مريحٍ في هذه الحافظة، أمرٌ خطيرٌ وكبيرٌ محفوظٌ بحجمها

الصغير.. ارتجفت يدُها بعضَ الشيءِ ولكنَّ فضولَها تغلَّبَ عليها وأوصلتها في الحاسوب.

اتسعت عيناها في صدمةٍ جعلت من قلبها شظايا ناريةٍ مستعرةٍ، صرخت بهستيرية:

- ليلى في غرفةِ نومٍ مع رجلٍ مجردةً من أيِّ لباسٍ...؟!

- لاااااااااا.. كيف وصلت لهذا الانحلال...؟

فجأةً تشوشت الشاشةُ لخمسِ دقائق، وكأنَّ البثَّ انتقل إلى قلبِ ريم.. الرذيلةُ تُمارسُ داخلها رغماً عنها، تلطِّخُ أرضها الطاهرةَ بالعار.. شنارٌ لحق بها مرتين جعلها تتمنى الموت.

عاد الإرسال مجدداً، ظهر خالدٌ جالساً على مقعد ما في أحدِ المكاتب مطأطأ الرأسِ وعن شماله تقف ليلى ملتفةً بملاءة سرير.. ثوانٍ وتصدَّرَ الشاشةَ ظهرُ رجلٍ يربتُ كتف خالدٍ وهما يتحركان نحو الخارج، ثم عادت الصورةُ إلى ليلى التي نزعت عنها الملاءة والتقطت فستاناً من الأرض ثم ارتدته.

بحورٌ من دموعٍ بللت ملابسها.. عيناها كادت أن تخرجَ من وجهها من شدة الصداع.. احتضنت رأسها بين كفَّتيها لعلَّ ضجيجَ الغضبِ يُصمُّ

دارت كالمجنونةِ في أرجاء الغرفة.. تمنت أن تكون في كابوس، تمنت لو أنَّ الأرضَ تنشقُّ لتبتلعها:

-يا ويلي.. كيف كان يراني خالد...؟ وكيف كنت أعامله بهذه الوقاحة...؟

لم تحتمل أكثر، حملتها أفكارُها وغضبُها مع قدميها إلى منزلِ ليلى، وطرقتِ البابَ كموجةِ بحر غاضبةٍ.. فتحت ليلى، فثار بركانُ ريم الخامدُ منذ سنين في صدرِها، ثار ليقذفَ حممها في مسامع ليلى:

- أنت من أيِّ شيءٍ خلقتِ...؟ أنت لست بشراً، أنتِ شيطانةٌ نَجِسَةٌ حقيرة، ما الذي جنيتيه من هذا العملِ القذر...؟ لماذا تريدين أن تُدمري حياتي مع خالدٍ بعهرِك، لقد أخذني عنوةً بعد معرفتِه لحقيقتِكِ، ليتأكدَّ من عذريتي وأنه أولُ رجلٍ يلمسُ جسدي.. ظنَّاً منه أني مثلُك، لكن من المستحيلِ

أن أكونَ عاهرةً.. فحذائي أشرفُ منك؛ فإرتِجَ فمُ ليلى وظلت تستمعُ بكلِّ برودٍ كأفعى مُرقَّطةٍ تجمعُ سُمَّها في فمِها لترشَّه على ضحيتها وحين صمتت الأولى، صفَّقت لها ثم أطلقت سُمَّها الزعاف:

- نعم يا ريم.. أنا عاهرةٌ مثلُ أمك.. فهل علمَ زوجُك العزيزُ بماضي أُمِّكِ القذرِ..؟

كلماتُها سقطت عليها كالخناجر مزقت قلبها مثل شجرةٍ طعنتها العواصف، جردتها من الحياة وجعلتها تقفُ عاريةً في وجهِ الحقيقةِ لا تجد لحافاً يسترُ عورةَ روحِها، فما كان عليها إلا أن تجرَّ ما تبقَّى من روحِها الجريحةِ وترحل، رغم أنَّ هناك من يُناديها، لكنَّ صوتَه لم يتعدَّ حدودَ فراشه.

*****

احتضنت رأسَها بين كفَّتيها وظلت تبكي.. اجتاحتها رغبةٌ عارمةٌ، رغبةٌ مُلحَّةٌ في " تقَيُّؤِ العالم " ازدادت هيجاناً، صرخت حدَّ انفلاتِ حبالَها الصوتية، رأسُها مزدحمةٌ كغابةٍ كثيفةِ الشجر مختلفٍ أحجامُه وأنواعُه، مظلمةٍ مدلهمةٍ، روحُها تائهةٌ داخلها، لا تملك خياراً إلا أن تجتازها لتنقذَ صديقتها التي يتناسلُ صوتُها بأنينٍ مكتومٍ، يتناسل بما لا يمكن إيقافُه..

آاااه.. خرجت منها بأنينٍ، ولكنَّها واقفةٌ صامدةٌ كشجرةٍ فقدت أحدَ أعضائها، آه أقصد كلَّ أغصانها.. إثر ارتطامِ شاحنةٍ ضخمةٍ بها.. كان السائقُ متعمداً أن يجعلَها تستلقي أمامه، ولازال يُصِرُّ على هذا، أدركتِ الآنَ حجمَ المأزقِ الذي وُضِعتْ فيه منذ غيابِ جمال.

آهُ ثانيةٌ خرجت مكتومةً من أعماقِها، مزَّقت قلبَ أمجدٍ الذي يجلس بجانبِها منذ ساعةٍ وأكثرَ يشاهدُ بكاءها بعجز، لا يستطيعُ فعلَ شيءٍ سوى الوجومِ والتأمُّلِ بعد أن رفضت عرضه بإخبارِ القيادةِ عن خطف منال..

*****

آهُ ثالثةٌ لمنال تلك التي تجلسُ الآن في غرفةٍ تفوح منها رائحةُ الموتِ حدَّ التعفن، تجلس وحيدةً مكبلةَ الأيدي ممزقةَ الثياب منطفئةَ الملامحِ مثل حبةٍ من تينٍ يابسةٍ، تنتظر الخلاصَ من هذه الدنيا القذرةِ، متسائلةً عن سرِّ هذا الظلمِ العظيمِ الذي وقعَ على عاتقِها، تسأل نفسَها بشغفٍ:

- ما الذنبُ الذي اقترفته ليحدثَ لي كلُّ هذا...؟

ثم يظهر أمام عينيها شبحُ سؤالٍ بلسانٍ طويلٍ وقدمين، يستفزُّ صمودُها ويحركُ خلايا مخِّها النائمةَ ليشكِّكَ في حبِّ أسماء لها:

-هل ستفعل أسماءُ شيئاً من أجلِكِ، أم أنها ستعتبرُكِ عظْمَةً اشتهتها الكلابُ الضالةُ التي لهثت خلفَ جمالٍ...؟

خَطَّ اليأسُ أثرَه على جسدِها بجانبِ جراحِها حتى خارت همَّتُها وأسلمت رأسَها للجدارِ مغمضةَ العينين ...

*****

آهُ رابعةٌ خرجت بغيظٍ من فمِ حازمٍ إثر إلقائه من أعلى شاحنةٍ كانت تمرُّ بطريقٍ ترابيٍّ، نطقها بغضبٍ وأنين، تحاملَ على جسدِه ونهضَ.. الظلامُ حوله لا يرى شيئاً سوى سوادٍ حالِكٍ وبعضِ النجومِ الحزينةِ التي ظهرت في السماءِ فقط لتعلنَ عن كآبتِها.. تحسس جيبَه.. لازال هاتفُه داخلَه.. مد يده وأخرجَه.. ضغط على زرِّ التشغيلِ ثمَّ وصلَ إلى رقمِ أسماء.. واصل الضغطَّ.. وضع الهاتفَ على أذنه.. جاءه الردُّ سريعاً:

-حازم بك....

قاطعها بتهكُّمٍ ممزوجٍ بكلماتٍ نابيةٍ:

-لا حازم بك ولا زفت يا بنت العاهرة....

صاحت غاضبةً:

-لا تسبَّ أمي.. سأعطيك الملفَّ شريطةَ أن أرى منالَ وجمال..

توقَّفَ عن الكلامِ لوهلةٍ ثم أجابها بذكاءٍ:

-حسناً.. لكِ هذا، انتظري مني مكالمةً بعد منتصفِ الليلِ، وحذارِ من التلاعبِ معي ...

أغلقَ الهاتفَ معها واتَّصل بأحدِ رجالِه، ثم أرسلَ إليه موقعه وانتظر أن يحضرَ بسيارته ليعودَ لبيته.

في حِينٍ أنَّ أسماءَ حينَ أنهت مكالمتَها مع حازمٍ، هبطت على مقعدِها وعادت ثانيةً تحتضنُ رأسَها بين كفَّتيها، فسألها أمجدُ:

-هل حقاً ستُسلِّمين إليه الملفَّ...؟

رفعت وجهَها إليه ثم أطرقت رأسَها سريعاً، أدركَ عجزَه حينها وخرجَ من منزلها، وأخرج هاتفه واتصلَ بالمقدمِ حسام:

-الهاتفُ الذي طلبته غير متاحٍ حالياً..

أخذ نفَساً عميقاً ونفخَه بِغلٍّ ثم اتَّصلَ على وكيلِ النائب العامِّ خالدٍ الشناوي، جاءه نفسُ الجواب وكأنَّ هذا اليوم عطلةٌ رسميةٌ للهواتف المحمولة:

-ما العمل يا أمجدُ...؟ هل ستتركها تلقي بنفسها إلى التهلكة، أم ستذهب إلى منزلِ خالدٍ لتخبره بما سمعت، أم ستظل هنا تراقبُها حتى تخرجَ وتتبع أثرها...؟

*****

عاد خالدٌ إلى منزلِه وحين فتح البابَ وقعت عيناه على ورقةٍ معلقةٍ ببابِ غرفةِ ريم، فهرول نحوها وانتزعَها وبدأ في قراءة محتواها:

-ليتك تدرك يا نبضَ القلبِ أنَّ تصرفاتي معك ليست عن عبثٍ.. يكادُ الشوقُ يقتلني.. يُمزِّقُ شغافَ القلبِ.. أغالبه فيك ولكنَّ القلبَ لا يحتملُ، فيجعل الأعينَ تفيضُ بالدموعِ.. لا أتمالك نفسي.. عقلي دائماً يغلبُ صبري وبات الشوقُ يُضنيني يا خالدَ الروح؛ فشوقُ يعقوبَ حلَّ بحنايا الفؤادِ ولكنَّ

صبره لم يحلُلْ معه فأنَّى السبيلُ إليكَ...؟! ليت لقلبي لساناً ليخبرَك هو عن حالِه... أعلم أن تصرفاتي لا تعجبُك.. لكنَّ عقلي هو الذي يتصرَّفُ وليس قلبي... فلا تلمني فيما مضى، وحاسبني على ما هو آتٍ لأنَّ قلبي الآنَ هو من يتحدثُ وليس لساني...! يشهد اللهُ أنَّ راحتَك تهمُّني أكثرَ من راحتي.. ويشهد اللهُ: إني أخجل من نفسي عندما أُدافعُكَ كي لا تقتربَ مني... لكنْ هل تعلمُ أن عقلي الذي تمرَّدَ على القلبِ والجسدِ تركني وذهبَ يبحثُ عن حضنك.. كطفلٍ يتيمٍ فقَدَ والدَه والظروفُ أبعدته عن أُمِّه ووضعت بينهما جبالاً ووديااناً، أفقدته صوابَه وجعلته يهيمُ كمجنونٍ بصحاري الحنينِ يبحث عن زهرةٍ تحمل نفسَ رائحةِ أُمِّه..

خالدَ الروحِ أُحبك...

حين تقرأُ كلماتي هذه افتح البابَ وادخل، وستجدُ أمامك لافتةً كبيرةً، أنا خلفها دون رداء..

عندما قرأ آخر جملةٍ، فتح الباب بلهفةٍ، رقص قلبُه سعادة حين قرأت عيناه كلمةَ -أحبك- تلك الكلمة التي كُتِبتْ بأحمرِ شفاهٍ فاقعِ اللونِ في منتصف اللافتة، عدا سريعاً نحوها وما إن انتزعها حتى رأى خلفها مقعدين، وقبل أن يبحث عن ريم بعينيه، أحس بجسدٍ يحتضنُه من الخلف ويقولُ بحنانٍ بالغ:

-خالد.. أعشقك..

التفت إليها وضمها إليه، وتاه في عينيها وغرقت هي في عينيه، فمال برأسِه محركاً شفتيه نحوها فمالت هي الأخرى، واقتربت الشفتان وكادتا تلتصقانِ، لكنَّ صوتَ جرسِ البابِ كان حائلاً بينهما، نفخَ خالدٌ في تذمُّرٍ ورفع ذراعيه عالياً وهوى بهما على فخذيه بينما ريم ضحكت بهستيريةٍ وألقت بجسدها على السرير.. تحرك خالدٌ نحو الباب، ففتحه والغضبُ يسيطرُ على ملامِحه، رأى أمامَه الدكتور أمجد بوجهٍ عابسٍ والذي قال بلهاث:

-خالد بك.. آسفٌ على الإزعاج، ولكنَّ أمراً شديدَ الخطورةِ هو ما دفعني إلى المجيءِ على غيرِ موعدٍ...! وكنتُ قد حاولتُ الاتصالَ بالمقدمِ حسام لكنني لم أستطع الوصولَ إليه وكذلك أنت..

تحدَّث خالدٌ بلهفةٍ:

- ماذا حدث يا دكتور.. تكلَّم

- أسماء سوفُ تُسلِّمُ الملفَّ لحازمٍ لتنقذَ منال..

ففَغَرَ خالدٌ فمَه في دهشةٍ وتساءل:

-هل وجدته...؟

جاءه الردُّ سريعاً:

-أظنُّ أنه كانَ بحوزتِها منذ البداية..

أخرج خالدٌ هاتفَه من جيبه ثم ضغطَ على زرِّ التشغيلِ ومن ثَمَّ اتصل على المدير، ولمَّا لم يُجبه وضع الهاتفَ في جيبِه وتحدث بعجالة:

-هيا بنا يا دكتور أمجد.. لابد أن نذهبَ إلى الإدارةِ الآن..

ما إن ركبَ الاثنانِ السيارةَ وانطلقا بها حتى وقفت سيارةٌ أخرى أمامَ منزل خالدٍ وترجَّل منها حازم، صعد الدرجاتِ الأولى ودقَّ جرسَ الباب، وانتظر لثوانٍ حتى جاءه الردُّ من الداخل:

-من...؟

أجابها على الفور:

-أنا المقدمُ حازم.. أعتذرُ عن إزعاجك دكتور ريم، ولكنَّ الأمرَ جِدٌّ خطيرٌ، لن آخذ من وقتِك سوى خمسِ دقائق فقط...

بصوتٍ مرتفعٍ أجابت:

-لحظاتٍ يا حازم بك...

فتحت البابَ بعد أن ارتدت ملابسَها وزيَّنت وجهَها بحجابها، ثم أشارت له بالدخول، فدلف إلى الصالون، ثم أخرج ورقةً من جيبه وأعطاها لريمَ دون أن يجلسَ، أخذتها ريم منه ونظرت فيها ثم تحدثت بعدمِ فهم:

-ما هذا...؟

رمقها بنظرةٍ خبيثةٍ وأردف بحقدٍ:

-هذه حِوالةٌ بنكيةٍ تُثبتُ أنَّ زوجك العزيزَ مرتشٍ، لقد حولتُ لحسابه البنكيِّ ثلاثةَ ملايين من الدولارات مقابلَ أن يستخرجَ لي تصريحاً لدفن السجين الذي حاول الهرب.....

كتمت ريمُ دموعَها داخلها، ثم طوتِ الورقةَ في قبضتها وقذفتها في وجهِ حازمٍ قائلةً بتهكُّمٍ:

-اخرج من هنا الآن وإلا....

قهقه حازمٌ بهستيريةٍ، ثم تحرك نحو الخارج وهو يقول بمكرٍ:

-لا داعيَ يا دكتور.. سأخرج.. أبلغي سلامي لِـ.....

أكمليها إن أردتِ..

ما إن خرج حازمٌ حتى انهارت ريم وبدأت تصرخُ بجنونٍ وتضربُ رأسها في الحائط:

-لماذا يا خالد.. لماذا...؟

*****

# الفصل الحادي والعشرون

وصل خالدٌ برفقةِ أمجدَ إلى مبنى القيادة، وقبل أن يترجَّلَ من سيارته لمح المديرَ وخلفه فرقةٌ كاملةٌ من رجال العمليات الخاصة، وقبل أن ينطقَ خالدٌ سبقه القائدُ بالحديث:

-علمنا بما حدث ونحن جاهزون وليس لدينا وقتٌ للكلام، فقد حان وقتُ العملِ اتْبعنا يا خالد..

وفي هذه الأثناءِ خرجت أسماءُ من منزِلها حاملةً معها الملف، صعدَ حازمٌ أيضا سيارته وانطلق بها؛ لقد دقت ساعةُ الصفر، جميعهم ينطلقون في طريقٍ واحدٍ، منهم الظاهرُ ومنهم الخفيُّ لكنَّ هدفَ الجميعِ أيضاً واحدٌ..

وصل حازمٌ إلى هناك.. مدينةِ الصامتين، ترجل من سيارته ووقف في الظلام بين القبور ينتظر أسماءَ بفارغِ صبرِه النافد.

هلَّت أسماءُ من بعيد.. منظرُ القبورِ في الظلامِ الحالكِ جعل من قلبها كتلةَ خوفٍ متجمداً؛ خطوتُها ترتجف من موضِعها.. وقفت، تسمرت، الرعبُ يضرب جدارَ قلبها، عيناها تدور في المكانِ تبحثُ عن بصيصِ ضوءٍ تسير في اتجاهه، أنفُها يشدُّ الهواءَ بداخله بقوةٍ ليس لاستنشاقِه وإنما تأملُ أن تداعبَ روحَها رائحةَ جمال.. يخيَّلُ لها أنه ومنالُ هناك مقيدانِ بجوارِ مقبرةٍ ما يستغيثان، يستحثَّانِها على العَدْوِ نحوهما لإنقاذهما.. قدماها تدفعُها للمسير، قلبُها يصرخُ في جوارحها -أسرعي.. أسرعي- أكملت طريقها المعبَّدةِ بالمخاطر، كلَّما أرادَ الظلامُ عرقلةَ مسيرتها استحضرت ابتسامةَ حبيبها لتنيرَ لها عتمةَ دربِها، مضت متجاهلةً مخاوفها..

حازمٌ يراقبُها من بعيدٍ بعينٍ تلمع في الظلام كعينِ الذئابِ؛ اقتربت منه وتسمَّرت بمكانِها، وضعت يديها خلف ظهرِها قابضة على الملفِّ كمن يقبضُ على عدَّادِ عمرِه.. دنا حازمٌ منها، وبنبرةٍ حادةٍ خاطبها:

- الملفَّ..

أجابته:

-لكن.. أين منالُ وجمالٌ...؟

قهقه بسخريةٍ، أدركتْ حينها المصيدةَ التي وقعت فيها بطيبةِ قلبِها وبساطةِ تفكيرِها فلم يكن جُلِّ همِّها إلَّا أن تنقذَ أغلى شخصين في حياتها.

تراجعت بخطواتها فهرول هو نحوها حتى أمسك يديها وحاول انتزاع الملفِّ منها، فقاومت فدفعها فسقطت أرضاً فانقضَّ عليها وسلبه منها، ثم نهض عنها وتراجع للخلف بضعَ خطواتٍ وتركها طريحةَ الأرضِ تنظر إليه بحسرة، قهقه عالياً وتحدث بسخريةٍ وهو يشير إلى إحدى المقابر:

بما أنَّ الملفَّ أصبح بين يديَّ الآن أجيبك

أمَّا منالُ فأنا لا أعلمُ عنها شيئاً، وأمَّا حبيبُ قلبك جمال؛ فهو هنا عزيزتي.. لكن تحت الترابِ، والآن سأنفِّذُ وعدي وأجعلُكِ تلتقينه.. أخذ سلاحَه من جُعبتِه وشدَّ أجزاءه، وقبل أن يقولَ الرصاصُ كلمتَه الأخيرة، امتلأ المكانُ بالرجال المدجَّجين بالأسلحةِ وعلى رأسِهم رفعت القوصي:

-عظيم يا حازم.. كنتُ واثقاً أنك تستطيع العثورَ عليه.. أعطني الملفَّ..

هكذا تحدث رفعت القوصي وهو يمدُّ يده لطلبِ الملفِّ من حازم، تراجع حازمٌ خطوتين وصوَّب مسدَّسه تجاهَ رفعت وهتف بحدَّةٍ:

-رِفعت بك.. لن أعطيَك إياه قبل تصفيةِ حساباتِنا، حاولت قتلي أكثرَ من مرةٍ، واختطافي، ولكن هذه المرةَ ستكونُ الكلمةُ لي أنا وليست لك...! المقابرُ محاصرةٌ برجالي وإن لَّم أخرجْ من هنا بكاملِ عافيتي سيدكُّون المكانَ عليكم...

جاء الردُّ من بعيدٍ بصوتٍ جهوريٍّ:

-حقاً.. رجالُنا ينتشرون في كلِّ مكانٍ...! ولن يخرج أحدٌ منكم على قيدِ الحياة إن لَّم نحصل على الملف..

كان الصوتُ لأحدِ رجالِ الأميرِ والذي حاصرَ هو ورجالُه حازماً ورجالَ رفعت، وكأنهم جميعاً في حلبةٍ للمصارعة يلتفُّ بعضُهم حولَ بعضٍ، وحازمٌ يقف في المنتصفِ حاملاً في يده اليمنى سلاحَه وفي اليسرى أرواحَ الجميع، وأسماءُ ترقد على الأرض بجوارِه، تشاهد ما يحدث في ذهولٍ تامٍّ تودُّ أن تخرجَ طلقةٌ من سلاحِ أحدِهم في قلبِها لتلحقَ بجمال.

علتِ الأصواتُ فيما بينهم وكأنهم كلابٌ ضالةٌ تتشاجر على جيفةٍ قذرة، وحازمٌ لازال مُصرَّاً على الاحتفاظ بالملفِّ حتى نفِدَ صبرُ اللواء رفعت، وعلى حينِ غرةٍ من حازم أطلق لمسدسِه العنانَ فتسابقت طلقاتُه في الوصول والاستقرار داخل جسدِه، فهوى جسدُ حازمٍ أرضاً، وسقط معه قلبُ أسماء رعباً وهلعاً تنظر إليه بجزعٍ وتزيح جسدَها بعيداً عنه، داستها أقدامُ الرجالِ وهم يلتفُّون حول حازمٍ يتصارعون، كلٌّ منهم يريد الملفَّ.. اشتدت المعركةُ حتى وصلت لأوجِها، وسرعان ما تحولت المقابرُ لنجومٍ تسيرُ على الأرضِ برفقةِ أسودٍ قلوبُهم خُلقت من جسارةٍ معجونةٍ بماءِ التضحيةِ والبسالة، أرواحُهم لا تهاب الموتَ، وأجسادُهم صلدةٌ لا تُكسر، ينتشرون في المكان مرتدين زِيَّاً موحداً، تُغطي ملامحَهم الخشنةَ أقنعةٌ سوداءُ، ينقضون على الرجال برشاقةٍ كالنسور رغم العتادِ وما يحملونَ من جعبتاهم الثقيلةِ الموضوعةِ فوق ظهورِهم؛ وفي غضونِ دقائقَ تم القبضُ على الجميع وأخذ القائدُ الملفَّ، نظر إليه بسعادةٍ بالغةٍ ثم دار بعينيه يبحث عن خالدٍ، فرآه وأمجدَ يجلسان بجوارِ أسماء يشدَّان من أزرها ويحاولان مساعدتها في النهوض، فتحرك نحوهم، فسمعها وهي تبكي بحرقةٍ:

-أرجوكم.. منال..

ربتَ على كتفِها وأردف مطمئناً لها:

-لا تقلقي.. لقد توجهت فرقةٌ أخرى إلى هناك وتمُّ تحريرها..

قال جملته ثم وجَّه حديثه لخالدٍ وهو يشيرُ إليه بالملفِّ:

-خالد بك.. هيا بنا لازالت المهمةُ قائمةً..

نهض خالدٌ عن الأرضِ، ثم أخرج مفتاحَ سيارتِه وأعطاه لأمجدَ قائلاً:

-خذ أسماءَ بسيارتي إلى منزلها..

وساق رجالُ العملياتِ الخاصة المجرمين أمامهم حتى عرباتِهم ثم حشروهم داخلَها، كجرذانٍ تم حشرها في مصيدةٍ، فركب خالدٌ بجوارِ المدير في السيارةِ وانطلقا بها إلى مقرِّ القيادة العام.

السعادة التي كانت تظهر على ملامحِهما جعلتهما يصلان إلى المقرِّ في لمحِ البصر، فهرول الاثنان إلى المكتبِ ولحق بهما بعضُ القيادات، وفتح المديرُ الملفَّ فاتسعت مقلتاه في صدمةٍ وهتف بذهولٍ:

-معقول ...

ضاق صدرُ الجميعِ وهتفوا بصوتٍ واحد:

-ما الأمر سيادتك...؟

غاب صوتُه لبرهةٍ فاندفعَ خالدٌ بالكلام قائلاً:

-هل ما قلته صحيحاً...؟

هل هناك عقارٌ ما...؟! وإلى أيِّ منظمةٍ ينتمون...؟!

بَشَّ الرجلُ وجهُه بمرارةٍ وأجاب:

-الأمر عاديٌّ جداً سيادةَ الوكيل.. صفقاتُ سلاحٍ وغسيلُ أموالٍ، ولكن ما يُذهلني حقاً أسماءُ الرجالِ المتورطين هنا.. إنهم قامةٌ ولهم شأنٌ في الدولة، الأمر يحتاجُ لقرارٍ سياديٍّ..

أخرج المديرُ هاتفه وتحرك به بعيداً فالتقط خالدٌ الملفَّ وحدق فيه برعبٍ كمن يحدقُ في قعرِ جهنَّمَ، وهتف في نفسه بذهول:

-اللواءُ فاروق الجيزاوي...؟!

ورجلُ الأعمالِ الشهيرِ عبدالله شهاب...؟!

أنهَى المديرُ مكالمتَه، ثم أمر كلَّ واحدٍ منهم أن يأخذَ فرقةً ويتجهون إلى منازلِ المذكورةِ أسماؤهم في هذا الملفِّ للقبضِ عليهم في الحال معَ عدمِ معاملتهم بلينٍ أو شفقةٍ ثم وجَّه أمره للمقدم حسام:

-حسام.. جهِّزْ فرقتَك ولا تنسَ اصطحابَ الكلابِ البوليسيةِ؛ ربما نحتاجها وأنا وخالد بك معك..

مرت ساعةُ وكانت العرباتُ المصفحة تلتفُّ حول فيلا رجلِ الأعمالِ الشهير عبد الله شهاب، واقتحمت إحداهنَّ البابَ وسارت البقيةُ خلفها، فترجل الرجالُ من العرباتِ وانتشروا في المكان، وكذلك الكلابُ البوليسية، فأصابَ الجميعَ الإحباطُ حين رأوا الفيلا خاويةً على عروشِها، لا يوجد بها سوى بعضٍ من الأحصنةٍ فقط، وعادوا إلى العرباتِ مطأطئين الرؤوسَ، كذلك استحوذ الغضبُ على وجهِ المديرِ ومن ثّمَّ خالدٍ، وهمُّوا بالمغادرة مُلوِّحين بعلاماتِ الهزيمة على وجوهِهم؛ فصعد معظمُ الرجالِ العربات، إلّا أنَّ أحدَ الكلابِ نبحَ بشكلٍ هستيريٍّ وجرَّ الرجلَ الممسكَ به خلفه حتى وصلَ إلى كومةٍ من الحطبِ اليابس موضوعةً بجانبِ البابِ الكبير للفيلا، وعاد الرجالُ أدراجَهم وأمرهم القائدُ بإزالةِ الحطب؛ فلمعت أعينُهم بابتسامةِ النصرِ حين رأَوا باباً صغيراً في الأرضِ فتحه المديرُ بنفسِه ودخل برفقةِ رجالِه، مدينةٌ كاملةٌ أسفل الفيلا، وبعد معركةٍ داميةٍ استطاعوا القبضَ على الجميعِ، ومن ضِمنِهم رجلُ الأعمالِ الشهيرِ عبد الله شهاب ذلك الرجلُ المُلقَّبُ بِـ "سفيان" وكذلك زينبُ وعدَّةُ نسوةٍ معها، فكبَّلوهم بالسلاسلِ وأخرجوهم مذؤومين مدحورين من وكرِهم، وكذلك استطاعَ ذلك الكلبُ الذي دلَّهم على المكانِ أن يعثرَ على ملابسِ أحمدَ الذي قام بتنفيذِ العمليةِ الإرهابيةِ، فلقد وضعَ في أيدي الأمنِ دليلَ الإدانةِ وهذه الملابسُ هي من جعلته يكتشفُ المكانَ فعند وقوعِ التفجيرِ كان هذا الكلبُ برفقةِ رجالِ الأمن ولازالت رائحةُ الجاني عالقةً في أنفه ....

*****

-فلنعلنِ الحدادَ على أطباء هذا العصر...!

جملةٌ مشحونةٌ بوابلٍ من الغضب انطلقت كالرصاصة من فم دكتور سامي الديب أحدِ أشهر أطباء الجراحة في الوطن العربي، بينما كان يتناول الإفطارَ برفقة ابنته الوحيدةِ "فريدة" التي رفعت وجهها وأخذت تنظر إليه بتساؤلٍ، فشَجع بضيق ثم أردف:

-حدثتك من قبلُ عن تلك الحالاتِ الغربية التي ظهرت مؤخراً في مصر وأثارت الرأيَ العام.. أليس كذلك...؟

أومأت برأسها بتأكيدٍ ثم ردت:

-حسنا.. وأنا أتابع أخبارهم عبرَ مواقعِ التواصلِ الاجتماعيِّ.. ولكن ما الجديد إذاً...؟!

تحدث سريعاً وبانفعال بات واضحاً على ملامحِه ونبرةِ صوتِه وهو يعطيها حاسوبه:

-انظري.. هذه الأخبارُ تمثِّلُ كارثةً كبرى، لم يعد الأمر محصوراً في الحالات الثلاثة فقط، لقد انتشرت مثلُ هذه الكارثةِ في العالم أجمع، وحسبَ التقاريرِ العالمية، لا تكاد تخلو دولةٌ من حالةٍ واحدةٍ على الأقل، مجموعةٌ من الأشخاص المجهولين يتحولون بين ليلة وضحاها إلى معضلة حقيقيةٍ يعجز أمامها الطبُّ والعلم بجميع أنواعِه وحتى جميعُ الأجهزةِ الأمنية في الدول المتقدمة...

غاب صوته لثوانٍ ثم رجعَ ساخراً:

لقد أصبحت هذه الفاجعةُ بوابةً لنقلِ العالم من عصرِ التقدم إلى عصرِ الخرافات...!

كانت "فريدة" تتابع حديثَ والدِها بتركيزٍ وإنصاتٍ ثم أخذت تُمررُ أصابعَها على الشاشة وتنتقل بعينيها بين عناوين الأخبارِ التي تصدَّرت الصحافةَ العالمية

"لعنة هتلر تلحق بألمانيا وتصيبُ الجميع بالرعب"

"مناقشات حادة بين الهند وباكستان بعد ظهور جثةٍ غريبةِ الأطوار، وكلٌّ منهما يتهم الأخرَ بأنه سببُ اللعنة"

"تركيا تتهمُ إيرانَ بصناعةٍ مُفعِّلٍ نوويٍّ أصاب العالم بوباءٍ من نوع خاص"

"فتوى شيعيةٌ تفيد أنَّ تلك الحالاتِ لرجالٍ تعلَّقت قلوبهم بالمخلص الموعود، ولن تقبلَ الأرضُ جثمانهم حتى يباركهم، إنها علامة ظهوره، أبشروا"

رفعت "فريدة" عينيها بذهولٍ وهي تُعطي الجهاز لوالدِها وتقول بغضبٍ:

لم تعد المسألةُ متعلقةً بأمرٍ خارقٍ ولا عجزِ الطبِّ فقط، لقد أشعلت الأزمات السياسية بين كبرى الدول...

أبي.. هل تعتقد أنَّ هذه الجثثَ أتت من كوكبٍ آخر من الأساس...؟!

نظر إليها والدُها وهو شاردٌ، ثم أخذ يحدق بعينيه في السماء ويردد بقلبه:

-السرُّ عندك يا صاحبَ الأسرار...

*****

بعد الانتصار الذي حققه في تلك الليلة تمكَّن التعبُ والإرهاق من جسدِه، لكنَّ شوقه لريم وتخيُّلَه لها وهي بين أحضانِه أعطياه دفعة من النشاط لينطلقَ بسرعةِ البرق بسيارته إليها، قلبُه لم يُطقِ الصبرَ أكثر وعقلُه هائمٌ بها...!

وأخيراً انتهى الطريق.. دلف إلى المنزلِ الذي يسودُه الهدوءُ.. توجَّه نحو غرفةِ النوم؛ فمن المؤكد أنها تنتظره بكاملِ أناقتها وجمالِها الفتَّان، فضحك ثغرُ قلبِه ورقص الفرحُ في واحةِ عقله، وفتح الباب برفق لِيُديرَ عينيه في الغرفة؛ فلا شيءَ يمتُّ للحياة فيها بصلة، فاقترب من السرير، فوقعت عيناه على ورقةٍ بجانبِه، فابتسم في نفسِه هامساً:

-أعشق جنونَك.. تُرَى.. أين تختبئين هذه المرة...؟

حدق في الورقة فانحرفَ وجهُه عن مساره من الضحك إذ قرأ:

-إليك يا من خان العهد مع وطنه وغدر به، خنتني وخنت ظني بك، أُهنئك؛ فقد لعبت دورك ببراعة الشياطين؛ ليتني لم ألتق بك يوماً وليت قلبي دفنَ في التربِ قبل أن يقعَ في حبك.. فأنت لا تستحقُّ هذا الحبَّ؛

وليس لديَّ الكثيرُ لأقوله فقط.. أريد الخلاص منك.. فمن خان العهدَ مع وطنه حتماً سيخون عهدَه معي.

كلماتها أثقلته، بل وشلَّت أطرافَه، كأنها شريطٌ أسودُ التفَّ على شِغافِ قلبه، فأطلق العنانَ لألمه مُدوِّياً بصرخةٍ هزت أركانَ عقله كأنه طُعِنَ بخنجرٍ مسموم وسط فؤاده، دار في الغرفة كالمصروع، ثم وقف وحدق في الأرض وهتف بألم:

حتى أنتِ أيتها الأرضُ صامتة، لا أحد يقتلع مسامير التعب من قدمي.. لا أحد بجواري يسألُني عن ألمِ التيه، عن منظري وهو يُحطِّمُ بهراوته أضلاعي..

كوَّر الورقة بقبضته وألقى بها أرضاً، فسقطت بجانب ورقةٍ صغيرةٍ، فانحنى سريعاً والتقطها ليقرأَ محتواها الذي كانَ ناتجه: أنَّ حازماً فعل فعلته قبلَ أن يلقَى مصرعه، تنهد بحرقةٍ ثم أخرج هاتفه واتَّصل بها، فنظرت في الهاتف وحين ظهر اسمه أمامها قذفت الهاتف أرضاً، وعلى إثر صوت ارتطامِه حضرت سوزان، ونظرت للهاتف المهشَّمِ ثم وجهت بصرها لريم؛ فلاحظت أنها لازالت بملابسها غارقةً في دموعها، محتضنةً أحزانها، فتنهدت بغضبٍ واقتربت منها:

- بالله عليك يا ريم كُفِّي عن هذا البكاءِ..

فأنت على حالتك هذه منذ البارحة..

اسمعيني جيدا، الدموع لن تنفعك في شيءٍ سوى تدمير قلبك، منذ عرفتُك وأنا أراكِ قويةً وجبارةً، لم أر ضعفك هذا من قبل..

من وسط دموعها الكثيفة ردت:

-قبل أن أعرفَ الحقيقةَ، كان قلبي يرقصُ تحت ثيابي، كنت أنتظره بكامل الشوق، لكن لم أكن أتوقعُ أن فرحي سيتحول لبيتِ عزاءٍ تحومُ حوله غربان التعاسة بهذه السرعة، أظنُّ أنني لا يمكنني العيشُ بعيداً عن نزعتي التشاؤمية.

استعارت سوزان وجهاً غاضباً ولساناً حاداً في حديثه وأردفت:

- سأتركك في جنونك وضعفك، فما عدت أطيق جدالاً دون فائدةٍ وسأذهب لحضورِ المؤتمر العلميِّ حول الجثثِ الحيَّةِ الميتةِ، بعد أن أُخبر الدكتور أنَّ ريم اعتذرت عن حضور المؤتمر لأنها غارقةٌ في دموعها تبكي على أطلال حزنها ولا تريد...

توقفت ريمُ عن البكاءِ وقاطعتها بتساؤل:

-هل جاءت الدعوات...؟

استدارت سوزان بجسدِها كي لا تراها ريم وهي تضحكُ ثم ردَّت بكيد:

-نعم جاءت، لكنني سأخبره برفضك..

صاحت ريم فيها بغضبٍ:

- لا.. توقفي.. سأذهب..

ضحكت سوزان ثم أدارت جسدَها نحوها واقتربت منها واحتضنتها قائلةً:

-هذه هي ريمُ التي أعرفُها جيداً، ثم لابد من الحضورِ لنرى إن كنتِ سترين وجهَ أبيك في وجوه أبناء الأبالسة هؤلاء أم لا...؟

*****

أسوارٌ شاهقةٌ تجمَّع خلفها مئاتُ الحكاياتِ لكوميديا سوداء، أبواقٌ عاليةٌ تفضحُ مقدار الوجع في حلق صاحبها، "مصطفى" هو الوحيد من بينهم الذي نجا من لقب المجنيِّ عليه وأصبح هو الجاني...!

هنا في مشفى الأمراضِ النفسيةِ والعصبية يشوبُ البياضُ كلَّ شيءٍ مرئيٍّ حولك، لكن هناك بقعةٌ من السواد ولا شك تسكن في مكانٍ ما بعيدٍ عن

الأعين، في غرفةٍ مليئةٍ بالأسرَّةِ البيضاء وبعض الرجالِ الذين ذهبت عقولُهم على حينِ غفلةٍ منهم يجلس مصطفى متربِّعاً على أرضيةِ الغرفةِ يُحرِّكُ رأسه يميناً ويساراً، ويرفع ذراعيه للأعلى في حركةٍ بهلوانيةٍ، ثم يعبث بخصلات شعره الأشعثِ وفجأةً هبَّ واقفاً وأخذ يصفعُ كلَّ من مرَّ أمامه، فارتفعت الصرخاتُ الممزوجة بالضحكاتِ الهستيريةِ، وفي وسط كلِّ هذا الصخبِ تقف "سحر" ابنتُه برفقةِ الطبيب المعالج على بابِ الغرفةِ، لم يشعر بوجودهما أحدٌ، نظرا إلى بعضهما ثم انصرفا نحو مكتب الطبيب الذي جلس خلف مكتبِه الخشبيِّ وخلعَ نظارته ثم قال لسحر:

كما ترين.. رغم أن حالته لم تتحسن إلا أنها على الأقلِّ لم تتدهور أكثر من ذلك..

قاطعته هي بإصرار:

-أنا أريد أن آخذه معي من هنا.. لا حاجةَ لوجوده أكثر من ذلك

فردَّ عليها الطبيبُ في ذهول:

-ولكن كيف...؟! فحالته تُشكِّلُ خطراً كبيراً على نفسه وعلى من حوله، كما أنه يتناول أدويتَه بجرعاتٍ دقيقةٍ جداً وأيُّ خطأٍ صغيرٍ فيها سيُعرِّضُ حياتَه للخطر..

جاء ردُّها ضارباً بكلامِه عرض الحائط:

- أعتقد أنكم هنا لستم بحاجةٍ إليه فلماذا تُصرُّون على بقائه هكذا...!

أشعلَتْ جملتُها فوَّهةَ بركانِ الغضب بداخله، وقال محاولاً كبحَ جماحِ غضبه:

-نحن لسنا في حاجةٍ إليه ولكنَّه هو في أمسِّ الحاجةِ إلينا وهذا واجبُنا..

ابتسمت داخلها بسخريةٍ وهي تُحدِّثُ نفسَها:

-بل أنا أكثرُ حاجةٍ إليه وهو من فعلَ بي هذا، فعليه أن يتحمَّلَ نتيجةَ فعلته...!

انتقلت ببصرها إليه وقالت بتحدٍّ واضحٍ:

-دعك من هذه الشعاراتِ أيها الطبيبُ، أريد أنْ آخذه معي مهما كانت النتائج..

ردَّدَ بدهشةٍ ممزوجةٍ بالغضب:

-شعارات...؟

ثم تابع بحدةٍ:

-آنسة سحر.. من خلال متابعتي لحالة والدِك أرى أن هناك سراً لا يعرفه سواكما، فهل أطلعتِني عليه، ربما أستطيع علاجه...؟

انتفضت واقفةً بعد أن فرَّ الدمُ من وجهِها وهتفت بغضب:

-دكتور.. لن أسمحَ لك باتهامي هكذا..

ضحك الطبيبُ بسخريةٍ وهو ينظر إليها بتفحُّصٍ:

-أيَّ اتِّهامٍ آنسة...! أقول إنَّ هناك سراً ما، وتأكَّدي أنني سأعرفه ...

التقت عيناها في عينيه فأطلقت زفرةً غاضبةً، ثم ابتسامةً صفراءَ رسمتها على ملامحِها قبل أن تغادرَ وكأنها تقولُ له بتحدٍّ وإصرار:

-سأفعل ما أريد رغماً عنك ...

في غضونِ ساعةٍ عادت سحرُ ومعها ورقةٌ مختومةٌ مفادُها أن تأخذ أبيها معها حيث تريد..

*****

# الفصل الثاني والعشرون

وصلت ريم وصديقتُها إلى المطار تحملان في رأسيهما تساؤلاتٍ جمَّةٍ، تأملان في حلِّ معضلةِ العصر، تتوقانِ إلى كشف الحقيقة التي تخفيها الجثثُ في ثناياها، لا شيءَ يمكن أنْ يوقفَهما عن هدفِهما إلا القدَر.. دخلتا قاعةَ المطار، وبعد أن سمعتا أسماءهن ضِمنَ المسافرين عبر الرحلةِ رقمَ خمس وخمسين بعد المئة المتَّجهةِ إلى باريس، توجهتا إلى المُدرَّجِ، ثم صعدتا على متن الطائرة، وطلبت ريم آنذاك من سوزان أن تبادلَ المقاعد؛ فريم تُعاني من رُهابِ المرتفعات، ولسوءِ حظِّها كان مقعدها بجوارِ النافذة، والسبب راجعٌ لحلمٍ مخيفٍ يراودها منذ صغرِها، حلمٌ لطالما أفزعها من نومها، تنهض مرتعشةَ الجسد، كانت دائماً ترى نفسَها تُحلِّقُ في السماء عالياً على ظهر صقرٍ ضخمِ الجناحين؛ وما إن يرتفع بها لعنان السماء حتى تسقطَ أرضاً كما سقط أبوانا من الجنة بسبب تفاحةٍ ملعونة.

لم تعارض سوزان، وجلست كلٌّ منهما على مقعدها المخصص؛ تجولت المضيفات بين الركاب يُلقين التعليمات:

-على السادة الركاب وضعُ أحزمةِ الأمان.. الطائرةُ على وشك الإقلاع،

وتحركت رويداً رويداً عبر المدرج، إلى أن اخترقت غيوماً كالقطن، لتعلو فوقها وتطير بسلامٍ كرحلةِ نورسٍ فوق محيطٍ أزرق.. عينا ريمَ كانت قد غطَّت في النوم العميق، أما عينا سوزان فكانتا تتأمل السماءَ بهدوءٍ وسكينةٍ خوفاً منها أن تصدر صوتاً فتنزعج ريم.

وفي أحضان السماء وبعد ثلاثِ ساعاتٍ من التحليق أحسَّت سوزان باضطرابٍ في حركةِ الطائرة، فأحكمت حزامَ الأمانِ حولَها والتفتت لريم لتراقب حزامها دون أن تزعجها، وقبل مرورِ لحظاتٍ سمعت نداءَ الطاقمِ يحثُّ المسافرين على ارتداء ستراتِ النجاةِ وإحكامِ الأحزمةِ بالإضافةِ إلى سحبِ قناع الأكسجين.

تأكدت سوزان أن الأمرَ جللٌ وأنه عليها أن توقظَ ريم دون أن تبثَّ في قلبها الرعب، ولم تكد تفعل حتى سادت حالةٌ من الهرجِ والرعبِ بين المسافرين تزامناً مع الحركات المضطربةِ للطائرة التي زادت حدَّتُها، الشيء الذي أفزع ريم من نومِها، لتفتح عينيها برعبٍ كما كانت تفزع من حلمِها، ولكن هذه المرةَ تراه متجسِّداً أمامها وتحفظُ تفاصيله كلَّها، أخذت سوزان تُلْبِسُها السترةَ وتسحبُ القناع بعد أن أيقنت أنها غيرُ مستوعبةٍ لما يحدث.

الركاب جميعهم في حالةِ هلعٍ ورعبٍ، عيونُهم دامعةٌ و شفاهُهم تصرخ بالدعاء و الاستغاثة، كلٌّ بلغته كأنهم يُحشرون ليوم لحساب، قلوبُهم بلغت الحناجر، والصراخ عكَّرَ صفوَ السماء، و طاقمُ الطيران نسَوا أنفسَهم وهرعوا لتهدئة الركاب، المضيفاتُ يطُفْنَ بين الركابِ، و الطاقم يتحدثُ عبر المكبرات، بينما الطيارُ وباقي الطاقمُ في قُمرَةِ القيادةِ يراسلون مركزَ المراقبةِ في المطار، الوقت ليس لصالحهم حتى للتفكير، انقطع الإرسالُ، واختفت الطائرةُ عن برجِ المراقبة، والعاصفةُ الرمليةُ تحول دونَ وضوحِ الرؤية، لا خيارَ أمامهم سوى الهبوطِ الاضطراريِّ؛ هكذا فكَّرَ الطيار، وضع يده على مقبضِ معداتِ الطوارئِ، وصاح الطيَّارُ المساعدُ:

-سوف نموت هكذا.. أرجوك لا تفعل..

أجابه بإصرار:

-إن لَّم أفعلْ فسنحترقُ.. سنصبح كتلةً من جهنَّمَ تُحلِّقُ في الفضاء..

سحب المقبضَ ففتِحتْ أقفالُ مُعدَّاتِ الهبوطِ الطارئِ، وبدأ صراعَه مع القدرِ، ازدادت الأمور سوءاً، فالأرضُ تجذب الطائرة والرياحُ تؤرجِحُها يميناً ويساراً..

وأرواحُ البشر معلقةٌ بين السماءِ والأرض، أعصابُ الطيار بدأت بالاستسلام وعرقُه تصبَّبَ كشلَّال مياهٍ من شدة الإرهاقِ والرعب، ولكنَّ عزيمتَه تحول بينه وبين الاستسلامِ، الطائرةُ تهوي من السماء كصاروخٍ ينقذفُ نحو الأرض، المسافرون لازال صراخُهم يُصِمُّ الأذان ويمزِّقُ القلوبَ، يرونَ الموتَ أمامهم يتلاعبُ بأرواحِهم، يضرب قلوبَهم بقبضةٍ من حديدٍ، ويلفُّ حول أعناقهم مخالبَ من جحيم، كلمةٌ واحدةٌ خرجت من بين صراخِهم، ردَّدَها الجميعُ بكلِّ اللغات:

-يا رب..

كلمةٌ بثت الطمأنينةَ وشحنت روحَ القائد فيه وشدت من عزيمتِه، فانجرف بالطائرة يميناً ثم يساراً ثم ارتفع بها مرةً أخرى، وعاودَ الهبوط مجدداً، اقتربت الطائرة من الأرض، بقعةٌ صخريةٌ مستويةٌ قاسيةٌ تحيطُ بها الرمالُ من كلِّ صوب؛ العجلاتُ لم تفتح بعد، فأيقن الرُّبانُ أنه هالك، سيصطدم باطنُ الطائرةِ بالأرض الصلدة وستنفجر، طلب من الركابِ عبرَ مُكبِّرِ الصوتِ أن يحتضنوا رؤوسهم بأيديهم وينخفضوا بأجسادهم و يتمسكوا بمقاعدِهم، ولازالت ريم بين أحضانِ سوزان لا تكاد تفصلُ بين حُلمِها و ما تعيشه، نفذت سوزان تعليماتِ القائد دون أن تفلت ريم. وهبطت الطائرة على بطنِها واصطدم هيكلُها بالرمل بعد أنِ انحازَ بها الرُّبَّانُ بمهارةٍ يُحسدُ عليها في ظلِّ ظروفِه، صوتُ احتكاك جسدها كان مُروِّعاً كأنه قنبلةٌ انفجرت، الشررُ يتطاير من كلِّ جانب، والغبارُ يُعلن عن ثورةٍ في الهواء ولازالتِ الطائرةُ تزحف على بطنِها، حالةُ الهلع والفزعِ مصحوبتان بصراخٍ ممتزجٍ بتهشُّم أجزاء الطائرة، مع ابتهالاتِ واستغاثاتِ الركاب.

توقفت الطائرةُ بعد تجاوزِها ألفَي مترٍ من الزحفِ أرضاً، وبعد أن فقدت أجزاءً كثيرةً منها، وباتت أقرب لخردةٍ منها لطائرةٍ، فمن يراها يجزمُ بأنها لم ينجُ فيها أحدٌ، قفز الطاقمُ منها وفتحت أبوابُها، وهرعوا مسرعين لإخلاءِ الركاب قبل أن تشتعل.

ريم كانت قطعةً صخريةً متجمدةً في مكانها، أمسكتها سوزان من يدها وجرَّتها بقوةٍ لخارج الطائرة مستغلةً عدم وعيها، وفي سباقٍ مع الوقت تم إجلاءُ جميع الركاب وأمرهم الطاقمُ بالركض بعيداً عن الطائرة تحسُّباً لانفجارها في أيِّ لحظةٍ؛ الكثبان الرمليةُ محاطةٌ بهم من كلِّ اتجاه، وغبارها غطَّى الأفق، وكادت تعمي العيون، والهلعُ يُعمي الأبصار، لا يعلمون أين وجهتُهم، فقط يريدون أن يفرُّوا من الموت، جفت الحناجرُ وتيبست القلوب، كلُّ شخصٍ منهم كانَ همُّه أن ينقذَ نفسَه من الموت كأنه يومُ القيامة، إلا ريم وسوزان كانت أيديهم متشبثةً ببعضها؛ فالصداقة الحقيقة هي ما ربطت بين قلبيهما قبل أيديهم ..

ركضتا إلى حيث لا مكانَ، لا طريقَ، لا وجهةَ، حتى أقدامُهم حارت في طريقها، ليأتي قدرُهما ويجذبُهما حيث يريد، تعثرت سوزان وارتمت أرضاً، خاطبت ريم بتلعثم:

-ريم أكملي طريقك وحدك فأنا لم أعد قادرةً على المسير..

جثت على ركبتيها بجانبِها وهتفت ببكاء:

-سأكمل يا صديقتي ولكن برفقتك.. أرجوك تماسكي.. سيأتي فرجُ الله.

وكأنَّ كلماتُها فكت رصدَ الصحراء، هدأَ كلُّ شيءٍ.. والضبابُ بدأ ينقشع ليكشف ما اختبأ خلفه، ظهر برجٌ طويلٌ بلون الدماءِ من بعيد؛ فجلجل صوتُ ريم في الخلاء:

- سوزان انظري خلفك.. انظري إنها قمَّةُ برجٍ.. هيا انهضي لنكمل.

ومن حولِهم صحراءُ واسعةُ المدى تتوه فيها أعتى العقول، أرضُها ساخنةٌ ملتهبةٌ كالجمر في قعرِ فرنٍ متوهجٍ كانتا تتأملان تجاعيدها كوجهِ عجوزٍ حفر

الزمنُ خطوطه عليه، نهضتا وتوغلتا بقلب الصحراء حيث البرجُ، امتدت الرمال أمامهما كبساطٍ من تبرٍ يلمعُ تحت أشعة الشمس الحارقة، أكملتا الطريق بحذرٍ يبطِئُ من خطواتهما؛ وضعت سوزان يدها على ظهرها والأخرى تمسح بها عرق جبينها، وينهجُ صدرُها بشدةٍ ثم هبطت بجسدِها على ركبتيها وقالت بألمٍ:

-ما عدتُ قادرةً على السير.. أرجوكِ يا ريم أنقذي حياتك واتركيني هنا..

بكت ريم فاختلطت دموعُها بعرقِها ثم انحنت بقامتِها وجذبت صديقتَها من ذراعيها وصاحت فيها:

-سوزان.. أرجوكِ تحمَّلي قليلاً لقد اقتربنا ...

البرج واقفٌ يُطلُّ من بين ضبابِ الكثبان الرمليةِ كأنه يلوح لهما لتهتديا إلى الطريق، أخذتا قِسطاً من الراحة ونهضتا ثم تابعتا المشيَ متشبثتان بالأمل والعزيمة وقد وصلتا إليه ليظهر ما يُدهشُهما أكثر منه، فما هو إلا بوابةٌ لمدينةٍ كبيرةٍ تتوسَّدُ الرمالَ وتتخذ من الأسوارِ تاجاً يحيط بها من كلِّ جانب.. الدهشة صعقت عقليهما كسوطٍ من برقٍ نزلَ من السماء، والحروف ابتلعتها الحناجر، عيناهما جمدت وتوقفت أهدابها عن الطرف.. الشيءُ الوحيدُ الذي كان يتحرك فيهما أقدامهما.. اقتربتا من باب المدينة الضخم ودفعتاه لينفتحَ عالمٌ من الأسرار، كأنهما فتحتا بوابةً لطرفِ الزمن الآخر، فظهرت المدينةُ الغامضةُ.. مدينةٌ خاليةٌ من الحياة، لا صوتَ فيها إلا للموت فقط، كلُّ شيءٍ ملطَّخٌ بألوان اللعنةِ.. شبح الحزن مخيِّمٌ عليها، بائسةٌ لا روحَ فيها، يسكنها الأسى، منازلُها تَرشَحُ الدموعَ كأنها شاهدةٌ على جريمةٍ شنعاء ومجبرةٌ على عدمِ البوحِ بها، مدينةٌ غار ماؤها، وانتحرت أشجارُها وتفحمت أزهارها، حتى سكانُها ذبلت الروح فيهم وتلبَّدت في قلوبهم المشاعرُ، أجسادُهم فارغةٌ من الإحساس واتَّخذ الشقاءُ من وجوههِم مسكناً، فتحُ البابِ أصدرَ صريراً دوى صداه في أرجاء المدينة؛ فهرع السكانُ مسرعين نحو الباب كأنهم نُودي عليهم من بوقِ إسرافيل، فمنذ عقودٍ لم يقترب أحدٌ من هذا الباب.. تجمع كلُّ مَن في المدينةِ

حول ريم وسوزان محدقين بهم كأنهما قدِمتا في كبسولةٍ من المريخ.. الصديقتان خانتهما حناجرُهما والدهشةُ قطعت ألسُنَ عقليهما، والصمتُ هو السائد بينهما، تحدقان في الأجساد فلا تريا عجوزاً فيهم ولا رضيعاً كأنَّ الزمانَ لا يجري عليهم، لم تستطع سوزان الصمودَ أكثر من ذلك وسقطت أرضاً؛ فتُدافعَ عليها الناسُ، كلٌّ يودُّ أن يحملَها إلى منزِله، وريم تقف بجوارِها تبكي دون صوتٍ، إلى أن أخذها أحدُهم إلى منزِله وتبعته ريم، استقبلتهم عند المنزل أختُه، فرحبت بريم بحفاوةٍ بالغةٍ، بعد أن تفحَّصتها بنظراتٍ ثاقبةٍ، ثم ضمَّتها إلى صدرِها ودلفت بها داخل المنزل بعد أن وضع الرجلُ سوزان على سريرٍ في إحدى الغرف هتف قائلاً ببرود:

-ستستفيق بعد فترة وجيزة.. إنه من أثر السفر.. لنا حديثٌ بعد إفاقتها..

توقَّف عن الكلام لوهلةٍ ثم تابع حديثه لأخته:

-صوفيا.. مع الضيفتين جهزي لهما الطعام وقومي معهما بحسن الضيافة..

كلماته سقطت على قلبِ ريم فهدَّأَتْ من نبضاته المتسارعة، ثم ما إن خرج حتى هتفت صوفيا بتساؤل:

-من أين أنتما، وكيف استطعتما الوصولَ إلى هنا...؟!

قبل أن تجيبها، سمعتا أصواتاً لنسوةِ المدينة وهنَّ يدخلن عليهن حاملاتٍ في أياديهن كلَّ ما لذَّ وطاب من الرطب كأنَّ هذه المدينةَ لا يوجد فيها طعامٌ سوى لحم الطراوةِ فقط، مُرحِّباتٍ بالضيفتين، متفحصاتٍ ملابسهما ووجهيهما، طال الحديث بينهن وتاه السؤال، وعلمت ريم منهن أن المدينةَ خاليةٌ من الأطفال لخلوِّها من المتزوجين، هذا الأمرُ الذي فجَّرَ آلافَ الأسئلةِ في مخيلتها ودفعها لأن تسأل نفسَها سؤالاً هو الأشدُّ إلحاحاً:

-لا زواجَ.. إذن لا أطفال، ولكن لا شيوخَ ولا عجائز.. لماذا...؟!

وسط ثرثرةِ النساءِ جاء صوتٌ مرهقٌ من حنجرةِ سوزان تسأل:

-أين أنا...؟

ابتسمت ريم واحتضنتها وداعبت شعرها الذهبيَّ وهي تقول بسعادة:

-حمداً لله على سلامتك، اطمئني يا رفيقةَ دربي نحن في أمان..

هلل النساءُ ورحبنَ بها ثم تركنها وخرجن، وكذلك لحقت بهنَّ صوفيا، وهي تقول لريم:

-سأترككما الآن لتستريحا، ونكمل حديثنا في الصباح..

ما إن خرجت المرأةُ حتى تمددت ريم بجسدها جوار صديقتها وضمتها إلى صدرِها ثم أغمضت عينيها كي يهدأ العالمُ في دماغها، وليتقيَّأَ عقلها آثامَ الأرق، وليخرج الإرهاق من جسدها، وليغرق التفكير في عروقها.. لتنام على ضفافِ الراحة ولتقتل كوابيسَها الثقيلةَ، ويرتاح شيطانُها من قرعِ طبولِ ذاكرتها، ولتذُب خطاياها العظيمةُ مثل كرةِ ثلجٍ قذفها الحظُّ في حجرِ الشمسِ..

لكن هيهات.. هيهات.. لَكأنَّ النومَ أتاها مستدعياً عقلَها الباطنَ لينامَ بجوارِها، لكنه خان العهدَ وجاء محمَّلاً بكارثةٍ منذ زمن بعيد، لعنةٌ أصابتها وجعلتها دائما مضطربة، لقد حملها عقلُها فوقَ جناحَي الماضي وألقى بها داخلَ منزل والدها"سعد" وتحديداً في غرفةٍ نومها وفوق سريرها، رماها هناك ودثَّرها بلحافٍ أحمر اللون، كي يواري جسدَها البضِّ، لكنَّ سعداً أراد أن يراه، بل ويلمسه، اقترب منها بخفةٍ ثم أزاح الغطاءَ عنها، وأمعن النظرَ في مفاتنِها، سال لعابُه عليها، مدَّ يده نحوَها ثم أعادها بجانبِه سريعاً، ومشى على أطرافِ أصابع قدميه حتى وصلَ إلى غرفةِ ليلى، فتحَ البابَ برفقٍ ثم مرق ببصره حتى سريرِها، واطمأن أنها تغطُّ في نومِها فابتسم في نفسِه وسار نحو غرفةِ ريم، ومن ثمَّ دلفَ إليها مجدداً، فاخترق ببصره جسدَها.. لم يستطع أن يتمالك نفسَه أكثر من ذلك؛ فاقترب من فراشِها وجلس على الطرف، ثم هبط برأسه جانب قدميها وبدأ يقبِّلهما، صاحت الرغبةُ داخله، هاجت، بلغت أوجَها، مد يده يتحسَّس مفاتنها، تقلَّبت على فراشِها، وتنهدت، أحس أنها راغبة، أو أنها

تتظاهر بالنوم، عاود الكرَّة، فتحت عينيها، رأته أمامها، صرخت، هرول خارجاً، حضرت ليلى لاهثةً متسائلةً:

-ما بكِ يا ريم...؟

شهقاتها منعت الكلام أن يخرج فاحتضنتها ليلى، وهدَّأَتْ من روعِها وأعادت سؤالها:

-ما بكِ...؟

قصت عليها ما حدث، فتجهَّم وجهُ ليلى، ودفعت ريم بعيداً عنها، ثم نهضت عن الفراش، وبنبرةٍ حادةٍ وقاسيةٍ هتفت:

-كاذبة، وعاهرة مثل أُمك.. أبي لا يمكن أن يفعل هذا أبداً....

فزعت سوزان من نومِها على صوتِ ريم وهي تصرخ:

-لا.. لستُ كاذبةً.. وأُمِّي لم تكن عاهرةً..

نظرت في وجهِها الذي احتقن بالدمِ وهزَّتها بقوةٍ:

-ريم.. ريم.. أفيقي يا ريم ....

فتحت ريم عينيها ولازالت تلهثُ كمن كان يعدو، ثم ألقت برأسِها على صدرِ سوزان، وغاصت في بكائها.. دقائق وسمع الاثنتانِ صوتَ آهاتٍ وضحكاتٍ عارمةٍ، سيطر الذهول على ملامحِهما، فنهضتا عن الفراش وتتبَّعتا مصدرَ الصوت.. إنه قادمٌ من الغرفة المجاورة، تلاقت أعينهما في صدمةٍ، بينما سوزان كانت تبتسم فكلتيهما تعرف تلك الآهاتِ، ولكن ريم انقبض قلبُها، فكيف تكون هذه الآهاتُ في منزلٍ ليس به أزواج...! جذبت صديقتها من ذراعها وخرجت إلى الشارع، ثم بصوتٍ أجشَّ حثتها على الهرولة بعيداً:

-هيا.. لابد أن نخرجَ من هنا سريعًا...؟

بلهاثٍ تساءلت سوزان:

-ما الأمر يا ريم...؟

أجابتها وهما تعدوان:

-تعرفين هذه الأصواتَ جيداً، وهذه المدينةُ ليس بها أزواجٌ، سأوضح لكِ الأمرَ حين نخرجُ من هنا ...

أسرعتا في الركض حتى تجاوزتا المدينةَ من الناحيةِ الغربية حتى غاصت أقدامُهما في مدينةِ الموتى، إلى أن تسمَّرتا أمام مقبرةٍ يُسندُ ظهرَه عليها رجلٌ مُسِنٌّ أكلَ الزمانُ عليه وشرب، فصرخت سوزان آنذاك:

-عفريت.. إنه عفريت...!

سوطُ الرعبِ جلد جدارَ قلبِها حتى نزف دمَه على هيئة صرخاتٍ، لكنَّ ريمَ كانت صامتةً تُحدق في الرجلِ بذهولٍ وهو يهتفُ بصوتٍ مرهقٍ:

-أتت رسلُ ربي بسلام..

لازالت سوزانُ تصرخ وتشدُّ ريم من يدها:

-ريم.. عفريتٌ يا ريم.. هيا بنا ...

ردَّ عليها الرجل:

-اقتربا ولا تخافا، فلقد انتظرتُكما منذ أمدٍ ...

لم تشعر ريم بالخوفِ منه، بل أدركتِ الأمانَ وكأنَّ طائرَ الطمأنينةِ حطَّ على قلبها ودفعها للاقتراب منهَ والجلوسِ بجانبه وسؤاله:

-من أنتَ...؟

تنهَّدَ بعمقٍ وأجابها بغموضٍ:

-أنا حلمٌ طويلٌ لا يوجدُ فيه شيءٌ جميل.. حزني يملأ كلَّ مكانٍ.. طيوره قبيحةٌ ومرعبةٌ.. غربانُ سوداء نعيقها مُدوٍّ يئنُّ بسمعي فتلبِّي نداءه جيوشُ الصداعِ في رأسي.. خفافيشُ عمياءُ تصدمُ جبهتي.. مَن يُوقظني من هذا الحُلمِ المشئوم وله جائزةٌ ثمينةٌ أعطتني إياها حبيبتي..

إثر حديثِه اقتربتْ سوزانُ من ريم ولكزتها في ذراعِها بيدِها المرتعشةِ وهمست في أذنِها بخوفٍ:

-أرجوكِ يا ريم.. أرجوكِ هيا بنا.. إنه مجذوب...!

أمسكت ريمُ بيدِها وأجبرتها على الجلوسِ بجانبِها بعد أن ردَّتْ عليها بثقةٍ:

-لا.. بل أظنُّ أنه الشخصُ الوحيدُ الطبيعيُّ في هذه المدينةِ الملعونة.. اجلسي وأنصتي ولا تتفوَّهي بحرفٍ واحدٍ..

جلست سوزانُ بجوارها والخوفُ يملأ قلبَها، ثمَ حدقت في ملامحِ الرَجلِ المسن وسألته بخوف:

-لماذا نعتَنا بالرسلِ ...؟

ابتسم الرجلُ بألمِ وأجابَ:

-لأني في انتظارِكما..

ضيَّقت ريمُ ما بين حاجبيها وتساءلت بحيرةٍ:

-تنتظرنا...! لماذا...؟

ترقرقتْ عينا الرجلِ بالدموعِ وهتفَ بحزنٍ..

-انتظرتُكما لأخلعَ عن معصميَّ أصفادَ الصمتِ الذي طوقتهما بهِ، فهل أنتُما مستعدتانِ لتحمِلا عني عبءَ سنيني وتجعَلانِي أُحلقُ نحوَها خفيفاً كريشةٍ...؟

أومأتَا برأسيهما تأكيداً لسماعهِ، ففاضت عيناهُ بالدموعِ وابتسمتْ شفتاهُ بمرارةٍ وبات يستدعي سنواتِ عمرِه التي قضاها في الجنةِ قبل أنْ تتحوَّلَ لجهنمَ على الأرضِ، وبللَ شفتيهِ بطرفِ لسانهِ وسرحَ بمخيِّلتهِ بعيداً وأطلقَ للسانهِ العنانَ:

-رحلَ الخريفُ من هنا مثقلاً بكلِّ ما فيه من كآبةٍ صفراءَ مملةٍ، وحلَّ على المدينة ضيفُها الرائعُ المبهج.. أتى يلملمُها بين ذراعيه الحانيتين كأنه أناملُ رسَّامٍ تُحوِّلُ لوحةَ باليةً في مرسمٍ مهجورٍ إلى لوحةٍ ساحرةٍ للعيون.. رسم البهجةَ والبياض في كلِّ أرجائها فازدادت جمالاً على جمالِها، حتى الشمسُ كانت تظهر خجولةً وتطلُّ على استحياءٍ بين الغيوم تكتفي بإشراقةٍ من نورِها،

وبعضُ الدفءِ يتسلَّلُ إلى الأبدان كما يتسلل العطرُ إلى الروح ليُلبسَها حُلَّةً بيضاءَ جميلةً وكأنها عروسٌ تتهيَّأُ لزفافها.

فصلُ الحبِّ والمشاعرِ، فصلُ الذكرياتِ والليلِ الطويل الساحر.. فصلُ الشتاءِ، كلُّ ما في المدينة فيه يزداد جمالاً.. البُحيرةُ والجبالُ، الحقولُ والتلالُ، حتى الأزهارُ النادرةُ التي تتفتح فيه تكون لها رائحةٌ مميزة لا تشبه روائحَ الزهورِ في فصلِ الربيع.. تمتزج برائحةِ الحطبِ المشتعل تملأُ الأرجاء لتمنحَ المدينةَ ليلاً هادئاً يحلم كلُّ عاشقٍ أن يقضي ساعته هنا.

رائحةٌ لا تجدها حتى في أفخمِ ماركاتِ العطور.. وجهُ حبيبٍ ومدفأةٌ وكوبٌ من القهوةِ وكتابٌ ووشاحٌ من الصوفِ، ونافذةٌ تراقب منها هطولَ حباتِ الثلجِ في كانون.. كأنما السماء تنثرُ حباتِ لؤلؤٍ مكنونٍ، ولن تتمنى بعدها شيئاً من الدنيا ليأتيَ الصباحُ وتنعكسُ أشعَّةُ الشمسِ على حباتِ اللؤلؤِ؛ فتصبحُ كلُّ لؤلؤةٍ شمساً بذاتِها.

تغارُ البحيرةُ من جمالهن فتستشيطُ غضباً وتهيجُ وتموج تصبُّ جمَّ غضبِها على شاطئها كأنها جلادٌ بيده سوطٌ يجلد سجينَه؛ فقد تعودت دائماً أن تكونَ الساحرةَ الجميلةَ مدللةَ المدينة.. تحزنُ السماءُ على الشاطئ فتمنحُه لوناً أشدَّ زُرقةً لتهدِّئَ من روعه، وترى الشمسَ تطبطبُ بأشعَّتِها الحانيةِ عليه لتلمعَ حباتُ الرملِ كأنها الذهبُ ومن ثمَّ ترسمُ البحيرةُ قبلتَها عليه كاعتذارٍ منها.. كلُّ هذا والجبالُ تراقبُ من بعيدٍ متلبدةً متجمدةَ المشاعرِ مغطاةً بالثلوج.. تهبُّ الرياحُ لتداعبَ قِمَمَها؛ فتبتسمَ كأنها طفلةٌ ناصعةُ البياضِ لا تعرف من الدنيا سوى الابتسام..

وهناك بقربِ الحقلِ قلعةٌ من أقدم العصورِ شامخةٌ بعزٍّ وإباءٍ وكأنَّ لسانَ حالِها يقول: أنا ما زلت هنا شامخةً عزيزةً أبيَّةً، فأين أنتم أيها الغُزاة، قد زلتم وزال معكم ظلمُكم واستبدادُكم ولم يبقَ سوى الحقِّ.. مهما طال ظلامُ الليلِ فلابد لضوءِ النهار أن يُجلّيه..

شهقةٌ خرجت من الرجلِ ممزوجةً بدموعٍ حارقة دفعته للامتناعِ عن الكلام فتوسلَت إليه الصديقتانِ لأنْ يُكمِلَ، فتابع من بين دموعه:

-وبرجُها "سادورا" أقصدُ البرجَ الباكي، هذا الذي يقف وحيداً عند مدخل المدينة، هذا الذي يبكي ليلَ نهارٍ على فراقِ العاشقين.. لقد كانَ الشاهدَ الوحيدَ على حبِّهما، كانا يلتقيانِ كلَّ ليلةٍ من نهايةِ الأسبوع أسفله، ليكون شاهداً على كلامِهما المعسولِ ونظراتِهما المليئةِ بالحبِّ والغرام.. علاقتهما الطاهرةُ العفيفةُ التي اقتصرت على قُبلاتِ العيون..

وفي ليلةٍ من الليالي لم تأتِ سادورا؛ فانتظرتُها.. أقصد.. انتظرها "إرامُ" كثيراً حتى هتفَ في نفسِه بغضبٍ-لقد خانت العهد- يا لها من خائنةٍ، وعندما أدار ظهرَه ليذهبَ بعد أن استقرَّ الحزنُ في قلبه؛ فإذ بصوتِها العذب الرقراق يناديه: إرام.. إرام.. لقد أتيتُ يا نبضَ القلبِ.. لستُ أنا من تخون العهدَ، وكان يسمع نبضاتِ قلبِها وأنفاسَها المحبوسةَ من شدةِ الخوفِ، ونظراتُ الحزنِ تملأُ عينيها.. فسألها عن سرِّ هذا الحزنِ الدفين داخلَ مقلتيها؛ فأجابت بأنَّ أباها قد علمَ بعلاقتِهما وقررَ أن يذبحَها أو تتزوجَ من صاحبِ الحانة العجوز..

فعادت إلى منزلِها بعد لقاءٍ طويلٍ معه وقد اتفقا في نهايتِه على أن يجازفَ ويأتيَ لخطبتِها رغم يقينِهما برفضِ والدها، وفي اليومِ التالي خرجَ والدُها من منزلِه، واضعاً على كتفه قميصَ نومٍ أحمرَ اللونِ قصيراً، وتجوَّلَ في القريةِ وتباهى بالعلاقةِ غيرِ الشرعية التي أقامها مع ابنته، وبدأ يسردُ تفاصيلَها، ومدى متعتِه ولذَّتِه، ورغم غرابةِ الأمرِ حينها إلا أنَّ الجميعَ أُعجبوا به، وبعد فترةٍ وجيزةٍ من الزمن ردَّ كلُّ زوجٍ زوجتَه إلى أهلِها، ولم تبقَ زوجةٌ واحدةٌ في بيتٍ من بيوت المدينةِ، وأصبحت العلاقات كلُّها تُعقدُ بين الآباءِ وبناتهم وبين الفتيانِ وأخواتِهم....

فوضعت ريمُ يدها على فمِها وتقيَّأتْ ما في جوفها وكذلك سوزان، فناولهما الرجلُ زجاجةَ ماءٍ كانت بجوارِه فأبتا أن تشربا منها، فهتف الرجلُ بحكمةٍ:

-اشربا ولا تخافا، ودعاني أُكملْ لكما ما آلت إليه مدينتُنا...

أخذت ريم رشفةَ ماءٍ وكذلك سوزانُ، وأنصتتا للحديثِ فتابع الرجلُ وهو يمسحُ بكفِّه دمعةً ساخنةً تسلَّلتْ خِلسةً إلى وجنته:

انتشر الذنبُ وتفاخر به الناسُ حتى جاءت ريحٌ عاتيةٌ في ليلةٍ شتويةٍ كئيبةٍ اقتحمت البيوتَ كأنها غَزَاةٌ، فأخذت من الأرواحِ حتى فاضت جُعبتُها، ولم يكن في رأسِ إرام شيئاً وقتها إلا إنقاذَ سادورا، فانطلق كالمجنون نحو منزِلها، وحين دلفَ إليه اصطدم بأبيها وهو يهرول نحو الخارج، فتابع الولوجَ حتى رآها ملقاةً على الأرض جثةً هامدةً، فصرخ فتاه صوتُه في زوابعِ الريح التي صعدت الجدرانَ فاضحةً عمَّا وراءَها، والرمالُ تصاعد غبارُها وكأنه دخانُ نارٍ أحرقت اليابسَ والأخضر بأسرهما، وفي الصباح لملمنا ما تبقَّى من أشلاءِ الجثثِ،وواريناها بالتراب، وكنَّا قد فقدنا عدداً لا بأس به ولا نعلم إلى أين ذهبوا، وتوقف الزمنُ عند ذلك الوقتِ وتوقفت الأعمارُ لا يخطُّ الزمانُ خطَّاً واحداً في عدادِ عمرِ واحدٍ من هذه المدينة، ووحدي أنا من غزا الشيبُ رأسي، ومنذ ذلك الوقتِ وأنا أجلس هنا ما بين صومعتي وهذه المقبرةِ ولا حاجةَ لي بأحدٍ، يحصد الحزن ثمارَه بروحي كلَّ يومٍ وأنا أراهم على الذنب قائمون..!

فتساءلت ريم باستغرابٍ:

-وهل يعني هذا أنه لم يمت أحدٌ بعد هذه العاصفة...؟!

ردَّ الرجلُ قائلاً بأسىً:

هناك عددٌ ليس بالقليلِ أتتهم أسبابُ الموت على فتراتٍ متباعدةٍ، وكلهم كانوا يحاولون الهروب من المدينة، وكلَّما هممنا بدفنِ جثمان أحدِهم لفظتْه الأرضُ وكأنها تبرأُ منه، فنعودُ لمنزِله لندفنَه هناك..

وهنا نطقت سوزان متسائلةً:

-وهل كانت تطردُه أيضاً...؟!

أجابها الرجل بهدوءٍ:

-بالطبعِ كانت تقبلُهم، فالنجاسة لا تقبل إلا مثلها..

ظهرت ابتسامةُ حنين على وجهِه وهو يتابع:

-اليومَ فقط.. استُجيبت دعواتي وصلواتي بأن يُكشفَ أمرُ هؤلاء وتُفتحَ أبوابُ المدينة من جديدٍ؛ فمذ ذلك اليوم الذي لا أعرف له مردَّاً لم يزرنا زائرٌ ولا لمحت أعينُنا أحداً، اليوم فقط أستطيعُ الرحيلَ بعدما أدَّيتُ مهمَّتي التي عشت أمداً طويلاً من أجلها..

نظرا كلٌّ من ريم وسوزان لبعضِهما والدهشةُ تعلو وجهيهما، ثم نظرا نحو الرجلِ الذي رفع وجهَه في السماء وزيَّنتِ ابتسامةٌ عذبةٌ شفتيه، وهو يقول بصوتٍ خافتٍ:

-مرحبا بك يا عزيزي.. كنتُ قد فقدت الأملَ في أن تأتي، ولكنك اليومَ أتيتَ في ساعةٍ لم تخْلفْها.

فأغلق عينيه وضمَّه طائرُ الموتِ بجناحيه وحلَّقَ بروحِه عالياً.. هزَّته ريمُ بقوةٍ وهتفت فيه:

-لم سكتَّ هكذا...؟

مال جسدُ الرجلِ يميناً حتى سقط أرضاً، فظهر خلفَه اسمٌ محفورٌ على شاهدةِ المقبرةِ "سادورا"

*****

بدمعةٍ حارقةٍ قبَل صورتِها المعلقة على الجدارِ بعد أن انتزعها، ثم وقف أمام المرآةِ منتصباً كشجرةٍ ماتت كلُّ فروعِها، وقف يشاهدُ وجهَه الشاحبَ والدموعُ ترسمُه لنفسِها عليه خيوطاً كالعنكبوت. طال التحديقُ في المرآةِ حتى أخرجه من شرودِه صوتُ الهاتف، فلمَّا لحَظَ المتصلَ بنظرةٍ بائسةٍ أجاب بنبرةٍ هادئةٍ مصطنعةٍ استعارها من ملامحِ ريمَ المحفورةِ في ذاكرته:

-مرحباً يا أمي.. لا ليست هناك أخبارٌ عنها..

وأثناء محادثةِ أمِّهِ كاد صوتُه أن يفضحَ قهرَه، وودَّ لو يطلبُ منها أن تحضرَ إليه ليرتميَ بين أحضانِها ويبكي، ولكنَّ كبرياءَه وقف حارساً عنيداً على شفتيه،

منع ضعفه أن يخرجَ على هيئةِ كلماتٍ ومن ثمَّ أمرَه باختلاقِ كذبةٍ لإنهاءِ المكالمةِ:

-أمي.. أعتذر منكِ، فهناك مكالمةٌ من شركةِ الطيران.. ربما لديهم أخبارٌ عنها

وأنهى المكالمةَ معها وعاودَ الاتصالَ على الشركةِ، فجاءه الجواب الذي لم يطمئنَّ له من قبل:

-سيادتك كما قلنا لك في السابق.. انفجرتِ الطائرةُ حقاً،غيرَ أنَّ الرُّكَّابَ جميعَهم بخير..

أغلقّ الهاتفَ وهوَى بجسدِه على أقربِ مقعدٍ، ثم أطلق لدموعِه العنانَ وتحدَّث مع نفسِه بصوتٍ أجشَّ مسموعٍ:

-لم أكن أعلمُ أنني أعشقُك لهذا الحدِّ الذي جعلني جسداً بلا روح.. أتحسَّسُ قلبي فأجدُ مكانَه فارغاً مهجوراً تسكنه العناكبُ.

فاختنق صوتُه فسكتَ قليلاً ليبتلعَ ريقَه، ثم تابع حديثَه وهو يحدق بعينيه الدامعتين نحو غرفتها.. يرسمُ اشتياقَه لها صورتَها وهي تقفُ هناك بوجهٍ يُشعُّ نوراً، وعينين تقذفانِ قنابلَ مُسيِّلةً للحنين داخله:

-هل تعلمين.. كنا نفشل دائماً في اختلاقِ كذبةٍ جديدةٍ.. كذبةٍ بمقاييسَ عالميةٍ تناسب حاجتَنا الدائمةَ للهربِ من حقيقةِ أننا لم نكن سوى شبحين كئيبين، لم نكن يوماً زوجَ حمامِ السلام.. دائماً ما كان يختفي أحدُنا عندما تحضرُنا السعادةُ وكأنها تأتي فقط للشماتة، لرؤيتِنا ونحن نغادرُ من بابين مختلفين..

خُيِّلَ له أنها تبكي فنهض مسرعاً نحوها، وفتح ذراعيه لاحتضانها وضمَّهما إلى صدرِه ثم صرخ باكياً:

-ريييييم..!

لم يكن يدرك أنه سيبقى للأبدِ متعطِّشاً لهذا الحبِّ الذي لن يكتمل.. لهذه المشاعرِ والعواطفِ الجياشة...!

لكنه في النهايةِ أيقنَ أنَّ الحظَّ ترك يدَه ليقف مكتوفَ القلبِ يُلوِّحُ بخيبةِ حُلمِه الوحيد.. وهو يتلاشى بعيداً جداً...!

لقد أربكه القلقُ، وتغذَّتِ الحيرةُ على أنفاسِه، حتى بدأ يختنق بهدوءِ الموتى.. وبعمقِ الهاوية...!

سرعانَ ما امتدت له يدٌ عبرَ الهاتفِ لتنقذه.. لِتبِّثَ فيه الأملَ من جديدٍ، لتنتشل روحَه العالقةَ في ذيلِ حدأةِ اليأس.

التقط الهاتفَ وأنصت للمتحدثِ، فتهلَّلتْ أساريرُه حين حدَّثه الرجلُ قائلاً:

-اطمَئنَّ يا خالد.. الدكتورة ريم وصديقتُها الدكتورة سوزان في أحسنِ حالٍ وكذلك جميعُ رُكَّابِ الطائرة...! لم أتصل بك رغمَ معرفتي بما حدث إلا عندما تأكدتُ من سلامتِهم، فلا تقلق.. لقد نقلوهم إلى أقربِ مطارٍ بعرباتٍ من قِبَلِ شركاتِ الطيرانِ التابعةِ لمكانِ الحادث، وهناك طائرةٌ في انتظارِهم ستُكملُ الرحلةَ إلى باريسَ.

بفرحةِ العائدِ من الموتِ ردَّ خالد:

-لا أعرف كيف أشكرُ سيادتك؛ فلقد ردَّ حديثُك الروحَ إليَّ مجدداً.. حقاً أعجزُ عن شكرِك...

قاطعه الرجلُ بنبرةٍ هادئةٍ:

-خالد.. أعرف أنَّ الوقتَ غيرُ مناسبٍ، ولكن من خلالِ التحقيقاتِ علمنا أنَّ هناك عنصراً أساسياً ضمنَ الخليةِ لم يتمَّ القبضُ عليه؛ بل حتى لم يتمَّ التعرُّفُ عليه..

أجاب خالدٌ مستفسراً:

-كيف هذا...؟

أردف الرجلُ موضِحاً:

-العنصرُ الغائبُ هو الأميرُ، والغريبُ أننا لم نلتقط له صورةً واحدةً ولا أحدَ يعرف اسمَه الحقيقيَّ، ويعملُ الرسامون الآنَ على رسمِ ملامحِه من خلالِ وصفِ بعضِ رجالِه له.

غاب صوتُه قليلاً ثم عاد:

-المهم يا خالدُ.. حين تطمئنُّ على الدكتورة ريم، أدعوك لتناولِ القهوةِ في مكتبي، ربَّما لديك معلوماتٌ تُفيدُنا من خلالِها في معرفةِ كشفِ هُوَيَّةِ هذا الشخصِ المجهول.

أغلق خالدٌ الهاتفَ معه بعدما أنهى حديثَه، ثمَّ نظر إلى السقفِ فاخترقَه بعينيه وصولاً إلى السماءِ ثمَّ هتفَ شاكراً:

-شكراً لك يا ألله..

*****

بابتسامةٍ خافتةٍ امتزجت بدموعِها الحارقةِ حدَّثتْ قبرَه:

-جمال.. لماذا خُنتَ العهدَ وتركتني وحيدةً...؟

لما لا تُحدِّثني...؟! أُوقنُ أنك ستخرجُ الآنَ وتبتسمُ في وجهي كعادتِك وأضربُك على صدرِك كما تعودتَّ قبل أن أرتميَ بين أحضانِك...! جمال.. انظر لتلك الفراشةِ الساحرةِ التي تقفُ بجواري تنتظر خروجَك، هل تعلمُ أنني أغارُ عليك منها...! اخرج يا جمالُ؛ فقد نخرَ بردُ الفراقِ عظامي، اخرج ودثِّرني بجسمِك، وعِدني ألَّا تلعبَ معي لعبةَ الغُمَّيضةِ.. أنت تعرفُ جيداً أنني أكرهُها، ورغمَ هذا تتعمدُ لعبتَها معي.

فجأةً ألجمتْ لسانَها ثم وقفت أمام قبرِه، ونزعت حجابَها، وأخرجت من جيبِها مِقَصَّاً طويلاً مُدبَّباً ثم تابعت حديثَها معه:

انظر يا جمال، أعلمُ أنك تعشقُ جدائلَ شعري الذهبيةَ، واللهِ إن لَّم تخرج الآنَ لأجعلنَّ هذا المِقَصَّ يداعبُها بدلاً منك، ولم تلبث إلَّا وأمسكت جدائلَها ووضعت ضفيرةً منها بين نصلي المِقَصَّ حتَّى شعرت بيدٍ تقبضُ على يديها؛ فإذا بها تلفتُ خلفها لترى عاصماً ومنالَ، فتركت المقصَّ من يدِها لعاصمٍ وصرخت فيه بألمٍ:

-جمال ماتَ يا عاصم..

قالت جملتَها وارتمت بين أحضانِ منالَ وانهارت في البكاء.

*****

قاعةٌ كبيرةٌ مليئةٌ بالمقاعدِ المصطفَّةِ خلف بعضِها متجهةً صوبَ المِنصَّةِ الإعلاميةِ، عشراتُ الكاميراتِ تقف على أُهبةِ الاستعدادِ لتغطيةِ المؤتمرِ العالميِّ لبحثِ الوضعِ الطبيِّ العالميِّ الذي أصبح يترنَّحُ بعد عجزِه أمام حالاتِ الجثثِ الخارقةِ التي انتشرت في شتَّى أنحاءِ العالم.. التوتُّرُ الذي غلَّفَ القاعةَ جعل الجميعَ يتخبَّطون فيما بينهم، حتى النقاشُ الذي كان يسبق كلَّ المؤتمراتِ عادةً لم يَعدْ له وجودٌ هذه المرةَ، فقط بضعُ كلماتٍ مقتضبةٍ يوجِّهُها بعضُ الأشخاصِ لبعضِهم، تساؤلاتٌ قد تبدو ساذجةً أحياناً في مثلِ هذا الحدث.. أخذ الصحفيُّون يلعبون دورَ الصيادِ الماهرِ بكلِّ حرفيةٍ؛ فكلُّ صحفيٍّ ألقى شِباكَه على الطبيبِ الذي يُمثِّلُ دولتَه هنا في باريسَ، والجميعُ يحاول إسقاطَ تهمةِ التقصيرِ عن دولتِه.. كلُّ ذلك كان يدورُ في فلكٍ وريم تسبحُ في فلكٍ أخرَ، كما أنها رفضت التحدُّثَ لأيِّ صحفيٍّ أو قناةٍ تليفزيونيةٍ.. كانت شاردةَ الذهن، تأبى الحديثَ مع أيِّ شخصٍ كان، الأمرُ الذي جعلَ سوزان تتمنى لو أنها تستطيع الدخولَ إلى عقلِ صديقتِها وتعلمُ ما يدورُ به...

بقي عشرُ دقائقَ فقط على افتتاحِ المؤتمرِ.. للمرة الأولى تجدُ عامةَ الشعبِ أو الشعوبِ إن صحَّ التعبيرُ، يتربَّصون خلف الشاشاتِ لمتابعةِ مؤتمرٍ طبيٍّ.. بدأ الهدوءُ يعمُّ القاعةَ، جلس كلُّ شخصٍ على مقعدِه الذي يحمل علَمَ

دولتِه، ثم وضعوا سمَّاعاتِ الأذنِ حتى يستطيعوا الحصولَ على الترجمةِ في ظلِّ هذا المزيجِ الغريبِ بين مختلّفِ الجنسياتِ، وعلى الرغم من هذا الهدوءِ إلا أنَّه كان يعكسُ كمَّ التوتُّرِ الذي يغرقُ فيه الجميع.. صعد دكتور دنيال - رئيسُ المؤتمرِ- إلى المنصةِ، ثم وقف لثوانٍ يُرتِّبُ أوراقَه، في هذه اللحظاتِ كانت الأفواهُ مغلقةً ولا فرقَ في ذلك بين القاعةِ التي يدورُ فيها المؤتمرُ وبين المنازلِ والدولِ التي تترقَّبُ في شغفٍ وقلق...! ألقى الدكتور دنيال كلمتَه الافتتاحيةَ مُرحِّباً بالحضورِ ثم قامَ بتقديمِ نبذةٍ عن موضوعِ المؤتمر، في الوقت الذي كانت شاشاتُ العرضِ داخل القاعةِ تعرضُ صوراً مختلفةً للجثثِ بتقاريرَ مختلفةٍ في نقاطٍ متفرقةٍ إلى أن تلتقيَ جميعها في نقطةٍ واحدةٍ "الأرضُ لا تقبل تلك الجثثَ؛ بالإضافةِ إلى أنَّ هويةَ معظمِ الجثثِ كانت مبهمةً تماماً رغمَ الجهودِ التي فعلتها الأجهزةُ الأمنيةُ" وبعد الانتهاءِ من كلمتِه أعطى الأذنَ لعددٍ من الأطباءِ حتى يستطيعَ كلُّ واحدٍ أنْ يشرحَ ما حدث معه والنتائجَ التي توصَّلَ لها، قام الدكتور ريشان ممثِّلُ الفريقِ الطبيِّ بالهند وتحدثَ لبضعِ دقائقَ لم يأتِ فيها بجديدٍ ثم اختتم كلامَه قائلاً:

-إنَّ الأمرَ تخطَّى الطبَّ بمراحلَ وإنها لعبةٌ دنيئةٌ من مجموعةٍ من المشعوذين لخلقِ أزمةٍ تجعل العالمَ يقف عاجزاً أمامها حتى يأتوا ويحلُّوا العقدةَ التي عقدوها ومن ثّمَّ يعترفُ العالمُ بهم...

رغم التصفيقِ الذي تبِعَ كلمتَه إلا أنه كان فاتراً روتينيَّاً لا أكثر، ثمَّ صعد من بعدِه أربعُة أطباءَ لأربع دولٍ مختلفةٍ لكلٍّ منهم وجهةُ نظرٍ تفضحُ مدى تخبُّطِه حتى باتَ الأمرُ مُملاً أكثرَ من المتوقع، وكاد الملُ هذا أن يتمكَّنَ من الجالسين خلفَ الشاشات، حتى جاءَ دورُ الدكتورة ريم بصفتِها المُمثِّلَ الرسميَّ للفريقِ الطبيِّ في مصر، وعندما قدَّمَها دكتور دنيال قال:

-إنَّ مصرَ تُمثِّلُ ضلعاً قوياً في هذه الأزمةِ؛ حيث إنَّ الحالاتِ الثلاثةِ الأُوَلِ ظهرت بها، وإنَّ الدكتورة ريم تابعت عن كثبٍ المراحلَ التي مرت بها هذه الحالات...

عندما صعدت ريم على المنصةِ لم تصطحب معها ولو ورقةً واحدةً كما فعل من سبقوها، وعلى العكسِ تماماً من توقعاتِ سوزان؛ فقد كانت ريم هادئةً لدرجةٍ أصابت صديقتَها بالفضولِ القاتلِ حتى تعلَمَ ما وراءَ هذا الجمودِ، وحدَّثت نفسَها باندهاشٍ:

-أبعد كلِّ ذلك...؟!

لم تترك ريم الحيرةَ تأكلُ قلبَ صديقتِها أكثر، وبدأت حديثَها بالثناءِ على الجهودِ العظيمةِ التي فعلها الأطباءُ حول العالمِ؛ ليس في هذه المعضلةِ فقط وإنما في تاريخِ الطبِّ بشكلٍ عام، ثم تابعت بنبرةٍ هادئةٍ وابتسامةٍ غامضةٍ:

- الأطباءُ مُوكَّلون بالحمايةِ الجسديةِ لبني الإنسانِ، وعندما أقسمنا على المحافظةِ على شرفِ هذه المهنةِ كنا ندرك حجمَ مُهمَّتِنا الأساسيةِ تجاهَ بلادِنا، نستطيع أنْ ننقذَ مرضى القلب، والسرطان، ونجْبُرَ كسرَ قدمٍ أو حتى رقبةٍ، ولكن ما لا نستطيع فعلَه بالتأكيدِ هو أن نُصلِحَ الأخلاقَ إذا فسدت، ولا إنقاذَ الشرفِ عندما تبتلعُه رمالُ الخطيئة..

كانت المُكبِّراتُ الصوتيةُ تردِّدُ صوتَها وكأنها تهتفُ معها، وفي الوقتِ الذي انشغلَ فيه بعضُ الحضورِ ظنَّاً منه أنها مُقدِّمةٌ إنشائيةٌ لا أكثر، فقد كانت صورةُ أبي ريمَ ترقصُ أمام عينيها وتُشعلُ النيران في حلقِها فتزيدُ من كلماتِها، صوتُ إرامَ واسمُ سادورا محفوران خلفه على شاهدِ المقبرةِ فتابعت بصوتِ قائدِ ثورةٍ، وكأنك ترى جيفارا يخطب في أتباعه أن أفيقوا وأنقذوا أنفسكم، اشتعلوا من أجل إنارةِ الطريق أمامكم:

كثيراً منكم حاول الوصولَ للحقيقة، وربما شقَّ نصفها دون أن يعلم، اليوم ينتهي كابوسٌ عاش فيه الأطباءُ على مدارِ الأشهرِ الماضية، ولكنَّ كابوسَ العالمِ نفسِه سيظلُّ ينمو بداخلنا حتى نختنقَ به جميعا، بالطبع سيحدث ذلك إن لَّم نتدارك جرائمَنا..

أخذت الأبصارُ تتعلق بها، والبعضُ يعتدلُ في جِلستِه، وآخرون خلفَ الشاشات يُلقون ما بأيديهم ويستمعون إليها بإنصاتٍ، بدأت ريمُ تسرد

تفاصيلَ القريةِ كما حكاها لهم إرام، قصَّت ما حدث بالتفصيلِ دونَ زيادةٍ أو نقصانٍ؛ لكنها أخفت الدموعَ التي كانت تخنقُ أنفاسَها وتضيق بها، فَفغَرَتْ الأفواه وخلعَ أحدُهم عويناته، وآخر يضغط على سماعةِ الأذن أكثر، وسوزان تخفضُ بصرها أرضاً، و إحداهما ألصقت وجهَها بشاشةِ التلفاز، وتمَّ تبادلُ الاتصالاتِ بين فريق عمل القنوات التي تغطي المؤتمرَ وبين مسئولي تلك القنوات، وكانت ريم تتابع حديثَها وكأنها امرأةٌ أتت لتأخذَ بثأرِها من مجتمعٍ قتلَ كلَّ خجلةٍ فيها:

الدين هو المُوكَّلُ بحفظ الأرواحِ ونقائها، وما من دينٍ سماويٍّ يدعو لمثل تلك الفاحشةِ، ففي التوراة "عورةُ أبيك وعورةُ أُمِّك لا تكشفْها، إنها أُمك لا تكشف عورتها"

وفي الإنجيل نجده يُحلُّ للرجلِ امرأةً واحدةً لا أكثرَ ولا يكون ذلك إلا بمباركةِ رجلِ الدين؛ فهل يُحلُّ القسُّ زواجَ رجلٍ من أخته...؟!

وفي الإسلام نرى القرآن الكريم لم يندِّد بتلك الفاحشةِ فحسب بل حرَّمها تحريماً قطعياً (...)

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ

أَبْنَآؤُكُمْ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1]

والأسوأ من الإثم هو الجهر به؛ ولم تكد ريم تُكمل كلامها حتى قاطعها أحدُ الأطباءِ قائلاً بسخرية:

-ألم يكن هناك طريقةٌ أُخرى أكثر تحضُّراً حتى تستخدميها في لفتِ الانتباه وأخذِ الأضواءِ هكذا يا حضرة الطبيبة...؟!

رفعت سوزان رأسها وقبل أن تشرعَ في الحديثِ قطعت ريم قولَ كلِّ خطيبٍ وتحدثت بثقةٍ:

ألم يكن لديكَ أنتَ طريقةٌ أخرى أكثرَ تهذيباً وعقلانيةً تطلب بها الدليلَ على قولي...؟!

فارتجف الرجلُ واعتدل في وقفته وهو يُتمتم بحديثٍ لم يصل إلى مسامعِ ريم، في الوقتِ نفسِه اقترب دكتور دنيال منها وقال متسائلاً:

-ألديكِ دليلٌ على ما تقولين حقاً...؟

أومأتَ ريم برأسِها، ثم اقتربت من الميكرفون وهي تقول بثقة:

-إنني أدعوكم جميعاً ليومٍ حافلٍ بالاكتشافات هناك.. في تلك المدينةِ ولنصطحب معنا إحدى الجثثِ النجسةِ تلك لتدفنَ في مكانها الصحيح، في أرضٍ تشبَّعت بالنجاسةِ مثلها..

ساد العالمَ جوٌّ من التخبطِ والارتباك، البعضُ يصدق ويتعاطف، والبعضُ الأخر يشككُّ ويطعن في سلامةِ قواها العقلية، وآخرون افترضوا كلَّ النوايا السيئةِ داخل ريم، ولكن في النهاية.. الجميعُ مجبرٌ على أن يسير وَفْقَ قواعدِ ريم وحدها حتى يصلوا إلى الحقيقة.

*****

[1] النساء: ٢٣.

# الفصل الثالث والعشرون

صعدت الصديقتان الطائرةَ المتجهة إلى القاهرة، بعدما حققتاه من نجاح في كشف غموضِ تلك الحالاتِ الشاذة، وعصافيرُ السعادةِ تزقزقُ في قلبيهما رغم أنَّ أفاعي الخوفِ تلتفُّ حول قلبِ ريم، تريدُ أن تَبُخَّ سُمَّها داخلَه لتفسدَ فرحتها، جلستا على مقاعدِهما المخصصةِ، متشابكتا الأيدي كأنهما عاشقان، وأجراسُ الفرحةِ تدقُّ داخلَهما، ونظراتُ الافتخارِ تأكلُهما من ركَّابِ الطائرة وطاقمِها، حلَّقت الطائرة في الهواءِ كما يُحلّقُ قلبُ خالدٍ الآن في حمامه وهو يستعدُّ للقاءِ زوجتِه الحبيبة، يراها ببصيرتِه وهي تجلس على المقعد مرتكزةً برأسِها على المسند تائهةً شاردةً فيه، تبتسم تارةً وتدمع عيناها تارةً أخرى حين تظن أنه خائن، ولكن جاء الوقتُ لتعرفَ الحقيقة؛ فهو لا يقلُّ بسالةً وشجاعةً وإخلاصاً لوطنه منها..

خرج من الحمام بعد أن هذَّبَ شاربه وحلق ذقنه، نظر في المرآة فخُيِّلَ له أنها تقف خلفه، فأغمض عينيه وأرخى أعصابه وانتظر أن تحتضنه أو حتى تتعلَّقَ في عنقه، تلك الدقائقُ قضاها أمام المرآةِ في حُلمٍ تمنَّاه كثيراً أن يكون حقيقة، دخل قلبُه الجنةَ وكذلك جوارُحه، وغسل ذنوبَه في حوض عشقها النقيِّ، وارتدى ثوب حبِّها بعد أن طوَّق عنقه برابطةِ عطرِها الفواح، وخرج من المنزل ثم ركب سيارتَه وانطلق بها إلى المطار، وكان قلبُه يسبق عجلاتِ السيارة، بل كان يُحلّقُ في السماء قاطعاً الأميالَ ليصلَ إلى قلبِها الرابض في ثناياها داخل جسدِها النائم على مقعدها، يحتضنه فتتنهد بعمقٍ لتنظرَ إليها صديقتها سوزان، تقتبس من براءة وجهِها نوراً يطمئن وجهُها المضطرب، ثم

تعود لتحلّقَ بعينيها في عالم التكنولوجيا وتتفحص الأخبار التي كُتبت عنهما حتى وقعت عيناها على خبرٍ يتصدر كلَّ المنصاتِ الإخبارية المصرية والذي نُشِرَ منذ أيامٍ، أسقطت عيناها دموعَ فرحٍ غزيرةً ثم صاحت في ريم صيحةً عاليةً:

-ريم.. ريم..

فزعت ريم وانتفضت وهتفت:

-ماذا حدث هل وقعت الطائرةُ مرة أخرى...؟

أجابتها والسعادةُ ترقص في عينيها الدامعتين:

-انظري خالد بريء يا ريم بريء..

حباتُ الكريستال سالت من عيني ريم وهي تحدق في هاتفِ سوزان وتبتسم ابتسامةً خفيفةً، تحاول أن تنطق ولكنَّ الفرحةَ ألجمت لسانَها كأنها اليومَ فقط حصلت على براءةٍ بعد حكمِ إعدامٍ صدر في حقها، وحدقت في الخبر وفي الصورة المرفقة معه لتجد حازماً طريحَ الأرض غارقاً في دمائه وحوله مجموعةٌ من الأشخاص في قبضةِ الشرطة، ارتفعت ببصرها إلى الأعلى لتقرأ العنوانَ الذي فكَّ وثاقَ حزنِها وقتل ظنَّها السيئ:

-وكيلُ النائبِ العام يكشفُ أمام العدالةِ أخطرَ عصابةٍ تُهدِّدُ أمنَ البلادِ، وعلى رأسهم رتبتانِ من الشرطة وضابطٌ من المباحث..

ودَّت أن تقفز من الطائرةِ ويلتقطها في أحضانه لتغوصَ في عالمٍ من السعادة التي حُرِمت منها منذُ سنوات، وجسدُها يرتعش بشدةٍ، فكما يفعل الخوفُ بنا تفعلُ أيضاً السعادة، فقد تجعلنا نرتجف، نبكي، نضحك، نصارعُ الوقتَ لنشاركَ أحبائنا سعادتنا، نتقاسمها معهم كرغيفٍ طيِّبٍ من خبزِ ساخنٍ، لا نريده أن يبرد إلا داخل جوفنا..

لكن لصديقتها نصيبٌ من سعادتها، وضعت الهاتف بجانبها واحتضنت سوزان بقوةٍ وبكت بين أحضانها حتى هتفت سوزان بمزاحٍ:

-ريم.. أنا سوزان ولست خالداً.. الناس تنظر إلينا، اهدئي حبيبتي، سنرجم هكذا بدلاً من أن نُكَرَّمَ..

تعالت الضحكاتُ حتى أنَّ صداها طرقَ قلبَ خالدٍ فجعله يبتسم دون أن يدري ما السببُ...؟ وكأنَّ رسولَ الحبِّ يُحلِّقُ بجناحيه عالياً يلتقط أخبارها وشعورها ويبثهما في قلب خالدٍ ليشاركها سعادتها..

وصل إلى المطار قبل وصولِ الرحلة بساعةٍ كاملة، وأخذَ يتأمَّلُ الملامح والجدران والمباني والمقاعد، كان يراها في ركنٍ في المطار تبتسم وتفتحُ ذراعيها لاحتضانه، الابتسامةُ لم تفارق وجهَه إلا حين وقعت عيناه على رجلٍ مُسنٌّ يرتدي بذلةً أنيقةً، ويسحب خلفه حقيبةَ سفرٍ، دقَّقَ في الملامحِ فعرفَ صاحبها، تذكر جملةً كان قد قالها له كاتبُه كريم، فأحسَّ بغُصَّةٍ في قلبِه، ثم أخرج هاتفَه وضغط على زرِّ الاتصال، وبعدَ ثوانٍ جاءه الردُّ:

-خالد بك فخور بك وبزوجتك العظيمة الدكتورة ريم، لقد تابعتُ المؤتمرَ وكان قلبي يرقصُ فرحاً..

قاطعه خالدٌ متسائلاً بحزن:

-سيادة اللواء.. هل انتهى الرسامون من عملهم...؟

أجابه الرجل في عُجالة:

-بالطبع يا خالد..

فأخذ نفَسَاً عميقاً وزفره ثم تحدث:

-هل أستطيع رؤية الصورةِ الآن...؟ أودُّ أن تُرسلها لي عبر الميل بأقصى سرعةٍ..

فأجابه الرجلُ بثقة:

-خلالَ ثوانٍ ستكون بين يديك..

أغلق الخطَّ معه وقلَّبَ بصرَه لمحةً للهاتفِ وأخرى للرجل، ومرت دقائقُ كانت هي الأثقلَ في حياته، مرَّت كأنها عمرٌ كاملٌ حتى سمع صوت رسالةٍ،

ففتحها بلهفةٍ وكانت الطامَّةُ.. إنه هو...! عدا خالدٌ نحو الرجلِ ثمَّ وضع يده على كتفِه وقال ساخراً:

-عم محمود.. هل جئت لتحضِّرَ لي قهوتي هنا...؟

التفت الرجلُ إليه فاتسعت مُقلتاه في صدمةٍ واضحةٍ ثم ابتلع ريقَه بصعوبةٍ بالغة وهتف باستنكار:

-عم محمود...! من تقصد...؟

ضحك خالدٌ عالياً وقبض على مِعصَمِ الرجلِ وسار به ناحيةَ مكتب شرطةِ المطار ثم سأله بجديةٍ:

-وفأرٍ أراد الحياة فجعلَ من القطِّ حارساً له، وغزالٍ لسعته البرودةُ فارتمى في أحضانِ أسدٍ جائعٍ...!

من الفأرُ يا عم محمود ومن القط...؟

من الغزال ومن الأسد...؟

ابتسم الرجلُ بمرارة وأجاب:

-كنتُ أعلم أن نهايتي ستكونُ على يديك، ولكن تأكد أنني أنا من اخترتها، حين رفضتُ فكرةَ اغتيالك..

ولمَّا وصلا إلى مكتب الشرطة أخرج خالدٌ هاتفَه وبسعادةٍ بالغةٍ هتف:

-سيادة اللواء.. الأميرُ تحت قبضتي الآن.. أنتظرك داخل مكتب الشرطة في مطار القاهرة..

فرحةُ القبضِ على الأميرِ أنسته استقبالَ زوجته، فظلَّ يناقش الرجلَ ويستجوبه حتى هبطت الطائرةُ على أرضِ المطار، وقفت ريم على سُلَّمِ الطائرةِ وجالت ببصرها بحثاً عنه، لم تجد سوى رئيسها في العمل ووزير الصحة وبعضِ القنوات الفضائية التي جاءت لتغطي خبرَ عودتِها إلى بلدها، فنزلت الدرجَ بهدوءٍ ولازالت عيناها تبحث عنه، استقبلها الرجالُ بحفاوةٍ بالغةٍ وفخرٍ، وكذلك استقبلوا سوزان، وهتف وزيرُ الصحةِ بسعادةٍ:

-الوزارة فخورةٌ بكما وكذلك القياداتُ العليا، وفي غضون أيامٍ سيقامُ مؤتمرٌ طبيٌّ على خلفيةِ المؤتمرِ العالميِّ، كونا جاهزتين ...

أومأتِ الصديقتان برأسيهما وشكرتا الوزير على حُسنِ استقبالهما وكذلك رئيسهما في العمل ثم التفَّتِ المذيعات حولهما، كشعبٍ من النمل التفَّ حولَ قطعتين من السكر، وبدأنَ في إلقاء أسئلتِهن عليهما، كانت ريم تجيبُ بنبرةٍ حزينةٍ وإيجازٍ، لسانها فقط هو الحاضر أما جوارحُها فجميعُها ذهبت تبحثُ عنه، وحين فقدت الأملَ في حضورِه، ذرفت عيناها دموعاً حارةً فربتت سوزان على ظهرها وأردفت تطمئنُها:

-يبدو أن ظرفاً ما قد منعه من الحضور، ولا تنسَى أنكِ طعنتيه في شرفِه ووطنيته....

هزَّت ريم رأسَها بأسى وسارت نحو الخارجِ برفقةِ سوزان، وما إن تجاوزتا أرض المطار حتى رنَّ هاتفُ ريم، فانقبض قلبُها حين رأتِ المتصلَ؛ فقد كانَ "ليلى" فضغطت على زرِّ الاستقبالِ وأنصتت للمتحدثة التي قالت بنبرةٍ حادةٍ وجاحدةٍ:

-ريم.. والدك ينازعُ الموتَ ويريد رؤيتك..

صرخت عبر الهاتف:

-لا أريد رؤيةَ أحد..

جاءها الردُّ بجفاء:

-لقد أبلغتُك فحسبُ، والآنَ اذهبي إلى الجحيم..

أغلقت الخطَّ في وجه ريم وتركتها تموجُ في غضبِها العارم، فسألتْها صديقتُها بقلقٍ:

-ريم.. ماذا حدث...؟

أجابتها من بين دموعها الحارقة:

-أبي على فراشِ الموت ويريد رؤيتي وأنا لا أريد.

بحزنٍ بالغٍ ردت سوزان:

-لا يا ريم أنه أبوك ومهما فعل لا تجعليه يغضبُ عليكِ، اذهبي إليه واطلبي منه السماح..

نظرت ريم إلى صديقتِها بغرابةٍ شديدةٍ ونطقت بحزمٍ بعد أن جفَّفت دموعها:

-حقاً.. سأذهب ولكن ليس لأستسمحه، بل ربما أجد اعترافاً يُنصفُ بريئاً..

قالت جملتها وأسرعت الخطى نحو سيارةِ أُجرة، فركبتها وانطلقت السيارةُ بها..

وفي هذا الوقتِ وصلَ اللواءُ مديرُ قطاع الأمن العام إلى مكتب شرطة المطار، فاستقبله خالدٌ بابتسامةٍ ثقةٍ وأردف:

-الأمير يا سيادة اللواء.. هل تعلم أنه من كان يُعِدُّ لي القهوةَ كلَّ صباحٍ...!

ففغر الرجلُ فاه في تعجب، ثم ربت على كتفِ خالدٍ وتحدث بسعادةٍ:

-خالد بك.. لا أعرف كيف أشكرك؛ فلولاك لأصبح هذا المجرمُ الآن خارج البلاد ...

فابتسم خالدٌ في وجه الرجلِ وردَّ بثقةٍ:

-لا داعيَ للشكر سيادةَ اللواء؛ فهذا واجبي، هل أستطيع الانصرافَ الآن فالدكتورة ريم على وشك الوصول..

رد الرجل بفرح:

-دعنا نستقبلها معاً فهي الأخرى رمزٌ من رموزِ بلدنا التي نفخر بها ...

أمرَ الرجلُ رجالَه أن يأخذوا محمود إلى عربتِهم بعد أن يضعوا في يدِه الأغلالَ، ثم تحرك هو وخالدٌ نحو قاعة المطار، فعلِمَا حينها أن الرحلةَ قد وصلت منذُ ساعةٍ مضت، فسيطر الحزنُ على وجه خالدٍ واستأذن من اللواءِ وانصرف ليلحقَ بريم في منزله، وانطلق بسيارته كالبرق الخاطفِ، وحين دلف إلى المنزل لم يجدها؛ فأخرج هاتفهاً واتَّصل عليها:

-الهاتف الذي طلبتَه غيرُ متاحٍ الآن..

فضرب فخِذَهُ بغضبٍ ثم اتَّصل على سوزان:

-أين ريم يا دكتور سوزان...؟

ردَّت عليه بإرهاقٍ بالغ:

-ريم في منزلِ والدِها، لقد جاءتها مكالمةٌ من أختِها تخبرها فيها أنَّ والدها ينازعُ الموت.. أرجوك كن بجوارها فهي تعشقك حدَّ الإدمان..

*****

سبق قلبُ ريم جسدَها إلى المنزلِ، وقبل أن تصعد قدماها الدرجَ وقفت عند البابِ واستعارت وجهاً صلباً، وقلباً من فولاذٍ، وجسداً من صخر، ثم طرقتِ البابَ بقوةٍ، فسمعت صوتاً مرهقاً من الداخل استعار من الموتِ نبرتَه يقولُ:

-من بالباب...؟

لم تسمع أذناها شيئاً سوى صوتٍ طفيفٍ شبيهٍ بطنينِ ذبابةٍ، فتابعت الطرقَ ففتحت ليلى بوجهِها الشاحبِ المليءِ بالقرحات، وكانت تشبه شجرةً عجوزاً أنهكتها حدَّةُ الفئوسِ، وكان لهبُ المرضِ غدر بجسدِها الرشيقِ وحوَّله إلى كتلةٍ من ألم متوهِّجٍ ..عندما رأت ريمَ واقفةً أمامها رمقتها بطرفِ عينيها الذابلةِ ثم تفحصتها بكراهيةٍ من أخمُصِ القدم حتى الناصيةِ وتساءلت بجفاءٍ وحدة:

- لماذا جئت إلى هنا...؟ ألم تقولي أنك لا تريدين رؤيةَ أحد...!

دفعت ريم يدها الموضوعةَ على الحائطِ ودلفت وهي تردُّ بحدَّةٍ مماثلةٍ:

-جئت لكي أعرفَ الحقيقة.. عساه ينطق بها في لحظاتِه الأخيرةِ وهو بين مخالبِ الموت؛ فقهقهت ليلى بسخريةٍ ثم أردفت بكرهٍ:

-لازلت تظنين نفسكِ نبيَّةً معصومةً من الخطأِ وتُنصِّبين من نفسِك حاكماً علينا؛ إذن: لا بأس سأخبرُك أنا بالحقيقة.. هذا الذي يُصارعُ الموتَ الآنَ كان

لا يعاملني معاملةَ أبٍ لابنتِه، بل كان يعاشرني معاشرةَ الأزواج؛ والأمر الذي رفضتِه أنتِ؛ أحببته أنا واستمتعت به بكلِّ جوارحي.. نعم.. فالذي حاول أن يفعلَه معك وكذبتُكِ أنا فيه، كان يفعلُه معي في كلِّ ليلةٍ، وكنت أتظاهرُ بالنوم، وكان هو يعلمُ أني لست نائمةً.. فكان يلمسُ كلَّ جسدي ويداعبُه، فأحببت الشعورَ بالاهتمام بعدما كان كلَّه حِكرا عليكِ أنتِ، الأحضان، المداعبة، الدلال، كلُّ شيء كان لكِ، كنتِ المدللةَ لديهما وأنا كنت المنبوذةَ التي لا يشعرُ بها أحد، كنت أمقتُكِ وأمقتُهما وأمقتُ نفسي، فكرت كثيراً في أن أتخلَّصَ منكم ومن نفسي حتى فعل فعلته، وفي البداية كنت أظنني أحلم أو أنَّ عقلي الباطنَ يُعوِّضُني عما فقدته من حنانٍ وعطف واهتمام، إلى أن تكرَّرَ الأمرُ كثيراً، حينها تعمدت أن أتظاهر بالنوم لكي يستمر، وفي يومٍ من الأيام، كنتِ أنت في الجامعة، وأُمُّك خرجت لقضاءِ مستلزماتِ البيت، ولم يبقَ في المنزلِ سوانا، فتعمدت أن أرتدي قميصاً قصيراً، دون غيره من الملابس ...

قاطعتها ريم صارخةً بهستيريةٍ:

-كفاكِ لا أريد أن أعرف شيئاً..

فصرخت هي الأخرى صرخة أربكت روحَ الرجلِ النائمِ على فراشِ الموت:

-لا.. أردتِ أن تعرفي الحقيقة.. حسناً عليكِ التحمل..

أولتها ظهرها وأسرعت نحو الباب، أرادت أن تخرج، ولكن ليلى حالت بينها وبين الخروج، وتابعت صرخاتها الممزوجة بالقهر:

-لن تخرجي قبل أن تعرفي كلَّ شيءٍ...! في ذلك اليوم دخل غرفتي وتظاهرتُ بالنوم، فلمس مفاتني وأثارني، ففتحت عيني وجذبته إليّ.. لم أكن أريدُ علاقةً كما ظنَّ هو؛ بل كنت أريد الانتقامَ منه، ومن نفسي ومنكِ أنت وأمك...

بعد ذلك اليوم أصبحت أنا المدللة لديه، أحببت اهتمامه وسؤاله عن حالي، إلى أن زاغت عيناه عليك، وحاول أن يجعلَ منكِ ليلى ثانية، لم يكن

أمامي خيارٌ آخرُ سوى تكذيبك، فإنه ليس من العدل أن تشاركيني حتى في علاقتي به..

كانت ليلةَ عيدٍ بالنسبة لنا حين غادرتِ المنزل، لقد احتفلنا ليلتها حتى الصباح، وقتها فقط انتابني شعورٌ أنني سيدةُ هذا المنزل وأستحقُّ أن آخذ حقِّي من هذه الدنيا اللعينة ولو عنوة..

وضعت ريم يدها على فمِها تكتمُ صرخاتِها فما سمعته الآن فاقَ الحدِّ والتصور، فمن قبل كان يتخللها شعورٌ بأنَّ هناك شيئاً غامضاً لا تعرفه، لكنها لم تكن تتصورُ أنه بهذه البشاعةِ والقذارةِ، وأنها يوماً ما ستقف هكذا أمام أختِها لتسمعَ منها ما تخجل الشياطينُ أن تسمعَه، أما ليلى فلا زالت تستطردُ، إلى أن وقفت عند ذكرِ أمها، فتساءلت ريم عن صحةِ ما نعتا به الأمَّ؛ فأجابت ليلى بجمود:

-أمك.. لقد رأتنا معاً في السرير.. أتذكرين حين ظلَّت طريحةَ الفراشِ شهراً كاملاً لا تتحدث مع أحدٍ...؟ كان هذا بعد رؤيتها لنا، وحين استردَّت عافيتها، كان على والدك الاختيار، إما أنا وإما هي...! لقد اقتنص الفرصةَ واختار الشبابَ والجمال، اختارني أنا وتركها وشهَّرنا بها وبعهرها الذي كان مجرَّدَ كذبةٍ اخترعتها أنا؛ وحين غادرت المنزلَ أمرتُه أن يطلِّقَها ففعل، وبقيتِ أنتِ العائقَ لحريتنا..

أزاحتها ريم من أمامِها وانطلقت كلماتُها صارخةً:

-يا إلهي...! أنتِ إبليس في هيئةِ بشر، يستحيل أن تكوني بشراً أبداً، أنت بالتأكيد شيطان..

رمقتها ليلى بعينيها الذابلتين والحقدُ يملأ قلبَها ثم صاحت بغضبٍ جمٍّ:

-أنا بشرٌ قرر أن ينتقمَ لنفسِه ويأخذَ حقَّه بيده ليعيشَ كما يريد ...

حملت ألمَها، وقبل أن تغادر ناداها سعدٌ؛ وقد نطقَ أخيراً، فلم تلتفت إليه وأكملت طريقَها، وإلَّا فكيفَ تُسامحُ رجلاً نَزَكَ أُمَّها...!؟

-ريم.. ريم.. سامحيني..

هرولت نحوه ليلى فرأته يمدُّ ذراعَه المتثاقلةَ بالأوجاعِ ويُردِّدُ بوهنٍ:

-ريم.. سامحيني..

أمسكت ذراعَه بقوةٍ، وصرخت فيه:

-حتى وأنتَ على فراشِ الموت تناديها.. تستعطفها وتستجديها.. وتنطق باسمها الذي كان سببَ دماري...! أبَعْدَ كلِّ ما قدمتُه لك.. أعطيتك حياتي، وجسدي.. منتُحك عمري، أفنيتُ صحتي مقابلَ إشباعِ رغباتك، حتى ذلك الذي طرق بابَ قلبي، لم أتمسَّك به لأجلك، ورغمَ كلِّ هذا مازالتْ هي المفضَّلةُ لديك...؟!

أنا أكرهك.. أكرهك.. أكرهك..

خرجت كلماتُها الثلاثُةُ مع خروجِ روحِ سعد، وهرولتْ ريم في الطرقاتِ، وهي تحملُ صدماتِها على ظهرها وتركض بها نحوَ مدينةِ الصامتين..

*****

# الفصل الأخير

وصلت إلى هناك بعد أن اهترأت قدماها، ونزفت بشدةٍ، فوقفت تتأملُ أولئك الأشخاصَ الذين سكنوا الترابَ دونَ ضجيجٍ، بكت ثم هتفت:

-يا ليتني بينكم الآن؛ فأنتم لا تزاحمون في طرقاتِ الشرِّ، تبحثون عن فرائسَ تأكلون لحومَها، ولا نسمع لكم أنيناً ولا نواحاً، ولستم تُؤذون ولا تفترون على أحدٍ، بل تركتم لنا الدنيا لنرتعَ فيها، وندهسَ بأقدامِنا القيمَ والأخلاقَ من أجلِها، ولا نعلمُ أنها سرابٌ كمن يقبضُ على ماءٍ في يديه..

وقفت تخاطبُهم، تحسبُهم رقوداً وهم أيقاظٌ إن سألتهم عن حالِهم لن يجيبوك رغم أنهم يسمعونك جيداً، ولكن ما يشغلهم أعظمُ من سؤالك فمنهم من ينادي ربَّه يستعجله القيامةَ، ومنهم من يرجوه ألَّا تقامَ، كلٌّ مغموسٌ في شأنه، رغم أنهم يحسُّون بمن يزورنهم كمثلِ هذه المرأة التائهةِ التي جاءت تبحث عن ذاتِها وربما لتضعَ سرَّها وترحلَ أو تطبعَ قبلةَ اعتذارٍ على قبرِ أحدِهم وتذهب.

لقد جرَّتها قدماها إلى هنا؛ فإنَّ ظاهرةَ سقوطِ الشهبِ في جوفِها لم تعُدْ ذاتَ رواجٍ في سوقِ النخاسةِ، منذ ليالٍ مضت وهي تشعر بالفراغِ بعد احتراقِ كلِّ شيءٍ آمنت به، كانت تودُّ على الأقلِّ رهنَ مشاعرِها لطاولةٍ غريبةٍ حكى عليها الغرباءُ عشرات القصص السخيفة، لكنها فضَّلت أن تُزيحَ جبالَ الهمومِ من قلبِها وتغسلَ أوانيَ عقلِها المتَّسخةِ بالظنون لتحملَ فيها فواكه التسامحِ والغفرانِ وتعودَ محملةً براحةِ البال. يبدو أن لها مآربَ هنا، جالت ببصرها باحثةً عما تريد، كلُّ ما حولها هادئٌ ساكنٌ موحش، رائحة الموتِ تملأ الفؤادَ

هيبةً ورهبةً، لا يوجد شيءٌ من آثارهم عدا الأسماءِ المنقوشةِ على رخامةٍ بيضاءَ وذكرياتٍ محفورةٍ على جدران قلوبنا، تفقدت المكان بعينيها الحزينة تبحث عن قبرِ والدتها، فهنا لا فرقَ بين أحد:

-أُمَّاه.. أين أنتِ يا أماه...؟

جلجلت بأعلى صوتِها لعلَّها تجيبُها وتقول أنا هنا يا طفلتي، كما كانت تفعل عند عودتها من المدرسة، بحثت كثيراً تشابهت عليها القبورُ؛ فلم تجد ضالَّتَها فهذه هي المرةُ الأولى لزيارتِها بعد مرورِ سنواتٍ على وفاتِها حتى أنها لم تحضر جنازتَها. فسقطت أرضاً ودموعُها قد سبقتها تُبلِّلُ الترابَ ثم جلجَلَ صوتُها في الأفقِ وهي تصيحُ باكيةً:

-سامحيني أُمَّاه، الآن فقط كفرتُ بكلِّ ما قيلَ لي في حقكِ وأعلمُ أنك ستغفرين زلَّتي، أراكِ نائمةً نومةَ الْعَرُوسِ الَّتي لا يُوقِظُها إلا أَحَبُّ الناسِ إلى قلبها، ها أنا هنا.. استيقظي وضميني إليكِ فكلُّ شيءٍ فيَّ ينقصُه حنانُك..

أتاها صوتٌ من داخلِها كنسمةٍ رطَّبت على قلبِها فأنصتتَ له بكلِّ جوارِحها:

-أتذكرين يا حبيبتي بمَ كنتُ أوصيكِ في مثلِ تلك المواقفِ حينَ كنتِ صغيرةً..

استجمعت شتات عقلِها المبعثرِ هنا وهناك وجالت في أدراجِ ذاكرتِها حتى عثرت على إجابة السؤال، وضعت يدها على قلبِها وأغمضت عينيها ثم نهضت، ليس العيبُ أن نسقطَ وإنما العيبُ كلُّ العيبِ أن نستسلمَ للسقوطِ، أكملت طريقَها مغمضةَ العينين مُردِّدةً بقلبِها قبل لسانِها:

-يا هادي.. يا دليلي دُلَّني..

سرعانَ ما استشعرتِ الراحةَ في نفسِها وسمعت طنينَ نحلةٍ تُوشكُ على إفرازِ عسلِها، فغزتْ رائحةٌ طيبةٌ أنفها فتوقفت وأنصتت لدقاتِ قلبِها، فسمعت صدى صوتٍ لأُمِّها يناديها:

-افتحي عينيكِ حبيبتي.. أنا هنا..

قبرٌ جميلٌ لا يشبه باقي القبور، محاطٌ بالآسِ الأخضرِ من كلِّ جانبٍ مع زهورِ الأقحوان.. رائحةُ المسك والحنانِ تملأُ المكانَ عبقاً، وحماماتٌ بيضاءُ تقف شاهدةً القبر كأنَّ هناك من وظَّفها لمراعاتِه.. هذه ليست مقبرةً بل قطعةٌ من الجنةِ والملائكةُ حرَّاسُها، فارتمت عليه وسقت دموعُها الأزهارَ والأحجار، وبكى كلُّ شيءٍ معها:

-أماه.. رائحتُك لم تتغيَّر.. حضنُك الدافئُ المليء بالحنان كما عهدته.. اشتقت إليكِ.. اشتقتُ لوجهِكِ الملائكيّ، وعينيك الناعستين، ويديكِ الناعمتين عندما كنتِ تمرِّرينهما على خصلات شعري المتناثر، وبسمتكِ الفريدةِ التي لم أرَ مثلها بعد رحيلكِ.. اشتقتُ لهمسكِ.. لكلماتك.. ضحكاتك.. حركاتك

اشتقت لكلِّ شيءٍ فيكِ ومنكِ.. حتى غضبُك...!

هل تذكرين يا أمي عندما كسرتُ هديةَ زفافكِ.. وقتَها غضبتِ كثيراً وعاقبتِني وضربتِني على يديَّ

هاكِ يا أمي أمدُّ لكِ يديَّ.. انهضي.. اضربِني.. ليت عقابَكِ هذه المرةَ لم يكن هكذا، أعلم أنَّ ذنبي كان عظيماً، ولكنني لم أتخيل أنَّ عقابكِ سيكون أعظمَ..

لماذا.. لماذا رحلتِ.. لماذا...؟

أعترف بأنَّ أخطائي كانت كثيرةً وكنتِ دائمةَ الصفحِ والعفوِ ولا تعاقبيني، لِمَ اخترتِ أشدَّ العقابِ...؟

لماذا تركتِني وأنا في أشدِّ الحاجةِ إليك...؟

لماذا رفعتِ قلبكِ عني وجعلتِني أواجهُ الحياةَ وحدي...!

مَن سيقولُ الآن هذا صوابٌ وهذا خطأٌ...؟! سآخذُ رأيَ من عند حاجتي للنصح...!

أتذكرين عندما كنتِ تنصحِنني وأنا كنتُ أتململُ وأتضجَّرُ من تكرارها.. الآن علمتُ قيمةَ كلِّ كلمةٍ منك؛ ولكنْ بعد رحيلك...! لم يعد للدنيا ألوانٌ..

وكلُّ شيءٍ تحوَّل إلى سوادٍ حتى قلبي أصبح أشدَّ ظلمةً من ليلةٍ غابَ فيها القمرُ وانكَدَرَت نجومُها

ليتك تعودين ليومٍ واحدٍ فقط حتى أُصلحَ فيه كلَّ أخطائي، وأُبدلَ كلَّ عاداتي التي كنتِ تُبغضينَها، وأعتذرُ منك عمَّا بدرَ مني في حقكِ..

لقد علمتُ الآن أنكِ براءٌ من العهرِ كبراءةِ الذئب من دمِ ابنِ يعقوبَ.

هل تعلمين يا أمي أنكِ تشبهين يوسفَ وأباه في البلاء...!

لقد كان ظلمُكِ من أقربِ الناسِ إليكِ.. زوجِكِ وابنتيكِ.. يااه يا أمي لِمَ كتمتِ داخلكِ كلَّ هذا القهرِ والظلمِ ولم تبوحي به لي...؟ كيف استطعتِ تحمَّلَ اتهاماتي وأنتِ بريئةٌ...؟ أمي سامحيني يا أمي واقتلي الغياب وعودي.. عودي وسأكونُ الفتاةَ المثالية..

غاب صوتُها وسطَ بكائها، وهي تحتضن شاهدةَ القبر.. كذلك غابت عن الواقعِ فرأت في منامِها أنَّ أمَّها تجلس أمامها بعباءةٍ بيضاءَ اللونِ واسعةً وهي تقبضُ على رأسِها وتضمُّها إليها وهي تداعبُ خصلاتِ شعرِها، وتربتُ على ظهرها..

*****

اتجهتْ "سحر" بخطواتٍ باردةٍ مُثقلة بحزنِها المُخبأ في قاع البؤسِ داخلَ قلبِها، حاملةً بينَ ذراعيها روحًا رغمَ موتِها إلا أنَّها لم يواريها الثرى، ولم تُحملُ على الأكتافِ لتوضعَ في لحْدِها، حدَّقتْ فيها كمَنْ يُحَدِّقُ في بوابةٍ سحريةٍ تنقلُها إلى عالمٍ مليءٍ بذكرياتٍ مريرة، رفعتْ يدَها النائمةَ على خِصرِها لتتحسسَ بها وجههَا الباردَ، بدأتْ يدُها تنزلُ ببطءٍ إلى أزرارِ ردائها " لتحرِّرَ جسدَها من عُبوديةِ الملابسِ " أصبحتْ كبهيمةٍ جُردتْ من قيودِها وانزاح الستارُ عن جسدٍ حَفَرَ عليه سوطُ الظلمِ قصةً لن تراها سوى بنظارةِ الجمودِ وغشاوةٍ ترتسمُ فوقَ صفحاتِ الأعين، لترى بتلك الغشاوةِ آثارَ ندباتٍ مُنذُ القدمِ، تؤلمُها كلما نظرتْ إليها وتُوقدُ نيرانَ الشهوةِ في صدرِها، ظلتْ عيناها

تُغرقان في تأملِ جسدِها بينما تُعانقُ يدُها تلك الندوبَ وتتركُ قبلاتٍ حزينةٍ عليها، ولكن هيهاتَ!؛ ستظلُّ قبلاتٌ على جبينٍ ميتٍ لا تُسمنُ ولا تُغني من جوعٍ، لن تجبرَها براءةُ يدِها من إثمٍ ارتُكِبَ في حقِها مُنذُ سنواتِها العِجافِ، مسرحيةٌ سخيفةٌ تُكررُ نفسَها كلما دَبَّتْ الشهوةُ بجسدِ المخرج، أخذتها ندوبُها إلى رحلةٍ عبرتْ فيها الزمانَ والمكانَ، لتجدَ نفسَها في غُرفةِ طفلةٍ لم تتعدَ الرابعة عشر من عُمرِها، تنعي بالبكاءِ أمَها التي توفَّتْ مُنذُ أيامٍ، وكأنَّها رغمَ صِغرِ سنِها كانتْ تشعرُ بتلك الأنيابِ التي ليس لها منها من واقٍ، مرَّ الوقتُ ثقيلا كقنبلةٍ موقوتةٍ أخذتْ من وقتِ ضحاياها فوقَ نصيبِها مئةُ ألفِ مرة، تبحثُ الفتاةُ بينَ دموعِها على لمسةٍ حانيةٍ تُطمئنها، تنتظرُ الشقَّ الآخرَ من حياتِها، ملاك ولادتها، في تلك اللحظةِ بالذاتِ فُتِحَ البابُ وظهرَ من خلفِه ثعبانٌ أقرعٌ متمثلا في والدها، خاطبَها بلهجةٍ حادةٍ قائلا :

- لا نبكي الكلابَ حين تموتُ وما هي إلا كلبةٌ لقيتْ حتفَها!

ردتْ حينَها بقهرٍ وعصبيةٍ:

-إنَّها أمي وليستْ كما ذكرتَ، أما كفاكَ ظلمًا لها!؟؛ بِتُ الآنَ أشكُّ في أمرِ وفاتِها.

كلماتُها جعلتْ حيةُ الغضبِ تتراقصُ داخلَ جُمجمتِه ليُظهرَ يدَه المُخبأة خلفَ ظهرِه حاملًا سوطَ جلادٍ ظالم.. انهالَ عليها ضربًا دونَ رحمةٍ، صرخاتٌ عاجزةٌ دوَّتْ في المكانِ، حتى انفطرَ قلبُها، كانتْ تُحدِّقُ في الفراغ أمامَها، لا ترى سوى طيفِ والدتِها تبكي بحرقةٍ على مرارِ ابنتها الذي لم ينتهِ، رمى السوط من يدِه واقتربَ منها كثعلبٍ أنهكَ فريستَه جريًا حتى يُمسكَ بها وهي مكسورةُ القدمين، أخذ يُزيلُ عن جسدِها الملابسَ، وعيناه تأكلان تفاصيلها، تنظرُ لكلِّ مكانٍ فيها إلا عينيها، رغم أنَّها كانتْ تبحثُ بهما عن بصرٍ في عينِه أو بصيرةٍ في قلبِه لكنَّها لم ترَ إلا حيوانًا شرهًا أو سَبعًا فتّاكًا لا يعرفُ للحياةِ ظاهرًا من باطن، راحَ يُقبِّلُ جسدَها بنهمٍ، فاختفتْ الرؤيةُ أمامَ عينيها وأحسَّتْ أنَّ الدنيا قد انطبقتْ عليها ، هَمَّ باغتصابِها، نجحَ في انتهاكِ عِرضِها كما اغتصبَ طفولتها

من قبلُ، منذُ الصفعة الأولى التي لطمت خدَّ والدتها أمامَها وهي طفلةٌ لا تستطيعُ فِعلَ شيءٍ بأظافرِها الناعمةِ، صوتُه وهو يُهينُ المرأةَ التي أخرجتَها للحياةِ ومنحتَها الأمانَ كانَ يغتصبُ براءَتها، لقد دكَّ كلَّ حجرٍ فيها ولم يُبقِ سوى جسدِها فجاءَ كي يُكملَ ما بدأه، لم يكنْ بوسعِها إلا أنْ تُطلقَ صرخاتٍ عاجزةٍ ودموع قهرٍ سالتْ على النُدوبِ لتطفئَ بها حرارةَ الألمِ ، صراخُها أعادَها إلى واقعِها لتتعالى ضحكاتُها الممتزجةُ بدموعِ القهرِ لتهرولَ وتبحثَ بشكلٍ هستيري عن السوطِ، بحثتْ عنه في جميعِ أنحاءِ المنزلِ لتجده تحتَ سريرِها، حملته وغادرتْ مخدعَها متوجهةً نحوَ غرفتِه متبخترةً في مشيتها مائسةً بخِصرِها كلبؤةٍ تستعدُ للانقضاضِ على فريستِها، فتحتْ بابَ غُرفتِه ودلفتْ إلى الداخل.

تريثتْ قليلا تتأملُ حالتَه المُزرية؛ أبلهٌ معتوهٌ عقلُه هجرَ جمجمتَه وتركَها خرابةً عششتْ فيها دبابيرُ الجنونِ، مستلقٍ على سريره كنبتةِ خشخاشٍ نخرَها العثُ ولم يُبقِ منها إلا هيكلها الخارجي، حركاتُه تُخبرُ مَنْ حوله أنَّه أضلَّ عقله في دهاليزِ الحياة، فقدَ السيطرةَ على حركاتِ جسدِه، أصبحَ كدميةٍ خشبيةٍ فقدَ صانعُها التحكَّمَ بها، حتى عيناه كانتا كل واحدةٍ تُحدِّقُ في جهة؛ يبحثُ عن شيءٍ في اللاشيء، محاطتان بهالةٍ سوداءَ تُزيدُ من كدرةِ الرؤية ، يعدُّ أصابعَ يديه وقدميه، سخرتْ منه في نفسها: فلنبدأ العدَّ إذا... هكذا هتفتْ بصوتٍ مسموع وهي تنظرُ إلى لعابِه الذي سالَ من ثغرِه كطوفانٍ هائجٍ أغرقَ ثيابَه ورقبته.

اقتربتْ منه فبدأ بالقفز والصراخِ كقردٍ جائعٍ سُرقتْ منه موزته ...

حاولتْ تهدئتَه وتهويده، روضته إلى أن استطاعتْ تقييدَه في السرير، أصبح كنعجةٍ أُعدتْ للسلخ.

وحانتْ لحظةُ الثأرِ رفعتْ السوطَ للأعلى ثم هوتْ به على جسدِه وهي تصرخُ فيه: ستكونين تافهةً مثل أمك، الآنَ أنا حيوانٌ مثلُ أبي فلتطمئنْ...

رفعتْ يدَها مرةً أخرى وحطتْ بالسوطِ على جسدِه : لا يمكنُ أن يُخلقَ مَلاكٌ من ظهرِ شيطان..

الثالثة: بذرةُ الشرِ يحصدُها زارعُها..

الرابعة، مسحتْ دموعَها بظهرِ كفِّها وهوتْ بيدها الأخرى: سأكفكفُ دموعَ أمي لا دموعي فقط..

لم تكنْ ترى في عينيها إلا شيطانًا يُعذِّبُ فتاة صغيرة وتريدُ الاقتصاصَ لها، ضرباتُها حملتْ قوى المقهورين في العالم، صراخُه وأنينُه كان يُطفئ غضبَها ويُشعلُ شهوتَها، حتى كلّتْ سواعدُها، تركتْ السوطَ من يدها وانتظرتْ حتى التقطتْ أنفاسَها ثمَّ أخرجتْ لسانَها ومصَّتْ به شفتيها بشهوةٍ ساديةٍ غاضبة، بينما هو ظلَّ يتأوه بأنين.

اقتربتْ منه ومزَّقتْ ملابسَه وهمَّتْ به، لكن سَرعانَ ما توقفتْ وصرختْ بهستيريا: ليس لديَّ شيءٌ صُلبٌ أهتكُ به عِرضَكَ..

ثوانٍ وتحوَّلَ صراخُها إلى ضحكاتٍ عارمةٍ وتابعتْ حديثَها من بين ضحكاتِها: ما أكثرَ الأشياءَ الصُلبة هنا..

نهضتْ عنه وهرولتْ نحوَ المطبخ ثم عادتْ وبيدها سكينا، واستأنفتْ حديثها الممزوجَ بالجنون: حانَ وقتُ اغتصابِكَ..

رشقتْ السكينَ بقوة في دُبرِه، فصرخَ صرخةً واحدةً تبعتها روحُه النَجِسة، حين رأتْ الدمَ يسيلُ منه بغزارةٍ، والجسدُ قد ساوى الجمادَ، تملكَ الرعبُ منها لبضع دقائقَ ثم سيطرَ عليها فرحٌ عارمٌ أقام طقوسَه في قلبها، تركته وغادرتْ المنزلَ عاريةً، طرقتْ أبوابَ جيرانِها وهي تصرخُ بجنونٍ:

-لقد ماتَ الشيطانُ لقد ماتَ....

*****

جلس خلف مكتبِه يستنجدُ بريح الذكرياتِ لعلَّها تمشِطُ التعبَ العالقَ في لحيةِ جنونِه فيجفُّ كما يجفُّ الطلاءُ على حائطٍ ما، ينتظرها تُمرِّرُ أصابَعها عليه لينكسرَ..

يبدو أنَّ الوقتَ قد حان ليرمِّمَ قلبَه المكسورَ برؤيتِها، ويُضمِّدُ جرحَه المتأججَ بحديثِها.

رنَّ هاتفُه فرمق المتصلَ بنظرةٍ متوهجةٍ ثم رفعَ الهاتف على أذنه وردَّ:

-مرحباً يا علاء..

بنبرةٍ حزينةٍ سأله:

-هل لازلت تحبُّها...؟

أجابه مستفسراً:

-من...؟

جاءه الردُّ كقنبلةٍ فجَّرت صمامَ الحنين داخله:

-ليلى ..

وجِمَ قليلاً حتى استجمع قواهُ وتساءل:

-علاء.. ماذا هناك...؟

بنبرةٍ أشدَّ حزناً أجاب:

-لقد مات والدُها الآن، أردتُ فقط أن أخبرك...

لم يُكمل علاءٌ حديثه، إلَّا وقد أغلق أمجدُ الخطَّ وهرول نحو الخارج، وأسدل بابَ الصيدلية في عجالةٍ وركض كالمجنون، فلمحته أسماءُ من بعيد، فنادت عاصماً الذي كان يجلس داخل المنزلِ برفقةِ منال، فأتاها سريعاً، فطلبت منه أن يلحق بالدكتور أمجدَ ويظلُّ معه ويوافيها بالأخبار..

النهاية

كانت الأرضُ تئنُّ من تحتِ أقدامِها حزناً عليها، أحسَّت أنَّ شواهدَ القبورِ تبكي مع بكائها، فارتفع نحيبُها وهي تنكفئُ على وجهِها بجوارِ قبرِ أمِّهما، وودَّتْ لو أنها تستطيعُ احتضانَها ولو لمرةٍ واحدةٍ.. للمرةِ الأولى تشعرُ بفاجعةِ موتِها.. ترى الجزءَ الناقصَ من فرحتها أين كان مختبئاً.. هنا في قبرِ أمِّها.. كانت أصواتُ أقدامِ واستغفارٍ تأتي من خلفِها؛ ولكنَّ شيئاً ما منعها من مواصلةِ البكاء، لامبالاةٌ غيرُ معهودةٍ منها تجاه ذلك الجثمانِ الذي يضعونه في قبرِه الآن، حينَ أحسَّت بيدٍ حانيةٍ تمتدُّ إليها؛ فهي تعرف تلك اللمسةَ جيداً بل إنها في أمسِّ الحاجةِ إليها، فرفعت وجهَها إليه ثم صرخت ببكاءٍ وهي تُلقِي بنفسِها بين أحضانه:

- خاااالدٌ..

فضمَّها لصدرِه أكثرَ وهو يربتُ على ظهرها، ثم أخذها وذهبَ، في تلك اللحظةِ كانت تقفُ خلفها ليلى غيرُ مباليةٍ بدفنِ جثمانِ والدِها؛ بل كان الحقدُ يأكلُها ونيرانُ الغيرةِ تشتعلُ بعينيها وهي ترى ريم تغادر برفقةِ خالدٍ، وما لبثت تلك النظراتُ الحاقدةُ تُشيِّعُهما حتى شعرت أنَّ الأرضَ تميدَ بها فسقطت مغشياً عليها، فلم تُعِرْها ريم أيَّ اهتمامٍ وأكملت طريقَها، بينما هرع أمجدُ نحوها وحملها مسرعاً نحو المشفى، وكانت صرخاتُه تصدحُ في الأفقِ وهو يحاولُ إيقاظَها ولكن دون جدوى، ووصل للمشفى أخيراً وكان يتلظَّى على نيرانِ الخوفِ حتى خرج إليه الطبيبُ يطلب منه عملَ فحصِ Western blot، فتصلَّبَ أمجدُ في مكانِه وقال بتلعثم :

- لكنها عذراء...!

هزَّ الطبيبُ رأسه وهو يقول:

-لا أظن ذلك.. فكلُّ المؤشراتِ تؤكدُ أنها مصابةٌ بالتَنَقْصُم "الإيدز" وفي مرحلةٍ متأخرةٍ منه، أنصحك بعمل التحليل حتى يتسنَّى لنا التشخيصُ والعلاجُ عن يقين...

فخفض أمجدُ رأسَه أرضاً ثم جلس على مقعدٍ في الطرقةِ أمام غرفةِ ليلى، وبعد ساعاتٍ معدودةٍ استلم نتيجةَ الفحص، وكانت قذائفُ الحبِّ تخرج من جسده لترتدَّ إليه ثانياً، يذبح نفسَه بسكينٍ من صنعه، القلب الذي عشق وذاب في هواها هو نفسُه من أوقد النيرانَ في داخله الآن، دخل عليها وكلُّ ما فيه يصرخُ.. فنظر إليها بعيونٍ دامعةٍ وصرخ فيها:

-لمااااذا...؟

فتحدثت بجحودٍ وكأنَّ الأمرَ لا يعنيها:

-في رأيك لماذا رفض أبي شابّاً مثلَك عندما تقدمتَ لخطبتي...؟! لأني كنتُ بمثابةِ زوجته.. أعطيتُه كلَّ شيءٍ وأوَّلها جسدي، إلَّا أنَّه كان أنانياً جداً، حيثُ رفض قبلك الكثيرين؛ فقط ليحتفظ بي لنفسه....

سيطر الذهولُ على ملامحه وهو يستمع إليها:

-لم أكن ضمن حساباتِ أحدٍ.. جسدي هو الشيءُ الوحيدُ الذي كان يجعلني أحصلُ على مكانتي.. لا يهم لمن منحتُه؛ المهمُّ أنني كنتُ أشعرُ بذاتي وأنا أفعل ذلك..

في تلك الأثناءِ كانت أسماءُ تقفُ أمام الغرفةِ وهي تضع يدها على فمِها من هولِ ما سمعت.. كانت الدموعُ تنسابُ من عينَي أمجدَ بلا هوادةٍ، وأصابعه تعيثُ فساداً في شعرِه غيرَ مُصدِّقٍ ما يحدث، فاقتربت منه أسماءُ وأمسكت بيده تجرُّه خارجَ الغرفةِ، يصحبهما صراخُ ليلى الهستيريَّ:

-جميعُكم مخادعون.. حتى أنتَ تركتني ولم تحاول أن تكونَ معي، والآن عندما عُدتَ إليَّ عدتَ وأنت تصطحبُ معك امرأةً أخرى...!

أكرهُك وأكره العالمَ كلَّه، ولا أحبُّ أحداً

اذهبوا جميعُكم إلى الجحيم ....

*****

مدينةٌ لا تشبهُ سواها، كأنها لؤلؤةٌ سقطت من عقدِ الزمانِ واستقرت في أقصى شماليِّ البلادِ.. بهيةٌ، جميلةٌ، رائعة، وساحرةٌ بكل معالمِها، تزيد من سحرها وروعتها بحيرةٌ استعارت لونَها من السماء، ما أجمله من لون عندما تنثرُ الشمسُ أشعتها الذهبيةَ عليها، فيحسبُها الرائي بحيرةً من ذهب، شاطئها الرمليُّ الأسودُ شبيه بكحلاءَ عربيةٍ في عينٍ زرقاءَ أعجميةٍ.. جبالُها مكسُوَّةٌ بحُلَّةٍ بيضاءَ تُحيطُ بها من كلِّ جانبٍ، كأنها سربُ حمامِ السلام تَطوَّقَ بِغصنٍ من الزيتون لحمايته من شرِّ الطُّغاة، طيورُها النادرةُ جمعت البياضَ والسواد في آنٍ واحدٍ وكأنها تقول للكون: ها أنا قد كسرتُ قواعدَك وجمعتُ الليلَ والنهار في جناحيّ؛ حين تحطُّ على حقلٍ من أزهارِ الزنبق الأرجوانيِّ ترسم لوحةً ربانيةً - سبحان من أبدع وصور-..

تلك المدينة يتمتَّعُ أهلُها بالجمال، لا تكاد تفرق بين رجلٍ وامرأةٍ إلا بردائهم فقط-على الرغم من ذلك- يتَّصفونَ بالكرم فلا يطأُ أرضَهم غريبٌ إلا أكرموه، بل وتصارعوا معاً على مَنْ منهم يستقبلُه ضيفاً...؟! وحبذا لو حل الضيف في فصل الشتاء وشاهد معظمهم يصطادون الأسماك في وضح النهار، خصوصاً لو توافق مجيئُه في هذا اليوم (دُر الفساد) وهو ما يُطلَقُ على اليوم الثالثِ من كلِّ شهرٍ شتويٍّ حيثُ يندفعُ المدُّ بكلِّ قوةٍ فيصبحُ الصيدُ وفيرًا .

تخلَّى النهارُ عن موضعِه ولملمتِ الشمسُ أوراقَها الصفراءَ وذهبتْ لتستريحَ بعدَ يومٍ لم تبذلْ فيه الكثيرَ من طاقتِها؛ بينما الناسُ توجَّهوا إلى منازِلِهم وهم يُدندنون بأغانٍ فيروزيةٍ، وجوهُهم مُسفِرةٌ مرآةٌ لِمَا في قلوبِهم من سعادةٍ، صدورُهم مرتخيةٌ تتبختر من فرطِ الرضا، أَهّلَّ الليلُ بمصابيحِه البيضاءِ برفقةِ الهدوءِ وظلَّا يتجولانِ في الشوارعِ حتى الهزيعِ الأخيرِ من الأول، حضرتهُما ثالثتُهما (الريح)، فاستبشرا بقدومِها وظنَّا أنها لن تهتك عِرضَهما لأنها أُختُهما من الرضاعةِ، اصطبرا عليها حتَّى استحضرت كلَّ قواها وخرجت عليهما قوانِصَ وبدأ زفيّها يجتاحُ السكونَ، جشأتْ فغزتِ المدينةَ من الناحيةِ الشرقيةِ، وما إن وصلت إلى رمالِ الشاطئِ حتى هوّدتّهُ وهجّت به فأصبح

نئيجُها أشدَّ من هِجَفِ الرعد حين يكونُ في أوجِ هَزَقه، فَزِعَ منها النيامُ وتهشمت النوافذ وتصدعت الجدران حتى أنهم ظنوا أنَّ القيامةَ قد باغتتهم فهرعوا مسرعين للخارج لكنَّها حاصرتْهم بصوتٍ سهوجٍ قاصفٍ، أصبحتِ الأزقَّةُ حلبةً مليئةً بالخلق، لا تحملُ خصمين سوى هم والجافلة، والغبار يلفهم برداءٍ من شوك، أيقنوا ألَّا قِبَلَ لهم بها ولا يدرون على أيٍّ سترسُو هذه الحرب بحُطامهم فاستسلموا لهمّزِها حتى أنها حملت على ظهرها من حملت ورمتهم خارجَ البلادِ ثم هاجمت البقية فمنهم من افتدت روحه نفسَها وقدَّمت الجسدَ قُرباناً، ومنهم من دَعِبَتِ الداعِبة به وقذفته في مياه البحيرة، أمَّا الأطفالُ فقد خَجّخَجت أرواحُهم، كانت تغزو البيوت من كل اتجاه تأخذ من سُكَّانِها الواحدَ تلوَ الآخر ثم تخرجُ باحثةً عن غيرِه، اقتحمت منزلاً كانت فيه امرأةٌ تقبض على عنق رجلٍ وتصرخ :

-لن أسامحَك أبدًا..

شيءٌ ما في صدرِها ماجَ كالبحر الهادر ثم سكن، عيناها ما انفكَّتا كجمرتَي شتاء، يبدو أنَّ روحها قد هجرت جسدها، فقليلٌ من الزفرات عجزتْ أنْ تُترجمَ الموتَ، تخلَّصَ الرجلُ من قبضةِ يدها المستميتة على عنقه بصعوبةٍ بالغة، وكأنها أصفادٌ طُوِّقَ بها، ركض نحو الخارج فاصطدم بجسدٍ قويِّ البنيان، وقع أرضًا ثم نهض وتابع الركض حتى أصبح في الشارع، وقف لبرهةٍ مُستنكرًا ما حدثَ فالتقطتْه الريحُ كحبةِ خردلٍ لقطها طائرٌ وألقى بها في أرضٍ بعيدة..

*****

تمت بحمد الله